كريستوفر فيليبس

مقهى سقراط

نكهة مختلفة للفلسفة

ترجمة: هادي آل شيخ ناصر







مقهى سقراط

مقهى سقراط: نكهة مختلفة للفلسفة

تأليف: كريستوفر فيليبس

ترجمة: هادي آل شيخ ناصر

الطبعة الأولى 1443 / 2021

ردمك: 978-1-947836-42-6

Socrates Cafe: A fresh taste of Philosophy



دار أثر للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام

تلفون: 00966505774560

الموقع الإلكتروني: www.darathar.net

البريد الإلكتروني: info@darathar.net

مقهى سقراط

نكهة مختلفة للفلسفة

كريستوفر فيليبس

ترجمة

هادي آل شيخ ناصر



إلى حياتي،

سيسيليا

مقدمة المترجم

تعرفت على فكرة مقهى سقراط منذ بدايات رحلة ابتعاثي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ ذلك الحين أصبحت تلك الجلسات الحوارية شغفًا لا يفارقني أبدًا. فهي على بساطتها تأخذني إلى أعماق فلسفية لم أتخيل يومًا أني كنت سأصل إليها. جلسات أفر إليها من صخب الحياة، ولا أحضر معي أي شيء، سوى أسئلة حيرتني، أطرحها على الحاضرين، لأخرج بأسئلة أكثر، ومعها أسئلة حيرت الآخرين في ذلك المقهى. لكن الغريب أن تلك الحيرة التي أخرج بها كانت تجلب لي الكثير من الراحة والطمأنينة والسعادة.

كنت في ولاية نيوجيرسي عندما تعرفت على الفكرة، وتحديدًا في مدينة مونتكلير التي تأسس بها المقهى قبل ما يقارب العشرين عامًا، قبل أن ينتشر في أنحاء متفرقة من العالم. ثم انتقلت من نيوجيرسي إلى ولاية نبراسكا، وحينها لم أجد مقهى سقراط في مدينة أوماها حيث استقرت بي الرحال، اتفقت مع المكتبة العامة هناك لتأسيس مقهى سقراط أوماها.

انتهت رحلة الابتعاث، وعدت إلى بلادي الحبيبة. أما نية تأسيس مقهى سقراط بأرض الوطن، فيبدو أنها سبقتني بالوصول. ولذا، حالما صارت الظروف مناسبة، قمت بتأسيس مقهى سقراط سيهات، كأول مقهى في أرض المملكة العربية السعودية. أخبرت مؤسس الفكرة «كريستوفر فيليبس» بأمر مقهى سقراط سيهات، لأنه يطلب ذلك في صفحات الموقع الإلكتروني لمؤسسته، لكي يكون له علم بالمقاهي في كل مكان، ولكي يضمها إلى قائمة المقاهي حول العالم.

أجرى كريستوفر مقابلة صوتية معي على برنامج البودكاست الخاص به، أخبرني من خلالها أنه لم يكن يدور في ذهنه أن فكرة المقهى ستصل يومًا إلى أرض المملكة العربية السعودية، وصار يسألني عن تجربتي مع المقهى وتجربة تأسيسه في سيهات. ومع ختام تلك المقابلة، وبعد أن أوقف تسجيل البودكاست، أخبرني: أتدري، كتاب مقهى سقراط لم تتم ترجمته إلى العربية، ما رأيك في أن نعمل على ذلك؟

ما إن اقترح فكرة ترجمة الكتاب إلى العربية، خطرت في ذهني فكرة أن أقوم أنا بترجمته. مع أنني لست بمترجم ولا فيلسوف، ولم أدرس حتى الفلسفة. لكن روح مقهى سقراط تتمثل في إحضار الفلسفة للعامة من الناس، لذا لم أرى ذلك مانعًا، بل رأيته عاملاً مشجعًا. طرحت الفكرة على كريستوفر، ومن ثم على ناشر النسخة الإنجليزية من الكتاب، فوجدتهما متحمسين وداعمين. وبدأت حينها مشوار ترجمة هذا الكتاب، كشخص دخل في عالم جديد، لا يحمل سوى القليل من الخبرة.

أول أمر واجهته وأنا أترجم هذا الكتاب، أني اكتشفت أن قراءة كتاب لمجرد القراءة تختلف عن القراءة من أجل الترجمة. لم يكن بوسعي الآن تخطي أي جملة حتى أفهم معاني كل كلماتها وما يعنيه الكاتب منها. بدأ يتضح لي الفرق بين الترجمة الحرفية وترجمة معنى وروح المقال. بل أن ذلك أصبح سؤالاً سقراطيًا في حد ذاته ناقشته مع بعض الأصدقاء في إحدى جلسات مقهى سقراط. هل الابتعاد عن الترجمة الحرفية من أجل الحفاظ على المعنى خلاف الأمانة الأدبية؟ إذا كتبت الجملة كما أفهمها، ماذا يضمن لي أن فهمي كان صحيحًا؟

وما يزيد صعوبة الأمر أنه كتاب يناقش الفلسفة، فكل كلمة تحمل معنى، وكل معنى له فهم يؤدي إلى اتجاه مختلف. فارتباط اللغة بالفلسفة ارتباط وثيق

ومعقد، فالسؤال بالإنجليزية يأخذني إلى عمق فلسفي، وترجمته إلى العربية تأخذني إلى عمق آخر. ذلك بلا شك من جمال الفلسفة، لكنه أمر رأيت أهمية الإشارة إليه في مقدمة الكتاب ليؤخذ في الحسبان. حاولت جاهدًا أن أوازن بين ترجمة الكلمات بما هي كلمات وبين المحافظة على روح نص ذلك الكتاب، وأتمنى أني وفقت في اختيار الألفاظ وصياغة الجمل.

ختامًا أوجه شكري وامتناني لكل من وقف معي وشجعني وساعدني من الأهل والأصدقاء. شكرًا لأمي وأبي. شكرًا لإخوتي وأقاربي. شكرًا لأصدقائي الذين أعرفهم قبل مقهى سقراط، والذين عرفتهم من خلاله.

وأخص بالذكر صديقي أحمد المدلوح، الذي عرفته في مقهى سقراط، الذي شجعني كثيرًا على ترجمة الكتاب، وأوصلني إلى الناشر، وراجع معي ما ترجمت وأعطاني من النصائح والتوجيهات التي ساعدتني كثيرًا في مسيرة الترجمة هذه. شكرًا جزيلاً!

وأخيرًا، لا أنسى شكر صديقة عمري وشريكة حياتي، زهراء. وجودها في حياتي لم يكن سببًا في إكمال الكتاب فحسب، بل قامت أيضًا بمراجعة ترجمتي للكتاب وأعطتني ملاحظات ساعدتني في تقويم ما كتبت. أحبك!

هادي آل شيخ ناصر

ديسمبر ٢٠١٩

الفصل الأول

ما هو السؤال؟

«أيمكنني أن أسألك سؤالاً؟»

سقراط

مقهى سقراط

«الطب النفسي يسلب منّا الإلهام!»

هيجان المشاعر يوقظني بعنف من أحلام اليقظة، لأجد نفسي جالسًا على كرسي دوار بين ما يقارب الخمسة والأربعين شخصًا، يجلسون على كراسٍ معدنية مزخرفة في حديقة أحد المقاهي الفنية في مدينة سان فرانسيسكو. كنّا في ليلةٍ من ليال وسط الأسبوع في فصل الصيف، وقد وصلنا إلى منتصف هذا اللقاء الأسبوعي، ونحن نحاول الإجابة عن سؤال: «ما هو الجنون؟»

بدأ النقاش انطلاقًا من أمثلة واقعية، لكنه ما لبث أن استدعى طرح أسئلة أخرى: هل كان هتلر مجنونًا؟ أم هل كان المجتمع ذاته مجنونًا في ذلك الوقت، واستغل هو ذلك الجنون بعقلانيةٍ ماكرةٍ قاسية القلب؟ هل كان جاك لندن مجنونًا؟ ماذا عن إدغار ألان بو؟ فان جوخ؟ هل كان الجنون سر عبقرياتهم؟ هل كل من يضحي بصحته من أجل الفن يُعدّ مجنونًا؟ أم هل في ذلك استهلاك وتبديد لروح العقلانية ذاتها؟ هل من العقل تعريض حياتك للخطر من أجل شيء تؤمن به؟ أو من أجل شيء لا تؤمن به؟ هل يُعدّ رجل الأعمال الذي يقضي كامل يومه في عمل يكرهه عاقلاً؟ هل يُعدّ المجتمع غبيًا لأنه يسعى على الدوام إلى إطالة حياة المرضى الميؤوس من شفائهم؟ هل يُعدّ المجتمع الذي يستهلك موارده الطبيعية دون حساب طائشًا؟ هل من الحماقة تصنيع آلافٍ من الأسلحة النووية المهيأة للإطلاق، التي يمكنها أن تدمّر الكوكب بأكمله؟ كيف يمكن أن يكون أي فردٍ عاقلاً في هذا العالم؟ أم هل

الكون نفسه مجنون؟ كيف يرتبط مفهوم الجنون بمفاهيم مثل اللاعقلانية، والغرابة، والخبل، والاختلال العقلي؟ هل يمكن أن تكون عاقلاً ومجنونًا في الوقت نفسه؟ أم هل من المستحيل ألا تكون عاقلاً ومجنونًا في الوقت نفسه؟ هل من الممكن أن تكون عاقلاً تمامًا، أو مجنونًا تمامًا؟ ما هي المعايير التي تحدّد ما إذا كان شخص ما أو شيء ما مجنونًا؟ أهناك حقًا شيء اسمه الجنون؟

أسئلة، ثم أسئلة، ثم المزيد من الأسئلة!

الأسئلة تزعج وتستفز وتثير وتهدد. الأسئلة تجعلك تشعر - ولو للحظة - أنك فقدت صوابك، إلى الحد الذي يجعلك تشعر بعدم الثبات، بل كأن الأرض من تحتك تتأرجح، ولكن دون زلزال يميد بها.

مرحباً بكم في مقهى سقراط[1].

مع أننا كنا في منتصف فصل الصيف، إلا أن تلك الليلة كانت باردة، والحديقة مكتظة بالزائرين. كان المتواجدون في اجتماعنا ذاك، وهم من جاءوا بحثًا عن الفلسفة، يشكلون طيفًا متعدد الألوان من وجوديين من جيل البوهيميين[2] المتقدمين في العمر، ورجال أعمال وطلبة وعاملي محلات، وأساتذة جامعيين ومعلمين وقرّاء كف، وبيروقراطيين ومشردين، وآخرين تجمعوا كلهم في وسط حديقة تزيّنها أشجار اللبلاب. إلى حد ما، كان ذلك التجمع يشبه جلسة في كنيسة، ولكنها جلسة مهرطقين! كان يجمعنا حب السؤال، وشغف لوضع كل فرضياتنا تحت المجهر، مهما كانت تلك

١- مقهى سقراط ليس اسماً لمحلٍ أو مقهى تجاري، ولا هو اسم لمكان محدد. مقهى سقراط هو اسم جلسات نقاشية يجتمع فيها أفراد من مختلف الخلفيات الثقافية، لطرح الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها، مبنية على الطريقة السقراطية في الحوار. المترجم

٢- البوهيميون أو كما يدعون في أمريكا بالهيبيين hippies. المترجم

الفرضيات عزيزة على قلوبنا.

كل الانتباه في المجموعة كان متجهًا نحو ذلك الرجل الطويل النحيل الذي صبَّ جام غضبه على الأطباء النفسيين، بمجرد أن قال طبيب نفسي - بشيء من النفوذ - أن ترياق الجنون الوحيد هو الأدوية النفسية. بينما بدا الطبيب النفسي بدا مغتاظاً من التعليق المهين بحق مهنته، جلس منتقده صامتًا كالحجر. تبدو عيناه الزرقاوان الغائرتان كأنهما تنظران إلى أنفه، وله وجه نحيف تعلوه ابتسامة باهتة. شعره الأحمر الفاتح ممشط بترتيب إلى الخلف، ما عدا خصلة متمردة تتعلق أمام جبهته. في تلك اللحظة، كان الصوت الوحيد الذي نسمعه ونحن ننظر صوبه هو صوت قطرات الماء في النافورة المجاورة.

«ماذا تعني؟» سألتُ الرجل، «كيف يسلب الطب النفسي منّا الإلهام؟»

أظن أنه كان يتمنى أن تكون عبارته صادمة، وأننا سنتركها تمرُّ دون مساءلة. لكن ليس في مقهى سقراط. نحن هنا نؤمن بأنه لا يكفي أن تكون لديك الشجاعة لطرح قناعاتك، بل يجب أن تكون لديك الشجاعة كذلك لتقبل انتقاد تلك القناعات.

أخذ بعض الوقت ليثبت نظره نحوي، ثم قال مختارًا كلماته بعناية: «أفلاطون تحدث عن نوع من الجنون المقدس، الذي يحدث عندما تتلبّسك إلهات الإلهام (الميوزات). أفلاطون كان يقول إن ذلك الجنون ضروري لنظم أفضل أنواع الشعر. لكن الأطباء النفسيين يريدون تغيير سلوكنا، يريدوننا أن نكون أشخاصًا عاديين. إنهم يريدون أن يحطّموا مصدر إلهامنا».

«أنا أعمل أخصائيًا اجتماعيًا نفسيًا» قال أحد الرجال مقاطعًا، توقعت أنه مستاء من انتقاد الأطباء النفسيين، لكن على العكس، تحدث بنصف ابتسامة يصاحبها عمق في التفكير: «تقلقني كثيرًا الآثار بعيدة المدى

للأدوية النفسية على الأشخاص الذين يتناولونها. مثلما يحاول الأطباء النفسيون «شفاء» الأطفال المصابين باضطراب قصور الانتباه وفرط النشاط بإعطائهم دواء (الريتالين - ميثايلفينيديت)، أنا أرى أن الأدوية من قبيل هالدول (هالوبيريدول) وزيبريكسا (أولانزابين) والدواء القديم ثورازين (كلوربرومازين) تُصرف للكبار بمعدل مخيف، بسبب رغبة المجتمع في التحكم بالسلوكيات. لقد أصبح السلوك «المعتدل» هو المطلب الوحيد للأنظمة الصحية النفسية، وهذا يرعبني».

«أليس من الأفضل أن تكون مجنونًا على أن تسمح لهم بقتل الفنان الذي بداخلك؟» سأل الرجلُ النحيلُ الأخصائيَ الاجتماعيَ والذي لم يتوقع أنه سيكون حليفًا له في هذا النقاش.

فسألت: «ولكن هل يجب أن يكون خيارًا بين الاعتدال والعقلانية؟ ألا يمكن أن نكون مجانين قليلاً، أو حتى مجانين إلى حد ما، دون أن نكون مجانين بشكل تام؟ في محاورة فيدون لأفلاطون، يقول سقراط إن مزيجًا من الرزانة والجنون تحثّ الروح على البحث في الفلسفة، وأنا أتساءل إن كان ذلك صحيحًا في الفنون أيضًا. ألا يمكننا تعديل الجنون بداخلنا بطريقة تجعلنا نكون أقرب إلى مصدر إلهامنا، لنصبح بذلك أكثر إبداعًا عمّا كان بإمكاننا أن نكون؟»

حينها بدأت أتساءل في قرارة نفسي إن كنت واقعًا أعي ما أقول. بل يبدو من المفترض أن أكون آخر من يتكلم في التفريق بين العقلانية واللاعقلانية. فأنا - ولمدة لا بأس بها - أبحر في هذه الرحلة المجنونة لأخذ الفلسفة من الجامعات وإعادتها إلى «العوام» من الناس، في أي مكان يكونون فيه. وفي الأغلب الأعمّ، يكون ذلك دون مقابل. ومن الواضح أن ما أقوم به يُنظر إليه كأنه أمر جديد ومختلف جدًا، خارج عن المألوف بشكل كبير، ومفعم

بالجنون.. سواءً كان ذلك بدون مقابل، أو بمقابل زهيد. فأنا أقوم بترتيب وإدارة جلسات نقاش فلسفية أسميتها «مقهى سقراط». كنت أزور المقاهي والمطاعم، وأزور مراكز الرعاية النهارية للأطفال والحضانات، والمدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ومدارس ذوي الاحتياجات الخاصة. كنت أزور المراكز الخاصة بكبار السن، ومراكز رعاية المسنين، ودور المساعدة على العيش[1]. أقمت المقهى في كنيسة، وفي سجن، وفي مأوى رعاية الميؤوس من شفائهم. سافرت في جميع أنحاء البلاد - من ممفيس إلى منهاتن، ومن ولاية واشنطن إلى واشنطن العاصمة - لأدخل في نقاشات فلسفية، ولأساعد الآخرين على تأسيس مقاهي سقراط. كنت أدفع نفقات كل ذلك من مالي الخاص، متكسبًا بعض المال من هنا وهناك عبر وسائل أخرى. كنت أسأل نفسي دائمًا: هل أنا مجنون بفعلي هذا؟ لكن ذلك لا يعنيني. فأنا لا أريد التكسب من وراء ذلك. فالأمر ليس متعلقًا بالمال، بل هو نداء وشغف.

أولاً، أنا لا أقيم مقاهي سقراط لأعلّم الآخرين، بل لأتعلم منهم. في الحقيقة كنت دائمًا أتعلم من المشاركين أكثر مما يمكن أن يتعلموا مني. كنت أستفيد من التعرف على وجهات نظر كثير من المشاركين في كل اجتماع. من ناحية أخرى، يمكنني القول إن هذه الرحلة المجنونة هي ما حفظت لي عقلي! ولكن ذلك قد يكون تماديًا بعض الشيء، لذا سأكتفي بقول: «أنا أسعى إلى سقراط».

ارتفعت المزيد من الأيدي في حلقة النقاش، والحوار ازداد حرارةً واستقطب زخمًا واضحًا. حينها وقف رجل ممتلئ أصلع، ممسكًا بقبعته في

---

١ - دور المساعدة على العيش (Assisted Living Residences) هي أماكن إقامة تشمل في خدماتها مساعدة النزلاء في بعض المهام الحياتية التي لا يتمكنون من أدائها. المترجم

إحدى يديه وقال: «يمكنني أن أتحدث بصفتي خبير في الموضوع». بدت عيناه الخضراوان اللامعتان كأنهما تتراقصان من شخص لآخر في تلك المجموعة. «لقد تم إدخالي إلى المصحات النفسية ٣ مرات منذ بداية هذا العام. من هم ليحكموا عليّ؟ من هم ليصنفوني غير عاقل؟ أنا من أعقل وأذكى الناس الذين أعرفهم». وبقي واقفًا مكانه.

بدا عليه الاستغراب أن تعليقه لم يُقابل بالصدمة والاستخفاف، بل على العكس أمطره المشاركون بوابلٍ من الأسئلة يريدون معرفة قصته، وكان من الواضح أن أغلبهم يسألون أنفسهم: «أثمة أفضل من شخص تم تصنيفه مجنونًا كي يتحدث ببصيرة وخبرة عن الجنون؟». ولذا أعترف أنه يشقّ عليّ تخيل سياق آخر يجتمع فيه أشخاص أكثرهم غرباء عن بعضهم البعض، يتوقون إلى الاستماع إلى شخص أقرّ أنه مشهود له بالجنون (حتى وإن أصر أن تشخيصه خاطئ).

بعد ذلك واصل حديثه فذكر أمرًا استحال عليّ نسيانه، لأني وجدته من أكثر الأمور التي سمعتها في حياتي عقلانيةً: «دون كيخوتي كان مجنونًا. ولكن جنونه كان من النوع الذي جعله خالدًا. الفيلسوف الإسباني ميغيل دي أونامونو قال إن «إرث دون كيخوتي هو ذاته»، ووصفه بأنه «رجل حي، أبدي، يستحق كل النظريات والفلسفات» لأنه - بشكل ما - باقٍ على الأرض «ويعيش بيننا، ويلهمنا بروحه». أنا أعتقد أن ما قاله أونامونو عن دون كيخوتي يصدق بشكل أكبر على سقراط. على خلاف دون كيخوتي، سقراط عاش بيننا في فترة محددة، وكان رمزًا للشخص العاقل».

حنى رأسه قليلاً وتوقف عن الكلام، ثم رفع نظره إلينا وتابع: «سقراط ترك لنا نفسه. ترك لنا حكمه وفضائله. وهو باقٍ بيننا، يلهمنا بروحه».
لم نملك حينها إلا النظر إليه بدهشة.

ثم سألت امرأةٌ فاتنةٌ ذات شعر قصير مصبوغ باللون البنفسجي، ترتدي

تيشيرت منظمة السلام الأخضر: «هل كان سقراط ذلك العاقل حقًا؟»

فسألتها: «ماذا ترين أنت؟»

أجابت: «عندما حُوكم سقراط وأُدين بالهرطقة وإفساد شباب أثينا، ألمح محاكموه إلى أنه لو وافق على السكوت فإنهم لن يقدموا على إعدامه، لكنه فضّل الموت على أن يتوقف عن طرح الأسئلة».

سألتها: «هل كان اختياره للموت جنونًا؟»

فقالت: «سقراط قال إن الحياة التي لا يتم فحصها ونقدها هي حياة لا تستحق العيش، لذا ربما لم يكن ذلك جنونًا بالنسبة له».

«أظن أنه كان مجنونًا!» قال ذلك رجل أشعث إلى حد ما غريب اللباس، حيث كان يرتدي نعالاً وقميصًا من التي يُعرف لبسها في هاواي، وقبعة سوداء مستديرة بالية. «لكن جنونه من الصنف الذي قاد الحضارات لتضع نفسها على طريق العقلانية. سقراط كان ذلك المخلوق الاجتماعي الجوهري. حيثما ذهب ودخل مع الناس في نقاشات، كان يحاول أن يساعد الناس لأن يكونوا أكثر تفكرًا وتقبلاً وعقلانية. لم يكن غير عقلاني، لأن قراراته كانت خيارات واعية وعقلانية ضمن نطاق حريته. حتى قراره بإنهاء حياته كان اختيارًا، لكن بالمعايير المجتمعية الطبيعية كان يُعد مجنونًا - مجنونًا صالحًا».

أنهيت نقاش الجنون ذلك المساء بعبارة اعتدت قولها في ختام كل مقهى سقراط: «إنه أمر يستحق أن نواصل التفكير فيه».

حينها... بدأ المشاركون في التصفيق.

هل هم حمقى؟ كان الحوار حادًا، انفعاليًا، محبطًا. العواطف مشحونة بشدة. انتهينا بأسئلة أكثر من الإجابات التي وصلنا إليها. لم يتم حل أي شيء. فلِمَ التصفيق؟ لا أعلم، ولكن في النهاية صفّقت معهم.

السعي إلى سقراط

السعي إلى سقراط؟ ماذا يعني ذلك بحق السماء؟

هذا هو الجواب المختصر: أنا أؤمن أن اختفاء نوع محدد من الفلسفة كان سببًا في الإضرار بمجتمعاتنا. إنها الفلسفة ذاتها التي مارسها سقراط وفلاسفة آخرون في أثينا في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. هو نوع من الفلسفة يستخدم وسيلة من وسائل التحقيق الفلسفي الذي يمكن أن يتبناه «كل رجل» لنفسه وتتبناه «كل امرأة» لنفسها، يقومون من خلالها بإعادة إذكاء حس التساؤل الطفولي (لكن ليس بمعنى أنه سخيف أو صبياني). هو نوع من الفلسفة يرتبط بالحياة وينبض بها، يترك مع تلك الأرواح الفضولية في أغلب الأحيان أسئلةً أكثر مما كان لديهم في مستهل النقاش، لكنه يمكّنهم في بعض الأحيان من الوصول لبعض الإجابات غير النهائية، على أقل تقدير. هو نوع من الفلسفة لا يؤمن بأعلمية أحد، بل يتعلم فيه الشخص الذي يدير حلقة النقاش من المشاركين أكثر مما يمكن أن يتعلموا منه. هو ذلك النوع من الفلسفة الذي يؤمن بأن الأسئلة في كثير من الأحيان تعلمنا عن أنفسنا والعالم من حولنا أكثر مما تعلمنا إياه الإجابات. هو نوع من الفلسفة تكون الأسئلة فيه هي الإجابات!

ولكن شيئًا ما حصل لهذا النوع من الفلسفة قبل عدة قرون: لقد اختفت، بكل مقاصدها وغاياتها.

في القرن الثامن عشر، عقد فولتير اجتماعات في المقهى الباريسي المفضل لديه (لا بروكو) وتحديدًا في جلساته الحمراء المخملية المذهّبة، حيث صقل أفكاره حول المنطق وتطوير العلوم الطبيعية حول البشر. وبعد قرنين من ذلك، في أعقاب الاحتلال النازي لفرنسا، طوّر سارتر فلسفته الوجودية تحت المصابيح المزخرفة بقطع الزجاج بمقهى (كافي دي فلور).

ولكن تلك المقاهي كانت مقتصرة على النخبة المثقفة، الذين كانوا يظنون على الدوام بأنهم يحتكرون الإجابات. على خلاف هذه العصبة من المثرثرين، فإن سقراط لم يكن يعتقد أنه يملك الإجابات، أو أن المعرفة ميدان رفيع لأولئك الذين يُدعون بالمثقفين. كان سقراط يقول إن الشيء الوحيد الذي كان يعرفه دون شك هو أنه لا يعرف شيئًا دون شك.

ولكن في الواقع، وعلى خلاف ما يعتقد البعض، سقراط لم يكن يتظاهر بأنه الشخص المشكّك في كل شيء. لم يكن يقول بأن كل المعرفة لا أساس لها، أو أننا محكومون بألا نعرف شيئًا. ما كان يؤكده هو أن الحقائق التي اكتشفها عبر تجارب الحياة صعبة المنال كانت متزعزعة، مراوغة، غير نهائية في أفضل الأحوال، ودائمًا قابلة للتأثر بالمتغيرات الجديدة، والمعلومات الجديدة، والبدائل الجديدة. سقراط كان يشعر أن كل جزء من المعرفة وكل افتراض يجب أن يُشكّك فيه، ويتم تحليله وتحديه. ولا يوجد أي أمر يمكن حسمه بشكل نهائي، فكل نتيجة قابلة للبحث من جديد.

تلك هي المبادئ التي أسستُ عليها «مقهى سقراط». والحقيقة الوحيدة الثابتة الراسخة التي خرجت بها من خلال كل نقاشات مقهى سقراط التي حضرتها هي أنه لا يمكن فحص أي سؤال أو بحثه والتدقيق والتنقيب فيه بشكل كامل شامل أكثر مما يستحق. هنالك دومًا المزيد لاكتشافه. هذه هي روح وسحر ما صرت أسمّيه لاحقًا «السقرطة».

لا يحتاج مقهى سقراط إلى أن يُقام في مقهى، بل يمكن إقامته في أي مكان تختاره مجموعة من الأشخاص - أو حتى شخص واحد - للتجمع فيه والتباحث فلسفيًا. يمكن إقامة المقهى على مائدة الطعام، أو في كنيسة أو مركز اجتماعي، على قمة جبل، في دار رعاية، في مأوى المحتضرين، في مركز كبار السن، في مدرسة، في سجن.

يمكن إقامة مقهى سقراط في أي مكان وأي زمان. لكن مقهى سقراط ليس مجرد مكان نفرغ فيه ما في جعبتنا - حتى حد الغثيان - مما قرأناه عن فلاسفة الماضي وآرائهم على اعتبار أنهم الآلهة المقدسة للفلسفة، بل هو مكان يأتي الناس إليه لمناقشة الفلسفة، أو التباحث الفلسفي، بين بعضهم البعض، سواءً كان ذلك مع مجموعة من الناس أو لوحدهم.

ومن المؤكد أن المقاهي هي من أفضل الأماكن لازدهار وإثمار جلسات «مقهى سقراط». تبدأ التجمعات في العادة صغيرة، ولكن الخبر ينتشر، فيتوافد المزيد والمزيد من الناس. يخبرني الناس على الدوام أن هناك تعطش لمثل هذا النوع من النقاشات، وأن الناس ضجرت من الجلسات النقاشية التي يغلب عليها طابع التعليم من قبل شخص يُعدّ الأعلم والأكثر خبرة.

لا أدري إن كان ذلك صحيحًا. بالنسبة لي أرى أن نظام المعلم الخبير يزدهر. حدث مرةً أن عقدت مقهى سقراط في أحد المقاهي، وبينما كانت جلستنا الحوارية مقامة في الحديقة، كان قارئو أوراق التنجيم (التارو) يقيمون تجارة مربحة داخل المقهى. فلم يكن بعض أولئك العرافين معسولي الكلام سعداء عندما انضم بعض زبائنهم إلى جلستنا في مقهى سقراط في الحديقة أثناء انتظار دورهم في القراءات التنجيمية، فوجدوا أنفسهم منغمسين في نقاشنا إلى درجة أنهم نسوا الموعد الذي جاءوا من أجله، وفاتت على العرافين فرصة كسب المال.

ولكن لا ينبغي على قرّاء أوراق التارو وأمثالهم الخوف مما أعمل. فمع كل زبون يرحل، ثمة زبائن آخرون يأخذون مكانه. فهناك ارتفاع مفاجئ في وقتنا بالاهتمام بأمور غير عقلانية لم يُرَ مثله منذ أن تسبب انجذابٍ مماثل لمثل هذه الأمور بالقضاء على «العصر الذهبي للعقل» الذي لم يدم طويلاً في الحضارتين الإغريقية والرومانية.

وما زال الملايين من الناس يصدقون هذه الظواهر غير العقلانية مثل التنجيم. حتى القادة الحربيين والسياسيين - وحتى من ضمنهم زوجات بعض رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية - يلجؤون إلى مثل هذه الطرق للتنبؤ بنتيجة معركة مهمة أو حدث مهم. بل إني أقول جدلاً أن هذا الاهتمام بالأمور غير العقلانية في عصرنا هذا يبين لنا أن حضارتنا بالمجمل لا تكاد تكون أكثر عقلانية من حضارة الرومانيين عندما كان قادتهم يتنبؤون بأحداث المستقبل القريب عبر فحص أمعاء الدجاج. فمن المذهل بالنسبة لي كيف أن أشخاصًا يعيشون حياة عقلانية في المجمل يقعون بسهولة في إغراء محاولة إيجاد صلة بين ظواهر لا علاقة بينها سوى أنها حدثت في وقت واحد.

لكنني بعد ذلك أتذكر كيف أن الفيلسوف اليوناني أرسطو، أحد أعظم الفلاسفة على مر التاريخ، والذي عاش في خضم عودة الاعتقاد بالقوى الخارقة للطبيعة، لم يتعجب من تعلّق الناس المفرط بالأمور اللاعقلانية. وبناءً على ملاحظاته الدقيقة، استنتج أرسطو أن قلائل من الرجال فقط من «يمكنهم تحمل العيش، ولفترات قصيرة جدًا، اعتمادًا على العقل الخالص» الذي لا يشوبه شيء من الاعتماد على اللامعقول.

ذكر الباحث في الأدبيات الإغريقية إي آر دودز في كتابه (الإغريقيون واللامعقول) أنه في أيام أرسطو «وقعت الممارسات غير العقلانية كالتنجيم

وغيرها على الثقافة الهلستية[1] كوقع وباءٍ على جزيرة نائية، فقضى على كل من يعيش عليها» لماذا؟ «لأن الفرد في ذلك الوقت كان يقف وجهًا لوجه أمام حريته الفكرية، فقرّر الفرار والانسحاب من مواجهتها، لأنها كانت تشكل عبئًا مخيفًا، واختار بدلاً عنها المصير التنجيمي مع ما يحمله من حتمية قاسية لأنها كانت أهون عليه من مسؤولية الحرية الفكرية».

الخوف والهروب من الحرية الفكرية الذي يحدث في يومنا هذا - والذي ينطبق أيضًا على الخوف من التساؤلات الصادقة - لا يوازي فقط ما حدث في العصور الغابرة، بل يبدو أنه هو الخوف ذاته والهروب ذاته. نحن لا نعاني من عودة اللامعقول في عصرنا هذا بقدر ما نعاني من عودة ظهور عناصر اللامعقول بداخلنا - ومن أمثلة ذلك قابلية بناء نظام من المعتقدات على قواعد غير ثابتة، وكذلك نزعات الهدم وتعظيم الذات - وتلك العناصر ليست في الواقع إلا جزءًا من طبيعة الإنسان.

هناك ترياق وعلاج لمشكلة اللامعقول. وهذا العلاج ليس مثاليًا، ولا يتم استخدامه بإتقان دومًا. هذا العلاج يمكّننا من فهم أنفسنا بشكل أفضل، والتغلب على مخاوفنا، والتمكن من السيطرة على اللامعقول بداخلنا. أحد أمثلة هذا العلاج هو الطريقة السقراطية للسؤال المتبعة في مقهى سقراط. الكثيرون بدأوا يكتشفون قدراتها الكامنة، بدأوا يكتشفون أن الطريقة السقراطية يمكن أن تساعدهم كثيرًا على التركيز على مسبّبات الحيرة والارتباك، عبر تصور اتجاهات جديدة من تحقيق الذات والطموح البشري، والتشديد في مناظرة اللامعقول.

الطريقة السقراطية في التساؤل تهدف إلى مساعدة الناس ليفهموا أنفسهم وطبيعتهم وطاقاتهم الكامنة للتفوق بشكل أفضل. في بعض الأحيان،

---

1 - الحضارة الهلنستية تمثل ذروة النفوذ الإغريقي في العالم القديم بين ٣٢٣ - ١٤٦ ق. م. المترجم

تساعدهم على اتخاذ قرارات حياتية مبنية على دراية جيدة، لأنهم الآن في وضع يعرفون فيه أنفسهم، وبذلك يستوعبون من هم وماذا يريدون. وباستطاعة الطريقة السقراطية أيضًا أن تمكّن الشخص عميق التفكير من أن يفصح عن فلسفته الفريدة في الحياة، ثم يقوم بتطبيق تلك الفلسفة في نواحي حياته المختلفة. هذا بدوره يزوّد الروحَ المتسائلة بما تحتاج إليه في رحلتها النبيلة التي لا تنتهي في السعي وراء الحكمة.

بغض النظر عن السؤال موضوع النقاش في مقهى سقراط، فإن الحوارات - كما يقول سقراط، نقلاً عن أفلاطون في حوار (الجمهورية) - «ليست حول الأسئلة، بل حول النهج الذي يجب أن نكون عليه في حياتنا». لذا فإن النقاشات لا تمكّننا فقط من فهم أنفسنا بشكل أفضل بل تقودنا لاكتساب مهارات جديدة في الحياة والتفكير لكي نسعى لتحديد من نريد أن نكون، وكيف نكون من نريد أن نكون.

عندما تصبح أكثر مهارة في فن السؤال ستكتشف طرقًا جديدة لطرح الأسئلة التي لطالما حيرتك وأربكتك كثيرًا. وبهذا ستصل إلى إجابات جديدة، بل ومثمرة أكثر. وهذه الإجابات ستولد المزيد من الأسئلة. وستستمر العجلة في الدوران، لكن ليس في حلقة مفرغة بل في شكل لولبي لا يتوقف عن التصاعد والاتساع، تمنحك باستمرار أفقًا حديثًا ومتجددًا في نظرتك إلى الحياة.

حيثما يقام مقهى سقراط، يشكّل المشاركون فيه جماعة للبحث الفلسفي. لدى زملائي السقراطيون فضول مستمر لا يمكن إطفاؤه أو إشباعه بالإجابات السطحية لأولئك «الخبراء» الذين يظنون أنهم يعلمون كل شيء، ولا عبر إجابات المختصين في علم النفس الذي يقولبون قلقهم الوجودي إلى أنماط مهينة من السلوك السيكولوجي. أولئك الذين يشاركون في مقهى

سقراط يهمهم أن يصيغوا أسئلة تأملية مثمرة أكثر من اهتمامهم بصياغة إجابات مطلقة. والجميع مرحب بهم في المقهى، وبالفعل، كل الموضوعات قابلة للنقاش. معًا، أو لوحدنا، ندفع تفكيرنا إلى اتجاهات مدهشة.

لا شيء يحد الإمكانيات المتاحة سوى الأسئلة التي تصيغها بمساعدة ملكة الخيال وحس التساؤل لديك. ولا يقتصر المجال على «الأسئلة العميقة» فقط. بل إن السؤال المهم الذي يمكن أن نطرحه هنا هو: «ما هي الأسئلة العميقة؟ ولماذا هي عميقة؟». وكثيرًا ما لاحظت من خلال المئات من مقاهي سقراط التي أدرتها أن الأسئلة غير المتوقعة، أو تلك التي تبدو تافهة لا أهمية لها، أو تبدو شاذة لا علاقة لها بما يتم نقاشه في مقهى سقراط، يتبين فيما بعد أنها هي الأسئلة التي تستحق البحث والتنقيب والفحص ربما أكثر من غيرها.

وبعد أن تصبح متسائلاً ماهرًا، وبعد أن تصنع علاقة حب دائمة مع فن السؤال، يمكنني الرهان على أنك ستكون أكثر خبرة مما سبق لإجابة السؤال الأكبر: «من أنا؟»

كتب والت ويتمان في قصيدته (على ضفاف شاطئ أونتاريو الأزرق):

أنا ذو اللسان السليط

أجوبُ البلدان

مستجوبًا كل من أقابل

قد لا تود تقليد ويتمان باستجواب كل شخص تقابله «بلسان سليط» ولكن حينما تكون متسائلاً جيدًا، بإشعالك لحب السؤال، فإنك على الأغلب ستطور في ذاتك إدراكًا أفضل لمن تكون، ومن يمكنك أن تكون، وأين أنت، ولماذا أنت، وكيف يمكن أن تخطط لنفسك سبيلاً للمستقبل. قد لا تصل إلى

الجواب الذي كنت تنتظره، ولكن ذلك من تشويق رحلة البحث.. اكتشاف غير المتوقع، ومفاجآت الجديد وغير المألوف.

السبيل الجديد قد لا يكون سوى بداية رحلة البحث الفلسفي. في الأغلب يقول المشاركون الجدد بمقهى سقراط بحماس بعد حضورهم أولى جلسات النقاش: «لقد كنت أبحث عن شيء كهذا منذ وقت طويل». فهم يكتشفون مباشرة أن دخولهم فيما أسميه أنا الرحلة السقراطية نحو الصدق يمنح حياتهم عمقًا إضافيًا ومعنىً وأبعاد أخرى. طرح أسئلة أكثر وأفضل سيعطيك استقلالية شخصية أكبر. وبعد أن توسع آفاقك العقلية والتخيلية، فإنك لن ترى العالم، ومكانك في العالم، أبدًا كما كنت تراهما فيما مضى.

وخلافًا للاعتقاد السائد، كلما كثرت لديك الأسئلة فاعلم أن قدميك أكثر رسوخًا، وأنك عرفت ذاتك أكثر، وأن بإمكانك رسم خريطة طريق هادفة نحو مستقبلك.

هذا الكتاب يحكي تجاربي في سعيي نحو سقراط مع أناس من جميع الأعمار وجميع مشارب الحياة - ومع نفسي. الكتاب يدور حول إعادة اكتشاف حبي للأسئلة والاستفادة منه. إنه حول اتباع توجيهات أوراكل ديلفي التي تقول: «اعرف ذاتك»[1]. هذا الكتاب ليس من كتب المساعدة الذاتية التقليدية، مع أنه قد يكون مفيدًا في ذلك من عدة نواحٍ. أنا لا أتظاهر بأني المعلم أو الحكيم في هذا الكتاب. ولكن، إن كنت أنا معلمًا، فأنا أعتبر كل شخص يسعى إلى سقراط معلمًا أيضًا.

النقاشات الكثيرة المتناثرة في هذا الكتاب حقيقية بما فيه الكفاية، حتى وإن لم أنقلها حرفيًا. لم أحمل معي إلى تلك الحوارات الفلسفية التي شاركت

١- أوراكل ديلفي الوسيط الروحي في التراث والأساطير الإغريقية. المترجم

فيها شريط تسجيل قط. كما أنه قد مضى وقت طويل على تلك النقاشات، مما جعلها تنضج أكثر، وتتصفى وتترشح في عقلي، قبل أن أدونها على الورق.

حتى أفلاطون لا بد أنه قد أضاف شيئًا من منظور الوقت والمخيلة عندما كتب الحوارات السقراطية «الأصلية» لأجيال المستقبل. في الواقع، يبدو أنه كان يأخذ رخصًا فلسفية وأدبية في كل موقف يطرحه، ذلك من أجل أن يعرض وجهات نظر أكثر، وليجعل حواراته أكثر واقعية، وأكثر خلودًا، وليجعل سقراط ذلك الرمز، الذي ربما يرى البعض أنه كان أسطوريًا إلى حد ما.

وكما في حوارات أفلاطون، فإنه لا يمكن الهروب من حقيقة أن الحوارات في هذا الكتاب ليست مطابقة للحوارات الحقيقية التي تتم محاولة تدوينها هنا، لذا فربما أنقصت حوارات هذا الكتاب أو استبدلت بعض ما حدث في الحوارات الأصلية أو أضفت لها ما لم يحدث، لكي تكون في النهاية كالحوارات المثالية التي نسعى إلى الوصول إليها. الأهم من ذلك أن نتذكر أن الحوارات الأصلية ليست إلا جزءًا من حوارٍ واحدٍ كبيرٍ، لا بداية له ولا نهاية.

***

نحن سقراط

وصلت سارة رولينز إلى مجموعة النقاش الفلسفي التي أقيمها كل أسبوع مع طلاب الصف الرابع في إحدى المدارس الابتدائية بمدينة سان برونو بولاية كاليفورنيا. كانت تلوح بقطعة ورق متجعدة بعض الشيء كتبت عليها مقالاً بقلم الرصاص.

في الأسبوع الماضي، في أول اجتماع لنا، سألتني تلك الطالبة المندفعة من الصف السادس: «من هو سقراط؟»

فأجبتها: «لم لا تخبريني أنت من هو سقراط عندما نلتقي الأسبوع القادم».

وعندما حلّ يوم لقائنا بعد أسبوع من طلبي ذلك، جلسنا جميعًا على الكراسي الحمراء البلاستيكية المرتبة على شكل دائرة في مكتبة المدرسة، وسألت سارة: «أخبريني إذًا، من هو سقراط؟»

بدأت بقراءة ورقتها: «كان سقراط مفكرًا ومعلمًا إغريقيًا. ولد في أثينا في عام ٤٦٩ قبل الميلاد وأعدم فيها في عام ٣٩٩. المرة الوحيدة التي غادر فيها أثينا كانت ليشارك وهو جندي في الحرب البيلوبونيزية. تزوج من امرأة تدعى زنتيب وكان له ولدان. عمل لبعض الوقت في البناء والنحت. ثم بدأ يهتم بالفلسفة، وقضى بقية حياته يفكر في الفلسفة، ويناقشها مع كل شخص يقابله. سقراط لم يكن معلمًا بالمعنى التقليدي. لم يكن لديه صفوف دراسية أو محاضرات، ولم يؤلف كتبًا. لم يعمل شيئًا سوى طرح الأسئلة. وعندما يعرف

الجواب، كان يسأل المزيد من الأسئلة. كان سقراط يسأل أسئلته ليجعل الناس يتأملون في الأفكار التي طالما اعتبروها من المسلمات. بعض الرجال أعجبهم ذلك كثيرًا، وأصبحوا رفاقًا لسقراط، يحضرون حلقاته النقاشية على مدى سنوات. أما البعض الآخر فرأى أنه كان ببساطة يحاول تدمير الأفكار القديمة حول الدين والأخلاق دون أن يضع لها بديلاً. أصبح بعض الشباب الذين كان سقراط يعرفهم حق المعرفة فيما بعد خونة لبلادهم وقاموا بثورة أسقطت الحكومة الديموقراطية في وقتها. ثار الأثينيون ضدهم وقتلوهم. وبعد أن عادت الديمقراطية، تمت محاكمة سقراط. تم اتهامه بإدخال آلهة جديدة إلى أثينا وإفساد عقول الشباب. سقراط لم يأخذ تلك التهم بجدية ولم يكترث بطلب العفو. فتمت إدانته وحكم عليه بتناول شراب الشوكران السام. الكثير من الناس، في ذلك الوقت وما بعده، رأوا أن الحكم لم يكن عادلاً لأنه يجحد حرية التعبير. وآخرون اعتقدوا أنه استحق الموت لأن طلابه كادوا أن يدمروا أثينا. ولكن على أي حال، شجاعته واستقلاليته كانتا موضع احترام الجميع. وكان أفلاطون أشهر طلبة سقراط، وقد أصبح فيلسوفًا عظيمًا، وجعل سقراط الشخصية الأساسية في أغلب كتبه».

«ممتاز» كان تعليقي، وقمنا جميعًا بالتصفيق.

رفع بيتر يده وقال: «أعتقد أن أي شخص لا يخاف من طرح الأسئلة، حتى عندما يحاول الآخرون إيقافه عن طرحها، هو سقراط على نحو ما».

أجابت الفيلسوفة الناشئة سارة: «كلامه صحيح، نحن سقراط».

***

من هو سقراط؟

يبدو لي أن سارة محقة.

في كتاب (آلام العقل الغربي)، كتب بروفسور الفلسفة بمعهد كاليفورنيا للدراسات التكاملية ريتشارد تارناس أن سقراط «كان متشبعًا بأمانة فكرية ونزاهة أخلاقية يندر أن تجد مثيلاً لها في عصره أو أي عصر آخر. لقد كان يبحث بإصرار عن إجابات لأسئلة لم تُسأل من قبله، في نفس الوقت الذي يحاول فيه تقويض الافتراضات والمعتقدات التقليدية وتحريض التفكير المتأني حول القضايا الأخلاقية، كما أجبر نفسه وأولئك الذين يحاورهم على البحث عن فهم أعمق عما يحقق حياة طيبة».

على خلاف ما يقوله تارناس، فإني لا أعتقد أن سقراط سأل أسئلة لم يسبق أن سألها أحد قبله. بل الأحرى أن سقراط كرّس حياته لمحاولة إجابة الأسئلة بطريقة لم يجربها أحد قبله. وكل أولئك الذين يحاولون تقليد سقراط بالقول والفعل بطريقتهم الخاصة - مثل سارة - هم سقراط.

ولكن ربما يأخذك الحماس فتسأل «سقراط من؟» حيث لا يوجد دليل قطعي راسخ على أن سقراط كان حقًا موجودًا. سقراط نفسه لم يكن له آثار مكتوبة للأجيال التي جاءت من بعده، على حد علمنا، مثلما لم يفعل ذلك المسيح عيسى. ومن المؤكد أن القارئ قد يأخذ حوارات أفلاطون دليلاً ثابتًا على أن ذلك الشخص الحقيقي المدعو سقراط قد تم وصفه بأمانة. هناك أيضًا ما رواه زينوفون عن سقراط، والمسرحية الكوميدية لأرسطوفانيس، كما توجد

إشارات لسقراط في أعمال أرسطو[1].

لكن الصورة النموذجية هي تلك التي نقلها أفلاطون. ولكن حتى في تلك الأعمال لا يوجد دليل دامغ على أن المواقف والشخصيات التي ذكرها أفلاطون في الحوارات مع سقراط، ومن باب أولى الحوارات أنفسها، كانت قد حدثت بالفعل كما نقلها أفلاطون. كان أفلاطون كاتبًا دراميًا وشاعرًا وقاصًا وفيلسوفًا لحياة المنطق. وعلى الأغلب، فإن أفلاطون أعطى لنفسه مساحة كبيرة من الحرية.

ربما يمكننا على الأقل أن نتفق على أن سقراط كان حقيقيًا بالنسبة لنا عبر ما نقله أفلاطون في أعماله، وأن حوارات أفلاطون كانت سقراطية في الأسلوب والمضمون. وربما نستطيع أن نتفق على أن سقراط الذي جاء في حوارات أفلاطون كان رمزًا لشيءٍ استثنائي - كان مثالاً للإنسان الذي كان يمارس البحث الفلسفي الحر الراسخ الصادق في تحقيقه، كان شخصًا يفضّل الموت على أن يتم تكميم روحه المحبة للسؤال.

وعلى الرغم من أني أعتقد أن سقراط كان شخصًا حقيقيًا، كما أعتقد أن حوارات أفلاطون الأولى التي تحدثت عن سقراط تصف بالفعل شخصيته التاريخية وبشيء من الدقة، إلا أنه من غير المهم بالنسبة لي إن كان فعلاً شخصًا حقيقيًا، وأقل من ذلك أهمية أن يكون فعلاً كما وصفه أفلاطون. فهو بلا شك قد كان موجودًا كشخصية مثالية نسعى لتحقيقها في أنفسنا. سقراط الذي أتحدث عنه هو تجسيد الكمال الفكري.

إذا كنت تعتقد أن تلك الفكرة تعارض بعض ما نقله أفلاطون عن سقراط، فأنا أتفق معك في ذلك أيضًا. في بعض الحوارات، يصف أفلاطون

---

١ - زينوفون هو فيلسوف يوناني ومؤرخ وجندي ومرتزق وكان أحد طلاب سقراط، وأرسطوفانيس هو مؤلف مسرحي كوميدي يعتبر من رواد المسرح الساخر في اليونان القديمة. المترجم

سقراط كأنه يقود الآخرين إلى جواب في ذهنه. وفي بعض الحالات، كان يبدو كأنه يتعمد أن يجعل أولئك الذين يزعمون أنهم يعرفون «الطريق والحق والنور» ليظهروا بشكل سيء أو على الأقل كالحمقى.

ومثلما أدّعي أن طريقة البحث التي أسميها «سقراطية» هي عملية تتطور وتتغير على مر الزمان، كذلك سقراط الذي أسعى إليه. ما يزال سقراط رمزًا يستمر البحث والكشف عنه في المستقبل، وليست بالمقام الأول شخصية من الماضي يتم التنقيب عنها بين أكوام الغبار.

***

ما هي الطريقة السقراطية؟

الطريقة السقراطية هي وسيلة للبحث عن الحقائق باستخدام نورك الخاص.

إنها نظام، وروح، وطريقة، ونوع من البحث الفلسفي، وأسلوب فكري مجتمعة في وقت واحد.

سقراط لم يحدد «طريقة» فيما نقل عنه. لكن الطريقة السقراطية اكتسبت اسمه لأن سقراط، أكثر من أي شخص قبله أو بعده، صاغ لنا نظامًا فلسفيًا يمكن ممارسته وتطبيقه بشكل عملي - فقد كانت فلسفته فلسفة عمل، وأسلوب حياة، وأمر يمكن أي شخص منّا أن يطبقه. الطريقة السقراطية عبارة عن منظومة مفتوحة من البحث الفلسفي، تسمح لأي شخص بالدخول فيها والتحقيق من خلال وجهات نظر متعددة.

يصف غريغوري فلاستوس، وهو باحث أكاديمي حول سقراط وبروفيسور في الفلسفة بجامعة برينستون الأمريكية، الطريقة السقراطية في البحث كواحدة من «أعظم إنجازات البشرية». لماذا؟ يقول فلاستوس: لأنها تجعل البحث الفلسفي «ملكية عامة لجميع البشر، متاحةٌ لكل إنسان». فبدلاً من استلزام الولاء لوجهة نظر فلسفية محددة أو أسلوب تحليلي أو مصطلحات تخصصية، فإن الطريقة السقراطية «تدعو إلى منطق عام وخطاب عام». وذلك كما يقول «ما يجب أن تكون، لأن الإجابة عن سؤال كيف يجب أن يعيش الإنسان هو مسؤولية كل فرد منّا».

أنا أرى أن الطريقة السقراطية تمتد لما هو أبعد من وصف فلاستوس. فهي لا تدعو فقط إلى منطق عام بل تبحث أيضًا ما هو المنطق العام. الطريقة

السقراطية تسأل: هل المنطق العام في وقتنا هذا يقدم لنا أكبر الإمكانات لتحقيق فهم الذات والتفوق الإنساني؟ أم أن المنطق العام السائد هو في الحقيقة عقبة في سبيل تحقيق تلك الأهداف؟

فلاستوس يستمر في وصفه فيقول أن البحث السقراطي ليس بسيطًا، «ولا يتطلب فقط أعلى درجات اليقظة الذهنية التي يستطيع الشخص الوصول إليها»، بل يستلزم أيضًا «الصفات الأخلاقية العليا: الإخلاص، التواضع، الشجاعة». هذه الصفات «تحمي من احتمالية» أن ينتج عن الحوار السقراطي، مهما كانت شدته «استنتاجات عاصفة وافتراضات غير مسؤولة». أتفق مع ذلك، على أن أستبدل صفة الإخلاص بصفة الأمانة، حيث إن باستطاعة المرء أن يتمسك بقناعة ما بإخلاص دون فحصها، في حين أن الأمانة تتطلب أن يعرّض قناعاته للفحص المستمر.

الحوار السقراطي يكشف لنا كيف تختلف وجهات نظرنا لمبادئ نستخدمها كل يوم. إنه يكشف كيف تختلف فلسفاتنا، وفي كثير من الأحيان يتضح لنا إلى أي مقدار يمكن الدفاع عن تلك الفلسفات - أو ربما لا يمكن الدفاع عنها كما في بعض الحالات. إضافة إلى ذلك، فإن حتى أكثر المفاهيم شيوعًا واستخدامًا بين جميع الناس، عندما تعرض على الفحص السقراطي، لا تكشف فقط عدم وجود اتفاق جامع على معنى ذلك المفهوم، بل ستكشف أن كل شخص لديه رأي مختلف إلى حد ما لكل مفاهيم الحياة.

علاوة على ذلك، لا يوجد مفهوم مهما كان عمقه التجريدي، أو سؤال مهما كان بعده عن المألوف، لا يمكن استكشافه في مقهى سقراط على نحو مثمر. من خلال السقرطة، يتضح أن بعض المفاهيم التي طالما صُنفت على أنها تجريدية أو نظرية تكون مرتبطة بشكل وثيق بأكثر الأمور اتصالاً بالتجارب الإنسانية. في الواقع، ما لاحظته من خلال تجربتي أنه يمكن بحث أي سؤال تقريبًا سقراطيًا. بعض الأحيان، لا يمكنك معرفة أي سؤال سيكون له الأثر

الأطول أمدًا وأكثرها أهمية حتى تجازف وتتوغل فيه لبعض الوقت.

الذي يفرق بين الطريقة السقراطية وبين البحث غير المنهجي هو أن الطريقة السقراطية تسعى دائمًا إلى اكتشاف تبعات بعض الآراء ومن ثم تحاول تفنيدها وتقترح بدائل مقنعة لها. هذا النوع الصارم والمضني من البحث يشبه في نواحٍ كثيرة الطريقة العلمية في البحث. ولكن على خلاف البحث السقراطي، فإن الطريقة العلمية تقودنا دومًا إلى الاعتقاد بأن ما لا يمكن قياسه لا يمكن دراسته. وهذا «المعتقد» يفشل في معالجة شؤون إنسانية مهمة، مثل الحزن والفرح والمعاناة والحب.

بدلاً من البحث في العوالم الخارجية، جعل سقراط الإنسان وعوالمه الداخلية هي محور اهتمامه بالدرجة الأولى، مستخدمًا طريقته ليفتح ممالك جديدة من معرفة الذات في الوقت نفسه الذي كشف فيه عن حجم كبير من الأخطاء والخرافات والترهات الدوغماتية[1]. يقول الفيلسوف والشاعر الإسباني المولد الأمريكي المنشأ خورخي سانتايانا إن سقراط كان يعلم أن «واجهة الحياة الإنسانية هي حتمًا أخلاقية وعملية» وأن «الأمر كذلك حتى بالنسبة للفنانين» - وحتى للعلماء، الذين يحاول بعضهم فصل عملهم عن هذه الأبعاد من الوجود الإنساني.

يسمي الباحثون الطريقة السقراطية الإلينكوس وهي الكلمة الإغريقية الهلسنتية المرادفة للتحقيق أو الاستجواب[2]. لكن الطريقة السقراطية ليست نوعًا عاديًا من التحقيق أو الاستجواب. إنها نوع يساعد الأشخاص على النظر بوضوح إلى ذواتهم، مما يجعلهم قادرين على رؤية إلى أي مستوى ترقى آراؤهم.

١- الدوغماتية: هي حالة الثبات والتعصب الفكري لدرجة رفض الاطلاع على الأفكار المخالفة.

٢- ترجمة معجم مصطلحات الفلسفة، الإلينكوس هو المطلوب بالدليل، المترجم.

يعطي سي دي سي ريف، بروفيسور الفلسفة في كلية ريد كولج، شرحًا مبسطًا للإلينكوس بقوله إن هدفه «ليس الوصول ببساطة إلى تعريفات كافية» لأشياء مثل الفضائل، بل هي تحمل أيضًا «هدفًا إصلاحيًا أخلاقيًا، حيث إن سقراط يؤمن أن التفلسف التحقيقي الدائم يجعل الناس أكثر سعادة وأكثر فضيلة مقارنة بأي شيء آخر. بلا شك أنه كان يرى التفلسف مهمًا جدًا لرفاهية الإنسان، إلى درجة أنه قبل بالإعدام على أن يتخلى عنه».

يمكن أن تكون طريقة سقراط في البحث والتحقيق فعلاً جزءًا جوهريًا من أسلوب الحياة، لكن لن أصل إلى حد القول إنها يجب أن تكون كذلك. كما أني لا أعتقد أن سقراط كان يشعر أن الاستخدام المستمر لطريقته «يجعل الناس أكثر سعادة». الشعور بالإنجاز الذي يأتي من السقرطة يأتي بثمن – لأن السقرطة تستطيع أن تجعلنا أقل سعادة، أكثر حيرة، أكثر اضطرابًا، في ذات الوقت الذي نشعر فيه بالإنجاز. من الممكن أن تجعلنا طريقة سقراط نشعر بأننا لا نعرف الإجابات في نهاية الأمر، وأننا أكثر بعدًا عن معرفة الإجابات مما كنا نتخيل قبل الدخول في الحوار السقراطي. وهذا يؤدي إلى الشعور بالاكتمال – والشعور بالبهجة والتواضع والحيرة. قد نغادر مقهى سقراط – وذلك ما سيحدث على الغالب في كل مقهى سقراط – ونحن نشعر بالنشوة لأن هناك الكثير من الوسائل والحقائق والأنوار، التي عن طريقها يمكننا فحص أي مفهوم من المفاهيم، أكثر مما كنا نتخيل في أي وقت مضى.

في كتاب (العلم المرح) يقول فريدريك نيتشه: «أنا معجب بشجاعة سقراط وحكمته، في كل ما فعل وقال وما لم يقل». كان نيتشه عالمًا كلاسيكيًا بارزًا في فقه اللغة في القرن التاسع عشر قبل أن يتخلى عن جماعة الأكاديميين ليصبح معروفًا بتأييده لرمز الشخصية البطولية التي ستبدع فيها بعد المبدأ الأخلاقي (إرادة القوة) المؤكد على قيمة الحياة. ومن ضمن كتاباته حول

أولئك الأفراد الذين وصفهم بـ «الرجال الخارقين»، أشاد نيتشه بسقراط على أنه «عبقري في الصميم... يعرف صوته كيف يصل إلى أعماق كل روح... يعلّم الأفراد كيفية الإنصات، ويصقل الأرواح القاسية ويجعلهم يتذوقون حنينًا جديدًا... يقدس الكنوز المخفية المنسية، حتى لو كانت قطرة من الخير... بلمسته يعود كل امرئ أدراجه أغنى، ليس لأنهم عثروا على نعمة ولا لأنهم مذهولون، ولا لأنهم مكرمون ومهانون بكرم الآخرين، بل أغنياء في أنفسهم، متفتحون... ربما أقل يقينًا... ولكن تملؤهم آمال لم يسموها بعد».

أنا أختلف مع نيتشه فقط حينما يصف سقراط كشخص يصل إلى أعماق أرواح الآخرين. على العكس، سقراط يمكّن أولئك الذين يحاورهم ليصلوا إلى أعماق أرواحهم هم، ويصنعوا لأنفسهم مبادئ أخلاقية تؤكد على قيمة الحياة.

كان سانتايانا يقول إنه لن يتمسك بوجهات نظر فلسفية لا يؤمن بها على الصعيد اليومي، وأنه إن نشر وجهات نظر معينة أو ناقشها في جلسات الحوار دون أن تكون تلك الآراء ما اعتاد على ممارسته في حياته فإن ذلك في عُرفه مخالف للأمانة وضعف في الشخصية. ولكن لا يوجد خط فاصل واضح بين وجهات نظر الإنسان في الفلسفة والحياة. فهما متداخلان ومتقاربان بشكل كبير، ويستحيل في كثير من الأحيان معرفة ما نؤمن به في حياتنا اليومية حتى ندخل مع الآخرين في نقاش.

وعلى غرار ذلك، لنكتشف وجهات نظرنا الفلسفية، يجب علينا الدخول في نقاش مع أنفسنا، ومع الحياة التي نعيشها. آراؤنا تتشكل وتتغير وتتطور، في ذات الوقت الذي نشارك فيه بالنقاش. وتلك هي الطريقة الوحيدة لنعرف أي لون من الفلسفة يقود حياتنا. كل فرد يمكن أن يعظ نفسه والآخرين بما لا يمارسه هو، وكل شخص يمكن أن يمارس حياته على نحو يكون مخالفًا

أو مناقضًا لوجهات النظر التي يقر ويعترف باعتناقها. فعلى سبيل المثال، الفيلسوف الدنماركي سورن كيركغارد، المؤسس المؤثر للمدرسة الوجودية، يستخدم مبادئ سقراط في كتابة أطروحته حول مفارقة سقراط، مستخدمًا في كثير من الأحيان أسماء مستعارة ليجادل آراءه مع نفسه. بالإضافة إلى ذلك، فإن كاتب القرن السادس عشر ميشيل دي مونتين، والذي كان يلقب بـ «سقراط الفرنسي» وعُرف بكونه مؤسس المدرسة التشكيكية في أوروبا الحديثة، كان يكتب ويضيف فقرات متباينة وحتى متناقضة في المؤلف الواحد. ومثل سقراط، كان يؤمن أن البحث عن الحقيقة يستحق حتى الموت من أجله.

الطريقة السقراطية تجبر الناس «على مواجهة الدوغماتية التي يتبنونها هم أنفسهم»، هذا ما يقوله لينرد نيلسن، الفيلسوف الألماني الذي كتب في عدة مجالات كالأخلاق ونظرية المعرفة حتى أُجبر على التوقف مع ظهور النازية. يواصل نيلسن فيقول: «وبعملهم ذلك، فإن المشاركين في الحوار السقراطي يدفعون أنفسهم ليكونوا أحرارًا». ولكنهم لا يواجهون دوغماتيتهم فقط. من خلال مقهى سقراط، يمكن أن يواجهوا نسقًا من الفرضيات والقناعات، والتكهنات والنظريات التي يطرحها المشاركون الآخرون، والتي يطرحونها هم أنفسهم - وكلها تؤيد بشكل من الأشكال الدوغماتية. الطريقة السقراطية تتطلب منهم - بصدق وانفتاح، وبالعقل والتخيل - أن يواجهوا تلك الدوغماتية بطرح أسئلة من قبيل: ماذا يعني ذلك؟ ما الذي يقف مع أو ضد ذلك؟ هل هناك طرق مختلفة لقراءة ذلك قد تكون معقولة أكثر ويمكن الدفاع عنها بشكل أكبر.

ومن الممكن أن يكون مزعجًا ذلك «الإجبار» في بعض مراحل الحوار السقراطي الذي تستلزمه المواجهة - مع الإصرار على أن يفصح كل مشارك عن وجهة نظره الفلسفية بشكل دقيق، ولكن ذلك يصب في مصلحة الهدف

المنشود. إذا لم يؤدِ الحوار إلى استفزاز أحد، إذا لم يسبب اضطرابًا، إذا لم يتحدَّ ويحير ذهنيًا وروحانيًا، بطريقة رائعة ومبهجة، فهو إذًا لم يكن حوارًا سقراطيًا. ذلك «الإجبار» يفتح لنا المجال للتعرف على أصنافٍ مختلفة من تجارب الآخرين إما عن طريق الحوار المباشر، أو من خلال طرق أخرى كالدراما والكتب، أو عبر عمل فني أو رقصة. إنه يجبرنا على استكشاف منظورات مختلفة، والسؤال عمّا يمكن أن يُقال في مدحها أو مذمتها.

اجعل ذلك المعنى حاضرًا في ذهنك لو شعرت بالميل نحو طرح مثل هذا السؤال الذي طُرح في أحد مقاهي سقراط: كيف يمكن التغلب على العزلة؟ حاول أن توقف افتراضات السؤال من البداية، ولذا ربما تحتاج إلى أن تسأل: هل العزلة شيء نريد دومًا التغلب عليه؟ على سبيل المثال، شكسبير وغوته ربما كتبوا أعمالهم الخالدة لأنهم تقبلوا إحساسهم بالعزلة بدلاً من محاولة الهرب منها.

إذا كان الأمر كذلك، عليك أن تسأل: هل هناك أنواع مختلفة ودرجات من العزلة؟ بناءً على السياق، هل هناك أنواع من العزلة نريد التغلب عليها، وأنواع أخرى لا نريد التغلب عليها بأي شكل من الأشكال، بل نود أن نجعلها جزءًا من حياتنا؟ ولإجابة تلك الأسئلة جيدًا علينا أولاً أن نسأل ونجيب عن أسئلة أخرى: ما العزلة؟ ماذا يعني التغلب على العزلة؟ لماذا نريد التغلب على العزلة؟ ما هي بعض الأنواع المختلفة الكثيرة للعزلة؟ ما هي المعايير والسمات التي تربط كل نوع من هذه الأنواع؟ هل يمكن أن يكون الإنسان معزولاً تمامًا؟ وأسئلة أخرى كثيرة إلى جانب ذلك.

أولئك الذين يغرمون بالطريقة السقراطية من البحث الفلسفي يزدهرون بالسؤال. لا تنفد أسئلتهم، ولا تنتهي طرقهم لطرح أسئلة جديدة. بعض رواد مقهى سقراط الأكثر نهمًا في البحث الفلسفي وطرح التساؤلات، هم بالنسبة لي السؤال في صورة إنسان.

حوار الفرد الواحد

الوقت يقارب منتصف الليل وأنا في طريقي إلى المنزل بعد الانتهاء من إدارة مقهى سقراط بمقهى غرفة الشاي الروسي (ماد ماغدا) في قلب سان فرانسيسكو. كانت تلك المرة الثانية فقط التي أدير فيها مقهى سقراط في هذا المكان الانتقائي، ومع ذلك فقد حضر أكثر من خمسين شخصًا في كلا المرتين. وفي كل مرة ألاحظ أن كثيرًا من الحاضرين يأتون بمفردهم، ولا يعرفون إلا بعضًا من الموجودين، إن كانوا يعرفون أحدًا على الإطلاق.

ولكن بعد اختتام النقاش رسميًا، أرى كثيرين يتجمعون في مجموعات صغيرة، يتحدثون مع بعضهم البعض بعفوية الأصدقاء. بعد نقاش سؤال «ما هي الكفاية؟» الأسبوع الماضي انضممت إلى إحدى المجموعات الصغيرة. ولكن هذا الأسبوع كنت أحد الأشخاص العشرة الذين قرروا الرجوع على عجلة بعد نهاية النقاش الحاد. أنا متلهف لأكون وحدي مع أفكاري، لأتوجه إلى الكثير من الأسئلة في ذهني التي تولدت خلال حوار تلك الليلة.

السؤال الذي خضنا فيه هذه الليلة كان «لماذا السؤال؟». تم اختيار هذا السؤال بعد أن طُرحت مجموعة من الأسئلة المثيرة للاهتمام، كان من ضمنها: «هل هناك شيء اسمه الطبيعة البشرية؟» «ما هي الشخصية الفردية، إن وجدت؟» «متى لا تستحق الحياة العيش؟» «ما هو الصعود الروحي؟» «هل تختلف طبيعة البشر عبر التاريخ والحضارات؟» لكن بعد ذلك سألت مراهقة لافتة للنظر بشعرها الذي كان يصل إلى كعبيها: «لماذا السؤال؟»

حتى تلك اللحظة بدت كأنها تنوي الحديث مع صديقاتها أكثر من رغبتها في الاستماع إلى تلك الأسئلة التي تم طرحها. اتجهت أنظارنا إليها في انسجام. نظرت إلينا بابتسامة تشبه ابتسامة الموناليزا، كأنها تزجي الوقت لأنها كانت تعلم أننا سنختار سؤالها - وهذا فعلاً ما فعلناه في النهاية.

لماذا السؤال؟ ربما لأننا لا نملك الخيار، كما يقول جون ديوي، الفيلسوف والمعلم والمصلح الاجتماعي الأمريكي البارز، الذي أشار إلى أن سقراط قال إننا «مخلوقات سؤولة» «تبحث عن أسباب الأشياء، ولا تقبلها من العرف والسلطة».

كما كان يقول جيراسيموس زينوفون سانتاس، الذي كان رئيس قسم الفلسفة في جامعة كاليفورنيا - إيرفاين، حيث أشار في دراسته لحوارات أفلاطون السقراطية المتقدمة: «سقراط كان يسأل طوال الوقت. كان يحيّي الناس بالأسئلة، ويعلمهم ويدحض آراءهم بالأسئلة، ويتركهم مع الأسئلة - لقد كان يتحدث معهم بالأسئلة». حتى دون أن يتكلم، كان سقراط يبدو كأن «يعقد جلسة أسئلة وأجوبة صامتة» مع محاور خيالي. لقد بدى فعلاً أن سقراط لم يكن لديه خيار آخر سوى أن يسأل. ولكن بالنسبة لأغلب الناس، البالغين منهم على الأقل، كان يبدو أن عليهم اختيار ذلك الخيار.

تبين فيما بعد أن «لماذا السؤال؟» كان سؤالاً صعبًا أكثر مما تصور أي منّا في ذلك المقهى. لكن المشكلة كانت في أننا لنجيب عن السؤال علينا أن نتأكد أننا متفقون على ماذا يعني السؤال: ما هو السؤال، ماذا يفعل السؤال، وما الذي يستطيع أن يحققه السؤال.

بدا أن لمعظم المشاركين في ذلك الحوار فهمًا بديهيًا مستفيضًا لمعنى السؤال. ولكن بالحكم على الردود المتباينة بشدة التي تلت طرح السؤال، تبيّن أن لكل شخص منّا رأيًا مختلفًا جدًا حول ما كان يعنيه السؤال على وجه التحديد وأي غرض كان يحققه السؤال.

«لا يطرح الناس الأسئلة إلا إذا كانوا يعرفون مسبقًا الجواب الذي يريدونه». تلك كانت القناعة الراسخة لتلك المرأة التي تجلس نائية عن بقية المجموعة، بشعرها الأشقر الفاتح ملفوفًا في بكرات ومغطى أغلبه بوشاح أرجواني مزخرف بأشكال الأميبا. أكملت قائلة: «على سبيل المثال، لو سألتك امرأة كيف يبدو شعري؟ فهي لا تريدك أن تخبرها الحقيقة لو كان في حالة سيئة. بل تريدك أن تقول: إنه يبدو رائعًا».

من البديهي أن كثيرين لم يتفقوا مع ذلك الرأي وقالوا إن العكس هو الصحيح، يسأل الناس الأسئلة إذا لم يكونوا على علم بالجواب. «يسأل الناس الأسئلة من باب الفضول، بدافع التساؤل» هذا ما قاله رجل ضخم الجثة ذو صوت خشن وحواجب مقوسة، وهو يحرك قهوته التي لم يشرب منها شيئًا حتى تلك اللحظة. «لا أعرف شخصًا يمكن أن يسأل سؤالاً إذا كان يعرف الجواب الذي يريد سماعه».

لم تقبل المرأة بذلك الكلام. وقالت وهي تفرقع أصابعها لسبب ما: «يعلم الناس أن الفضول والتساؤل دائمًا ما يضعونك في مأزق، لذا إذا لم يكونوا يعلمون مسبقًا، أو يظنون أنهم يعلمون، ما الجواب فإنهم لن يسألوا السؤال».

«أظن أن ذلك ممكن أن يكون صحيحًا في بعض الحالات»، قالت المراهقة النحيلة التي ناقش سؤالها. ومرة أخرى، ظننتها لم تكن منتبهة أبدًا، فهي مستغرقة في الحديث مع صديقاتها، ولكنها كانت منصتة لكل كلمة. ثم أكملت: «ولكن أيكون صحيحًا في كل الحالات؟ كيف سنصل إلى اكتشافات جديدة وغير متوقعة لو كنّا نسأل فقط الأسئلة التي نعرف إجاباتها؟»

«هذا سؤال ملغوم» أجابت المرأة ذات بكرات الشعر. ثم قالت ونظراتها تراوح بين الفتاة المراهقة والرجل الضخم: «لو اختلفت معكم، ستظنون أني أعاند فقط. وإذا اتفقت معكم ستعتقدون أني اكتشفت خطأ فكرتي وأنكم

قد أقنعتموني. إن ذلك مثل سؤال رجل: هل توقفت عن ضرب زوجتك؟ حيث لا توجد طريقة صحيحة لإجابة ذلك السؤال. فأنت مخطئ إن قلت نعم وإن قلت لا».

بدت المراهقة محتارة وقالت: «لا أفهم ما علاقة ما قلتِ بــ...» ولكن قبل أن تكمل جملتها تدخلت إحدى صديقاتها بالقول: «الكثير من العلماء يصلون إلى إجابات أسئلة لم يطرحها أحد. مثل الاكتشاف غير المقصود للبنسلين. تم اكتشاف ذلك في الوقت الذي كانت تُطرح فيه أسئلة أخرى مختلفة تمامًا. لذا فإن الأسئلة تُطرح للتجربة وفي كثير من الأحيان تقود إلى إجابات غير متوقعة».

«أحد أكبر المخاطر يكمن في عدم طرح الأسئلة»، قال المهندس الكهربائي الذي يرتدي بدلة كئيبة تناسب محياه. «لأن تلك الممارسة تحدّ المعرفة. وتؤدي إلى عقول منغلقة ومجتمعات منغلقة».

«ما تتحدثون عنه يذكرني بشخصية يوساريان في رواية كاتش-٢٢ لجوزيف هيلر»، قال أحد المشاركين. «لقد كان يوصف بأنه يجمع الأسئلة الجيدة التي كان يستخدمها لينتزع المعرفة من الناس. ولكن رؤسائه في أسطول المدمرات الأمريكية طالما حاولوا إسكاته كلما حاول طرح الأسئلة لأنهم شعروا أنه لا يمكن معرفة ما سيكتشفه الناس إذا ما شعروا أنهم أحرار في طرح أي سؤال يريدون. ظن رؤساء يوساريان أن الأسئلة هدّامة، ويجب تجنبها مهما كلف الأمر. لذا ما حدث بعد ذلك هو أن عقيدًا في ذلك الأسطول سنّ قانونًا يسمح بطرح الأسئلة فقط للأشخاص الذين لم يسألوا أسئلة من قبل. كاتش-٢٢. أتساءل بعض الأحيان ما إذا كان ذلك هو ما نتجه نحوه».

جاءت الملاحظة الأخيرة في تلك الليلة من شاب خجول وأنيق إلى حد ما، يرتدي قبعة صغيرة بلونيها الأحمر والأبيض وسترة باهتة اللون. ذلك

الشاب هو أحد المنتظمين على حضور مقاهي سقراط بغض النظر عن مكان إقامتها، ودائمًا ما يسأل أسئلة ثاقبة. «ألا يبدو لكم أننا لو أمضينا طوال هذه الليلة لا نفعل شيئًا سوى طرح الأسئلة واحدًا تلو الآخر، فإننا سنكتشف عمن نكون أكثر مما لو كنّا نحاول إجابة تلك الأسئلة؟». كان هذا سؤاله. نظرته الفاحصة تركت أثرًا جليًا فيّ، وبناء على النظرات عميقة التفكير على كل تلك الوجوه، أظن أنه ترك انطباعًا حقيقيًا على غالبية المشاركين أيضًا.

والآن، بعد انتهاء النقاش، أنا متلهف لأكون وحدي لكي أتفكر في السؤال الذي طرحه. وفي طريقي إلى المنزل، أسأل نفسي: ما الأسئلة التي كنت أسأل نفسي في الآونة الأخيرة؟

أدهشني أن أحد الأسئلة التي ترفض مغادرتي هو سؤال: ما الذي أخاف منه؟ يبدو لي أن الخوف يمنع الناس من طرح الأسئلة عن أنفسهم أو عن الآخرين. قبل أن أبدأ بإدارة مقاهي سقراط بانتظام، كنت دائمًا أخشى أن أكون وحيدًا. لكن بعد أن انتشرت السقرطة بهذا المقدار الذي لم أكن أحلم به يومًا، حيث أصبحت مطلوبًا باستمرار لإدارة ما يزيد على عشر جلسات حوار فلسفي كل أسبوع في المقاهي ودور العجزة والمدارس والجامعات، أصبحت أخاف ألا أجد وقتًا أمضيه وحدي. لذا أصبحت أقدّر وحدتي بعد انتهاء مقهى سقراط، فبعد حوار مستفيض لا شيء أفضّله أكثر من إمضاء بعض الوقت مع نفسي.

ولكن في تلك الليلة، ما إن فتحت باب شقتي حتى بدأ الهاتف بالرنين.

«مرحبًا؟» رددت على الهاتف وأنا أتمنى أن يكون أحد المسوّقين عبر الهاتف لكي أنهي المكالمة. فإذا بصوت خافت أسمعه يقول: «حضرتُ مقهى سقراط الليلة. أرجو ألا تمانع اتصالي بك».

قلت: «بكل تأكيد» ولكن دون إصرار، وأنا أذّكر نفسي بالحصول على رقم غير مدرج في دليل الهاتف.

«لم أقل شيئًا خلال نقاش الليلة»، قالت بصوتها المتردد. لم تخبرني اسمها ولم أفكر أن أسألها عنه. «لا أحب الكلام ضمن المجموعات».

قلت: «لا بأس في ذلك. ربما تكونين قد لاحظت أني أحاول ألا أسلط الضوء على أحد كيلا يشعر أحد أنه مضطر للكلام. يمكنك المشاركة بالاستماع فقط. في الحقيقة أنا أجد أن أكثر المشاركين نشاطًا في مقهى سقراط هم أولئك الذين يستمعون فقط».

حلّ صمت لفترة طويلة - طويلة لدرجة أني ظننت أنها انتهت من الحديث. في الواقع كنت أتمنى أني قلت كل ما يلزم لأصل إلى نهاية سريعة لتلك المكالمة. لكني وجدتها تقول حينئذٍ: «اتصلت بك لأني أردت أن أعرف إن كنت تظن أنه بإمكاني إقامة مقهى سقراط لوحدي».

مقهى سقراط فردي؟ لقاء وجهٍ لوجه ولكن بوجه واحد؟

أجبتها: «نعم. بلا شك».

سألتْ مباشرة: «كيف؟»

قلت: «أنا أجزم أنك تقيمين مقهى سقراط على نحو ما مع نفسك من وقت لآخر».

أجابت من دون كلمات: «؟»

قلت لها: «لا أظن أن هناك فرقًا بين الدخول في نقاش عام مثل ما يحدث في مقهى سقراط، والحوار الداخلي الذي نخوضه على الدوام مع أنفسنا. حنة آرنت كتبت ذات مرة أن سقراط «يُخرج عملية التفكير إلى العلن - ذلك الحوار الذي يدور بصمت في داخلي، بيني وبين نفسي». وأنا أرى ذلك

الكلام واقعيًا».

أكملت قائلاً: «أنا متأكد أنك تسألين نفسك أسئلة طوال الوقت، ولا بد أنك تقومين بمحاولات مخلصة ليس فقط لإجابة تلك الأسئلة بل لفحص تلك الإجابات التي توصلت إليها من عدة زوايا ومن عدة وجهات نظر. على سبيل المثال، أراهن أنك لا تدركين كم مرة تسألين نفسك من أنت، من تريدين أن تكوني، وتحاولين الوصول إلى عدد من الإجابات».

أجابت: «أظن أن ذلك صحيح إلى حد كبير». ثم التزمت الصمت من جديد. ثم عادت لتقول: «مؤخرًا لا أستطيع النوم لأنني أسأل نفسي: ما هو مغزى الحياة؟». مرة أخرى مرّت برهة صمت قبل أن تكمل: «الحقيقة لم أعد أسأل نفسي السؤال. هو صار يظهر من نفسه. ولا يبدو أن هناك أي شيء يمكنني فعله لأجعله ينصرف، حتى عندما أحاول إجابته».

توقفت عن الحديث مرة أخرى ثم قالت: «أظن أنه يجب أرجع أدراجي قليلاً. توفيت ابنة أخي قبل عدة أشهر بسرطان الدم. كان عمرها أربعة عشر عامًا. كانت طفلة موهوبة بحق. واحدة من أولئك الأطفال الذين كان من الممكن أن يتميزوا في أي مجال من المجالات. كانت أقرب الناس إليّ وأعزهم على قلبي، تقول على الدوام كيف أننا متشابهتان كثيرًا. عندما كنت طفلة، كان الجميع يقولون إن لا حدود لقدراتي. أحببت دراسة كل شيء، وتميزت في كل شيء - إلى الحد الذي لم أعرف فيه ما أريد أن أفعل أو أصبح في المستقبل. لكن... حسنًا، أظن أنه لا وجود لكلمة لكن هنا. القصة باختصار أن ذلك كله أصبح أمرًا فيه نظر. انتهى بي الأمر أن تزوجت في عمر التاسعة عشرة. ثم اضطررت للانسحاب من الجامعة لأن زوجي لم يكن يريدني أن أعمل. تطلقنا بعد ثلاث عشرة سنة. وأنا الآن أعمل مسؤولة حسابات. أشعر... لا أدري بماذا أشعر. لا أشعر بالراحة في أن أتحدث أكثر حول هذا الأمر، سوى أن سؤال «ما هو مغزى الحياة؟» لا يغادرني أبدًا. لذا

أنا لا أنام جيدًا هذه الأيام».

ثم صمتت المرأة بعد ذلك لبرهة قصيرة. أظن أنها تشعر، مثلما أشعر أنا أيضًا، أن ذلك الصمت في محادثتنا هو أمر مريح بل وضروري أيضًا. ثم عاودت الكلام: «مع ذلك، أنا لا أدري... كما قلت، لا يمكنني الوصول إلى جواب مرضٍ لسؤال: ما هو مغزى الحياة؟». ثم تنهدت وقالت «لا، هذا غير صحيح. بل إنني لا أدري حتى كيف أبدأ بإجابة هذا السؤال».

قلت لها: «ربما أنت لا تسألين السؤال بالطريقة الصحيحة».

«ماذا تعني؟»

قلت: «ربما، قبل أن تحاولي إجابة السؤال كما طرحتيه - أو كما طُرح عليك - ربما تحتاجين إلى طرح أسئلة أخرى والإجابة عنها».

«مثل ماذا؟»

«مثل: حياة مَن أقصد في سؤالي؟ هل تسألين عن مغزى حياتك أنت؟ إذا كان الأمر كذلك، عليك أن تقولي ذلك بشكل واضح وصريح».

أجابت: «أظن أن ما أحاول السؤال عنه هو: ما الذي يعطي حياتي معنىً؟»

حينها قلت «أحسنت!». تفاجأت إلى أي حد كنت متحمسًا لاكتشافها «طريقة» جديدة لطرح السؤال، خصوصًا أني كنت مترددًا في الكلام في بادئ الأمر. لكن الأمر الوحيد الذي لم يعد يفاجئني في الحوار السقراطي هو أنه على الدوام يعيد إليّ النشاط، بل ويعيد إلي الحياة من جديد. حينها لم أعد في عجلة من أمري لأنهي تلك المحادثة. «هذه الطريقة الجديدة في طرح السؤال قد ترشدك إلى جواب أكثر تفاؤلاً».

حينها قالت: «أوه لا».

قلت: «ماذا؟» خشيت أني قد تسببت لها بالإهانة دون قصد.

«الطريقة التي صغت بها السؤال لا تشرح ما أعنيه بكلمة (معنى). أظن أني وصلت الآن إلى طريقة أفضل لطرح السؤال». قالت ذلك وفي نبرتها شيء من الاعتذار.

«رائع»، أجبتها، وأنا منبهر أنها أصبحت أكثر براعةً في طرح الأسئلة. «دعيني أسمع ما لديك».

«أظن أن السؤال الذي أود طرحه فعلاً هو: ما الذي يمكنني فعله لأعطي حياتي المعنى الذي يجعل روحي تحلق، ويجعلني أشعر أني أحوّل هذا العالم إلى مكان أفضل للعيش، ولو بمقدار قليل؟» أصبحت نبرة صوتها أكثر تفاؤلاً، بل وأكثر حماسًا وهي تصوغ السؤال - وكأن السؤال في حد ذاته تجليًا لها.

قلت لها: «هذا سؤال جميل. لا أعرف الجواب، ولكنني متأكد أنك ستصلين إليه، بعد أن طرحته بهذه الصيغة. بل أنا واثق أنك ستأتين بأسئلة أكثر، وإجابات أكثر، طالما واصلت المسير على هذا النوع من التساؤل».

صوت أنفاسها يوحي بأنها تتنفس الصعداء.

حينها قلت: «يبدو لي أنه مهما كان السؤال الذي تحاولين أن تسأليه نفسك، سواء كنت لوحدك أو مع آخرين، إذا بذلت له كل ما لديك لتحاولي الإجابة عنه، فأنت تحاولين فهم نفسك بشكل أفضل. وفهم الذات يمكن أن يكون سمو الذات. يمكنه أن يضع حياتك في منظورات جديدة. يمكنك أن ترى مكانك في الكون الكبير من آفاق وزوايا لم تنظري منها من قبل، ذلك لأنك مستمرة في اكتشاف عقلك. واكتشاف العقل يمكن أن يكون مثل اكتشاف كون جديد.

تابعت: «والأكثر من ذلك، أن الأسئلة الجديدة لديها القدرة على أن تقودنا إلى اكتشافات جديدة. يمكن أن يكون للأسئلة أثرًا بالغًا في حياتك.

إجابة سؤال مثل الذي قمت بصياغته الآن تتطلب أن تستخدمي خيالك. إنه يفرض عليك أن تتجرأي وتفكري في بدائل أكثر إقناعًا للسبل والوسائل التي تعيشين بها حياتك. ذلك يتطلب المخاطرة في تفكيرك. بعد ذلك يأتي دور العمل الأصعب، وهو أخذ خطوات حقيقية تجاه تحويل تلك الرؤية الخيالية إلى حقيقة».

قالت: «أفهم ما تعني. أو على الأقل أظن أني أفهم.» ضحكت بصوت عالٍ، وأطالت الضحك. بدت لأول مرة منذ بدء المكالمة غير خجولة أبدًا. إنها متحمسة. قالت: «حتى هذه اللحظة، لم أكن أعلم أن سبب إحباطي هو أني لم أسأل السؤال بطريقة تقودني لإجابات ذات معنى».

قلت لها: «لا توجد طرق مختصرة حين يرتبط الأمر بالتساؤل حول الحياة. أنا أظن أن حياة التساؤل من نواحٍ عديدة هي الحياة التي يتم فحصها ونقدها التي أشار إليها سقراط: إنها تتطلب عملاً جادًا - لاكتشاف طرقٍ جديدة، طرقٍ أفضل، لطرح الأسئلة التي تحيرك إلى أبعد حد، لكي تأتي بإجابات ذات معنى أعمق وقيمة أكبر. ولكنك لا تحتاجين إلى أحد لفعل ذلك. نعم، في بعض الأحيان يساعد الآخرون. وهنالك الكثير من المجتمعات الحيوية المتنوعة إلى جانب مجتمع مقهى سقراط، مثل مجتمع الأدب العالمي. فأنا شخصيًا اكتشفت عبر قراءة كتب مثل (الجندي الطيب) لفورد مادوكس فورد و(رجل بلا صفات) لروبرت موزيل و(الأبرياء) لهيرمان بروخ عددًا من التصورات حول الطبيعة البشرية لا يمكن أن أكون قد تعرفت عليها من أي طريق آخر. وهذه التصورات ساعدت في إعطاء مغزىً أكبر لحياتي».

أجابت: «كتب مثل (رسائل من أعماق الأرض) لدوستويفسكي، و(الرجل الخفي) لرالف إليسن، ورواية (الإعدام حرقًا) للكاتب إلياس كانيتي كان لها فيّ بعض الأثر المشابه. قراءة هذه الكتب جعلتني أسأل أسئلة عن حياتي، وعن الإنسانية بشكل عام، ربما لم أكن سأسألها لو لم

أقرأها».

«أرأيت؟ أنت بالفعل متقدمة في طريقك أكثر مما كنت تظنين»، قلت لها وأنا أحاول تخيل شكلها وتعابير وجهها. «طرح الأسئلة يمكنك من التجربة، واختبار ما يناسبك من الطرق المختلفة للإبصار. هذا ما أفعله عندما أدرس مع نفسي عدة أشكال لسؤال ما هو مغزى الحياة؟ لا أحاول الوصول إلى جواب نهائي مباشرة لأي صيغة كانت سألت بها ذلك السؤال. بل أحاول إيجاد عدة وجهات نظر، وعدد من الإجابات الممكنة. أناقشها مع نفسي، وأطرح الرأي والرأي المضاد. وبعد ذلك أسأل نفسي: ما الذي يدعم كل واحدة من تلك التصورات، وما الذي يعارضها؟»

وتابعت كلامي: «في الحقيقة، بعد سنوات من طرح سؤال: كيف يمكنني أن أعطي حياتي المعنى الذي يجعلها تستحق أن أعيشها؟ ومحاولة الإجابة عن عدة نسخ من هذا السؤال توصلت إلى حقيقة؛ وهي أن الحياة الوحيدة المناسبة لي هي أن أكون جوني آبلسيد الفلاسفة[1]. أسئلتي أخذت سنوات حتى أثمرت، وأخذت وقتًا أطول عندما وصلت إلى أجوبة مؤقتة، لتحويل تلك الأفكار إلى أفعال. ولكن منذ أن بدأت الرحلة، فإني لا أحلم بالتوقف. وحياتي اتجهت نحو أكثر الاتجاهات بهجة».

في النهاية توقفت لألتقط أنفاسي. لقد قلت أكثر مما يكفي. وخلال انتظاري لمعرفة ما إذا كان لدى محدّثتي المجهولة أي شيء آخر لتقوله، تنبهت إلى أي حد وضعتني هذه المحادثة في إطار فكري أشد تركيزًا لتساؤلاتي الذاتية الخاصة.

«هل تعلم ما سأفعله؟» قالت بعد انتظار طويل، ومن دون انتظار جواب تابعت: «سأعدُّ لنفسي كوبًا من القهوة، ثم سأجلس على الشرفة الخلفية

---

١ - جوني آبلسيد، مزارع أمريكي يرجع إليه الفضل في انتشار زراعة التفاح في أمريكا. المترجم

للمنزل وسأمضي بقية هذه الليلة أفكر في طرق جديدة أسأل بها وأجيب عن ما هو مغزى الحياة؟»

صوتها لم يعد خجولاً ولا مترددًا، بل أكاد أن أحسّ بابتسامتها فيه. ولكن قبل أن تسنح لي الفرصة لأشجعها على ما ستفعل، سمعت صوت نقرة، ثم صوت طنين. لقد أقفلت الخط. أشك في أنها تعي ما فعلت. فبعد كل ذلك، لاح لها أن أمامها الكثير من التساؤل السقراطي.

كما هو أمامي أنا أيضًا.

***

الفصل الثاني

أين أنا؟

«لقد بحثت عن نفسي»

هرقليطس، فيلسوف إغريقي، القرن السادس

حياة لا يتم استكشافها



«لماذا بدأت مقهى سقراط؟»

هذا ما سألتني إياه تلك المرأة الجذابة واسعة العينين، التي كانت تقبض على هاتفها الجوال بإحدى يديها، وكانت تلبس معطفًا صوفيًا ثقيلاً أزرق اللون مع أن المكان دافئ بالداخل، كأنما يبدو عليها أنها ستغادر في أي لحظة. لقد كانت واحدة من ثماني عشرة روحٍ شغوفةٍ حضروا إلى مقهى سقراط الأول الذي افتتحته في مكتبة (بوردرز) بمدينة وين بولاية نيوجيرسي. قبل شهر من ذلك، كنت قد تواصلت مع منسقة العلاقات المجتمعية بالمكتبة لأخبرها عن فكرتي في إعادة إحياء النقاشات التي كان يخوضها سقراط مع الناس فيما مضى. أخبرتها أني أريد إقامة هذه المجموعة الحوارية الفلسفية في مقهى المكتبة. أسعدتني بإجابتها المشجعة: «واو!» ثم سألتني: «ماذا تريد أن تسمي تلك المجموعة؟»

يا له من سؤال. لم يخطر بذهني أنه يجب علي إطلاق اسم على المجموعة. كل ما عرفته هو أنني أردت تأسيس مجموعة نقاشات فلسفية في مقهى. وكنت أعلم أني أريده أن يكون مقهىً للسقراط الموجود في داخلنا. فقلت: «لنطلق على المجموعة اسم مقهى سقراط».

ها نحن هنا، نجلس حول ثلاث طاولات مربعة قريبة من بعضها، في مقهى المكتبة. كنت أجلس في المنتصف على كرسي دوار.

«الجواب السريع لسؤالك هو أنني بدأت بالفكرة لأنني أتفق مع سقراط بأن الحياة التي لا تُفحص ولا تُستكشف لا تستحق العيش». قلت للمرأة التي سألتني عن تأسيس مقهى سقراط. نظرتها كانت منتقدة ومتسائلة. «ماذا كان يعني بقوله الحياة التي لا تفحص ولا تستكشف لا تستحق العيش؟»

سألتها: «ماذا تعتقدين أنه يعني؟»

أجابت: «ليس لدي أدنى فكرة، لقد أمضيت سنينًا من حياتي أبالغ في استكشاف حياتي، متوجهة من معالج نفسي إلى آخر. أظن أنه ربما كان من الأفضل لي لو أنني لم أقم بذلك الاستكشاف من الأساس. كل تلك السنوات من العلاج النفسي لم تؤدِ إلى حياة أفضل. لذا إذا كان سقراط يقول إن الحياة المستكشفة هي فقط التي تستحق العيش، فلا أدري إن كان يعي ما يقول.»

«أظن أن سقراط كان يتحدث تحديدًا عن الحياة المستكشفة فلسفيًا»، قال ذلك رجل صارم قوي البنية، ذو شارب غير مشذب، يجلس بعيدًا عن الطاولة كأنه يريد أن يترك مسافة بينه وبين بقية المجموعة. كان لديه تلك العادة العصبية بتدوير إبهامي يديه حول بعضهما البعض.

سألت: «وما هي الحياة المستكشفة فلسفيًا؟»

«إنها الحياة التي تحاول فيها باستمرار الإجابة عن سؤال: من أنا؟» أجاب رجل ذو صوت هادئ وعينين بنيتين متعبتين، وشعر أبيض مربوط كذيل حصان. كان قد انضم إلى المجموعة متأخرًا ويحمل في يديه نسخة مهترئة من كتاب حوارات سقراط لأفلاطون.

بعد ذلك قال أحد الرجال الجالسين، والذي كان ملازمَ جيشٍ متقاعد: «أعتقد أنه لا جدوى من استكشاف حياتك، لا فلسفيًا ولا بأي شكل آخر.

دائمًا ما تتضح لنا الأمور بعد فوات الأوان. إذا أمضيت وقتك في التفكير في ماضيك، فإنك لن تعيش الحاضر. أخي الذي يكبرني عمرًا يقضي كل ثانية من كل يوم ندمًا على الأمور التي لم يفعلها في الماضي. ما الفائدة من ذلك؟ لا يحقق ذلك شيئًا إلا حرمانه من عيش الحاضر».

أحد الرجال الموجودين كان قوي البنية إلى حد ما، وكان متبسمًا بشكل قلق طوال النقاش، توقف فجأة عن التبسم وبدأ يهز رأسه ثم قال: «أنا أختلف مع الرأي الذي يقول إنه لا جدوى من تقييم حياتك. إذا لم تتفحص حياتك فإنك لن تقوم بالتغييرات التي تجعلها أكثر إنجازًا واكتمالاً. عليك أن تنظر إلى القرارات التي اتخذتها وتسأل نفسك كيف يمكنها أن تكون أفضل في المرات القادمة؟ أنت لا تفعل ذلك لتشعر بالذنب أو لتكون قاسيًا على نفسك، ولكن لتجعل حاضرك ذا معنى أفضل».

عندها قلت: «أنا على سبيل المثال يمكنني القول إن تفحص حياتك لا يشترط أن يجعل حاضرك ذا معنى أفضل. فبعد تفحص حياتي قررت أنها لا تستحق العيش».

طلب مني الحاضرون أن أخبرهم المزيد، حينها بدأت بإخبار هذه المجموعة من الغرباء أنه قبل أن أتعهد بالبدء في مقهى سقراط فقدت كلاً من حياتي الشخصية والمهنية أي معنى بالنسبة لي. ولو علم كثير من أقرب وأعز الناس إلي لفُوجئوا من إفصاحي عن ذلك، بل إن كثيرين منهم كانوا في واقع الأمر يحسدونني على حياتي.

لأكثر من عقد من السنوات، عملت كاتبًا لمجلات على انتشار قومي. سافرت كثيرًا، وقابلت الكثير من الأشخاص المهمين. ولكنني في الواقع لم أكن سعيدًا. كنت على الدوام أسأل نفسي: لم لا أكون طبيعيًا وأتقبل حقيقة أن الوظائف لا يفترض بها أن تكون مرضية ولا يجب أن تمنح المرء شعورًا

بالكمال؟ لم لا أتقبل حقيقة أن أغلب البالغين ينتهي بهم المطاف بالتوقف عن ملاحقة طموحات الشباب المثالية؟

كان الجواب الذي أصل إليه في كل مرة هو نفسه: لأن الحياة ليست تجربة أداء. لأنه يجب ألا أقبل بعمل أقل مما أريد عمله في حياتي، حتى مع وجود المخاطر، أو ربما بسبب المخاطر ذاتها. فلسفتي في الحياة كانت وما زالت أن أحيا الحياة إلى أقصى حد، وأن أحب إلى أقصى حد.

ولكنني لم أفعل ذلك. فمع أن حياة كاتب حر يعمل لحسابه الخاص هي - على نحو ما - حياة عارمة ومحفوفة بالمخاطر، إلا أنها بالنسبة لي كانت آمنة أكثر من اللازم. على مدى زمن طويل، عشت حياتي متسائلاً ما إذا كنت سأغرق في الندم على الأمور التي لم أتمكن من عملها، لكنني لم أبذل أي جهد لأغير حياتي.

نيتشه كان يقول إن على الشخص أن يبذل ما في وسعه ليحيا حياة محفوفة بالمخاطر، وأعتقد أن ما كان يقصده هو أننا يجب ألا نتردد في الوقوع في مواضع الخطر في حياتنا، وطالما كنت أخطط لعمل ذلك، لكنني لم أفعل.

أواصل حكايتي لمجموعة الحاضرين: «وفي لحظة يأس، سألت نفسي: أين هو سقراط؟» في تلك اللحظة، تراوحت نظراتهم بين التشكيك والذهول. ابتسمت وقلت: «أنا أعلم أن هذا ليس السؤال الذي يتساءله معظم الناس في لحظات اليأس، ولكن هذا هو السؤال الذي تبادر إلى ذهني حينها. وما كنت أعنيه بسؤالي هو: أين هو سقراط الذي يعيش في داخلي؟ أو بصيغة أخرى، ماذا حصل لعشقي الطفولي للأسئلة؟»

أكملت حديثي قائلاً: «رغبت منذ وقت طويل في إحياء ذلك النوع من الجماعات التي ابتكرها سقراط - جماعة من المتسائلين. لكنني كنت دائمًا أضع العقبات في طريقي. كنت على الدوام أبتكر أسبابًا ذكية لكيلا أفعل

ذلك، حتى وصلت إلى هذه اللحظة من حياتي التي لم أعد بعدها قادرًا على أن أستمر في عيش حياة لا أراها - من عدة نواحٍ - سوى كذبة. حينها علمت أن أعذاري قد نفدت.»

أدرت بصري في المشاركين في تلك الجلسة الذين كانوا في المقابل يتابعونني باهتمام وقلت: «وهذا هو سبب وجودنا هنا الآن.»

«الأمور تسوء دومًا، وفي بعض الأحيان بسبب ذلك السوء تقتل نفسك»، هذا ما قالته المراهقة ذات الشعر المصفف إلى الأعلى كالأشواك، والشفاه الملونة بالبرتقالي بما يناسب لون شعرها، وكانت تعلق عدد من الحلقات على جسدها. أكملت قائلة: «وفي أحيان أخرى، تصنع تغييرات كبيرة في حياتك تجعلها تستحق العيش».

ابتسمت وقلت: «ذلك يبدو صحيحًا بالنسبة لي.»

قال الرجل الذي كان يمسك بكتاب حوارات أفلاطون: «أسأل نفسي كل يوم: هل حياتي تستحق العيش كي لا أقدم على الانتحار؟» يقول إنه الآن يقضي الصيف وإجازة الكريسماس موظفًا في شركة يو بي إس لتوصيل الطرود، أما بقية العام فهو يسافر حول العالم. «إنها الحياة الوحيدة التي تستحق العيش بالنسبة لي.»

قالت المرأة التي بدأت جلستنا الحوارية: «أنا الرئيسة التنفيذية لشركة، دخلي السنوي يتعدى المئة ألف دولار، أنا ناجحة. لكن في الأغلب أعدّ نفسي غير سعيدة. لكنني أعترف على الرغم من ذلك أن حضوري هنا هذه الليلة وتشغيل ذهني من جديد بطريقة لم أجربها من قبل، لا في المنزل ولا في العمل ولا حتى مع معالجي النفسي، يجعلني أشعر أنني.. أفضل». هزّ عدد ممن سمعوا ذلك رؤوسهم موافقة لما قالت.

كان شاب طويل نحيل يقرّب كرسيه أكثر فأكثر كلما تقدمنا في الحديث. كان في البداية يجلس في طاولة بعيدة عنا، يقرأ أحد كتب ديستوفسكي ويستمع إلى محادثتنا في الوقت نفسه. عندها قال: «لا أظن أن سقراط قال شيئًا مهمًا حين قال إن الحياة التي لا يتم استكشافها هي حياة لا تستحق العيش، أظن أنه من المستحيل ألا تستكشف حياتك. إلا في حالة شخص عمل عملية جراحية لاستئصال جزء من دماغه، ربما يكون ذلك شخصًا يعيش حياته دون استكشافها. بالنسبة لي السؤال ليس: هل نستكشف حياتنا أم لا، بل هو: كيف يكون ذلك الاستكشاف».

فقلت: «أتفق معك، ولكن حتى الآن ونحن نناقش سؤال: ما هي الحياة المستكشفة؟ فإننا لم نتكلم إلا من جهة ارتباطه باستكشافنا لذواتنا. ولكن ذلك ليس كل ما في الأمر، أليس كذلك؟ أعني أننا إذا كنّا نريد تفحص الحياة من عدة جوانب، أليس علينا تفحصها من خارج أنفسنا كذلك؟ كيف لنا أن نفهم من نحن إذا لم نكن نحاول أن نفهم الكون من حولنا والكون في داخلنا؟»

«هنالك الكثير من المجالات التي يحاول من خلالها الناس استكشاف الحياة»، هذا ما قالته تلك الفتاة الشابة الجادة التي أخبرتني قبل بداية الجلسة أنه قد تم قبولها في برنامج الدكتوراة في الفلسفة بجامعة هارفرد ولكنها غير متأكدة إن كان المجال الأكاديمي هو الطريق الذي تريد أن تكرس حياتها فيه لممارسة الفلسفة. «لأنه في كل مرة يكون هناك اكتشاف جديد، أو نظرية جديدة، أو اختراع جديد، يكون لدينا فكرة أفضل لنعرف من نحن وما نحن قادرون على عمله. ولكنني أظن أن ما يفرق العلم عن الفلسفة، هو أن العلم متحرك، مثل ما كتب روجر سكروتون: بدءًا من المرئي، مرورًا بالخفي، وانتهاءً بما لا يمكن رصده. العلم لا يستطيع أن يجيب على أسئلة (لماذا) في موضوعاته. هذا هو مجال الفلسفة. ولإجابة أسئلة لماذا، نبدأ بالبحث عن

كلٍ من السبب والمعنى. لا يمكن أن تكون هناك اختبارات علمية لمعنى الفرد، أو معنى الجمال، أو معنى الحياة الصالحة. هذه هي التحديات الفريدة لاستكشاف الحياة فلسفيًا. ولا أظن أن هناك من واجه ذلك التحدي أفضل من سقراط.»

«أتعلمون ما أظن؟» سألت امرأة تعمل في المقهى، وتحمل سيجارة غير مشعلة بين شفتيها طوال تلك النقاشات. أخرجت السيجارة من فمها وأشارت بها نحوي وقالت: «أظن أنك إذا قمت باستكشاف حياتك بكل طريقة ممكنة، حينها فقط يمكن القول إنك قد استكشفت حياتك فلسفيًا.»

«بكل طريقة ممكنة؟» قال ذلك رجل يرتدي سترة صفراء مكتوب عليها اسم شركة (هيرتز) لتأجير السيارات، والذي كان يتظاهر أنه يتصفح نسخة من مجلة (People) طوال النقاش. ثم أكمل: «لا أظن أن ذلك أمرٌ ممكنٌ أو حتى ضروري. أولاً، كيف لك أن تعرف أنك قد تفحصت الحياة بكل طريقة ممكنة؟ وحتى إن أمكنك ذلك، ألن تشغلك تلك المحاولة في استكشاف حياتك بكل طريقة ممكنة فلا يتاح لك أن تعيش تلك الحياة؟»

هذه الملاحظة جعلت العاملة بالمقهى تتوقف للحظة، ثم بدأت تختار كلماتها بعناية وقالت: «أظن أن ما كنت أقصد قوله – ولم أعبّر عنه بشكل جيد – هو أن هذه الطريقة في استكشاف حياتنا التي نستخدمها هنا تتطلب أن تبقي نفسك منفتحًا لطرقٍ جديدة من استكشاف حياتك، وبذلك أعني وجهات نظر جديدة، ووسائل جديدة، وغيرها. أظن أن تلك هي الطريقة التي حاول سقراط أن يصيغها، والتي تبناها أرسطو وآخرون لاستخداماتهم وأهدافهم الخاصة.»

قال الرجل وهو يغلق مجلته: «أظن أنك مصيبة. ربما يجب ألا نتوقع أن نفعل أكثر مما نفعله هنا».

هنا، هنا!

ولكن، أين وما هو «هنا»؟

أكثر المتسائلين الذين التقيت بهم دائمًا ما يسألون: لماذا أنا حيثما أنا؟ وبطريقة أخرى: ما موقعي في هذا المخطط الكوني العظيم؟ وهناك طريقة أخرى لطرح هذا التساؤل: أين أنا؟

حاول رينيه ديكارت، عالم الرياضيات الفرنسي الذي يعتبر أب الفلسفة الحديثة، أن يوسع نطاق المفاهيم الرياضية إلى كل مجالات المعرفة في محاولة منه للوصول إلى القناعات اليقينية. وكانت قدرته على التفكير هي ما قادته في النهاية لاستنتاج أنه موجود، ولذا عُرِف بكلمته المشهورة «أنا أفكر، إذًا أنا موجود».

في المقابل كانت هناك وجهة نظر مختلفة جدًا يحملها فيلسوف القرن الثامن عشر إيمانويل كانط، والذي أكدت فلسفته النقدية أن الأفكار لا تطابق بالضرورة الواقع الخارجي، بل إن العالم يكون معلومًا فقط إلى الحد الذي يتماشى فيه مع تركيبة العقل البشري. الأمر الملحّ بالنسبة لكانط هو معرفة لِمَ هو موجود.

حاول كانط أن يسلط الضوء على سؤاله من خلال كتابه (نقد العقل الخالص)، حيث طرح ثلاثة أسئلة حاسمة وحاول الإجابة عنها: ما الذي يمكنني أن أعرفه؟ ما الذي يجب عليّ أن أعمله؟ ما الذي يمكنني أن أتوقعه؟

فريدريك نيتشه كان يشعر أن كل شخص عليه أن يكتشف «لماذا» التي تخصه، «لماذا» التي ترتبط بموقعه الفريد من الحياة، «لماذا» التي تجعل الحياة جديرة بتحمل مصاعب كل يوم. ولذا كان مما كتب: الشخص الذي لديه «لماذا» يعيش بها، يمكن أن يتحمل - تقريبًا - أي «كيف».

عمل سقراط بناءً على فرض أنه كائن مفكر، موجود لا محالة. لقد شعر أن «لماذا» الخاصة به، والسبب الوحيد لوجوده، هو ليسأل ويجيب عن الأسئلة التي تمكنه من أن يكون شخصًا ذا فضيلة أكبر.

هنالك العديد من الطرق المثمرة لطرح هذه «الأسئلة التأسيسية». على سبيل المثال، يمكنك أن تشعر أنك مجبر على التساؤل... هل يجب أن أكون هنا؟ أو كيف يمكنني الانتقال من هنا إلى هناك؟ أو هل ثمة «هنا» أخرى إلى جانب هذا الـ»هنا»؟ لماذا لا أكون هنا بشكل كامل؟ أثمة أي شيء يجب علي أن أفعله وأنا هنا؟ ما أفضل سبيل لاستغلال الوقت الذي أملكه وأنا هنا بحيث عندما يأتي وقت لا أكون موجودًا فيه هنا، يعلم من جاء بعدي من دون أدنى شك أنني «كنت هنا!»؟ على الأغلب يمكنك أن تفكر في سبل أكثر - وأفضل - لطرح سؤال: «لماذا أنا هنا؟» والإجابة عنه.

لكي يكتسب مرتادو مقهى سقراط البصيرة في بحث مثل هذه الأسئلة، عليهم أن يعرضوا معتقداتهم وآرائهم على الحجج والبدائل المقنعة. وهم على دراية بأن البحث الفلسفي يتطلب منا أن نقيّم معتقداتنا وحياتنا وأنفسنا بشكل جذري ومستمر. وهم يرفضون القبول بأي شيء يدعى حقيقة أيا كان شكلها دون تفحص وتحقق. يؤمنون أنه لا مانع من مناقشة ما إذا كانت مجموعة من المعتقدات إنسانية أم عقلانية، حكيمة أو حسنة. ويؤمنون بشكل صريح أنه من حقهم اكتشاف مكانهم في هذا العالم.

هل يمكن لكل ذات أن تستكشف شخصها ومكانها بالمشاركة في مقهى

سقراط؟ لا أدري. هل البحث الفلسفي السقراطي هو السبيل الوحيد المشروع من سبل اكتشاف الذات؟ بلا شك، لا. ولكن كل شخص يملك فلسفةً للحياة والمكان، سواء علم بذلك أو لم يعلم، وسواء أفصح عن ذلك أو لم يفصح. وسواء كنّا نعي أو لا نعي، بشكل جزئي أو بشكل كامل «منهجنا الفلسفي للحياة والعيش» ففي واقع الأمر كل أمر نفكر فيه، وكل فعل نقدم عليه، وكل حركة نتحركها، سواء كانت مصيرية أو عادية، تعكس بشكل ما نظرتنا للحياة ومكاننا في العالم.

***

مكان للتجمع

وصلت إلى تلك الكنيسة في شمال كاليفورنيا قبل انتهاء قداس يوم الأحد، لا أمانع في الانتظار مستمعًا إلى تلك الترانيم اللطيفة التي تغنيها جماعة المصلين داخل ذلك المبنى ذي اللون القرنفلي، الذي تم تصميمه على هيئة دير رهبان أسباني. أعاد لي ذلك ذكريات الطفولة الجميلة حينما كنت أحضر إلى الكنيسة الميثودية مع والدتي. لاحظت أن اللوحة المعلقة عند مدخل المبنى المهيب مكتوب عليها بحروف بيضاء كبيرة أن المكان لجماعة دينية ليبرالية، ولم تكن تشير بوضوح إلى أنها في الواقع كنيسة.

لقد دعتني إلى هنا لإدارة مقهى سقراط امرأة حضرت بعض الجلسات التي أقمتها في مركز لكبار السن. بعد خمس عشرة دقيقة، دخلت إلى غرفة الاجتماعات الهادئة بتلك الكنيسة برفقة ما يقارب العشرين من المصلين. أغلبهم يجلس على الأرائك والكراسي المريحة الملاصقة للجدار، وجلست أنا على طرف ذلك المقعد المتحرك خشية أن تبتلعني وسادته الفاخرة.

قالت لي المرأة التي دعتني للحضور: «مرحبًا. كنت سأقول مرحبًا بك في كنيستنا، لكن الكثير منّا في الواقع لا ينظر إلى هذا المكان باعتباره كنيسة». هزّ غالبية الحضور رؤوسهم وتمتموا بكلمات ليشيروا إلى موافقتهم على ما قالت.

حينها قلت: «إن لم تمانعوا، فأنا أتساءل إن كان بإمكانكم مساعدتي لأجيب عن هذا السؤال: ما هي الكنيسة؟». من النادر أن أختار موضوع

النقاش بنفسي، ولكنني كنت سعيدًا لأنهم وافقوا على اختياري، بل أستطيع أن أقول إنهم كانوا متحمسين للسؤال.

قالت إحدى الحاضرات التي ذكرت أنها ترتاد هذه الكنيسة منذ فترة طويلة: «حقيقةً، لا أظن أن باستطاعتي أن أعطيك تعريفًا للكنيسة، أخشى أن علي أن أبحث عن ذلك». وتبسمت تأكيدًا لنظراتها اللطيفة، ثم توجهت إلى رفٍ من الكتب وأخرجت قاموس وبستر الضخم. بدأت تقلب الصفحات حتى وصلت إلى ما كانت تبحث عنه، قرأت لنفسها في البداية، ثم قالت: «يقول القاموس هنا إن هناك شيء واحد تشترك فيه كل الكنائس، وهو أنها كلها دور عبادة للمسيحيين».

«ولكنني لست مسيحيًا»، قال ذلك رجل يعمل مهندسًا، وكان ذا بشرة فاتحة وخدود متوردة. «أنا لاأدريّ روحاني - أؤمن بوجود قوة عظمى في الكون، ولكن لا أدري إن كانت هذه القوة آلهة. ولا يتضايق أحد من وجودي هنا. جماعتنا هذه للجميع، وليست فقط للمسيحيين». ثم وجّه نظره ناحيتي وقال: «لم يجعلني أحد هنا أشعر بعدم الراحة من المكان قط. بل في الواقع بعضهم هنا يمزح معي بقولهم: كيف حال صديقنا اللاأدري؟ أشعر أنني جزء من هذه العائلة هنا».

بعد ذلك تحدث رجل خجول يجلس مع زوجته على الأريكة بجانبي وقال: «نحن نفكر في تغيير اسم مكان تجمعنا هذا من كنيسة إلى مكان الصلاة».

سألته: «لماذا؟»

فقال: «يشعر الموجودون هنا أن اسم (مكان الصلاة) يعبر عن طبيعتنا على نحو أصدق، لأن لفظ الكنيسة يرتبط بالمسيحيين مثلما هو مكتوب في القاموس، بينما نريد هنا أن يشعر كل شخص أنه مرحب به، سواء كان مسيحيًا أو مسلمًا، أو لاأدريًا، أو غير ذلك».

ثم تابع قائلاً: «أعتقد أننا جميعنا هنا متدينون، لكنه ليس تديّنًا مشابهًا للتديّن التقليدي للطوائف المسيحية الأخرى. أعتقد أن معظمنا يؤمن بوجود كائن عظيم أو قوة عظمى على نحو ما، وذلك العظيم هو علة الوجود، وهو الذي يرعانا، وهو الذي يهدينا. لكن معتقدنا حول من هو هذا العظيم، أو ما هو، وكيف يجب أن نظهر خضوعنا وطاعتنا له، فإن ذلك يشمل طيفًا من التوجهات».

كان تعريف ذلك الرجل لمفهوم الشخص المؤمن ينسجم إلى حد ما مع تعريف عالم الإلهيات البروتستانتي فريدريك إيرنست شليرماخر، والذي كان يقول إن «جوهر» تديّن المرء هو «الشعور بالتبعية التامّة». إلا أن سيغموند فرويد سجل اعتراضه على هذه النظرة في كتابه (مستقبل الوهم)، حيث قال: «ليس الشعور بالتبعية التامة ما يشكل جوهر التدين، بل هي الخطوة التي تأتي بعد ذلك في طريقة تعامل الشخص معه، حيث يبحث عن علاج لذلك الشعور. الشخص الذي لا يتجاوز ذلك الشعور، ويسلم نفسه تواضعًا إلى الجزء الهامشي الذي يؤديه الإنسان في الكون هو على العكس، شخص غير متدين بكل ما تعنيه الكلمة».

قلت: «أظن أن البعض قد يرى أنكم تحاولون جاهدين أن تبعدوا أنفسكم عن الصورة التقليدية التي يعرفها الناس عن الكنائس».

فأجاب: «قطعًا».

ثم قال ذلك الرجل الذي يصرح بأنه لاأدريّ: «كل ما في الأمر هو أننا منفتحون لكل شيء، ونرحب بالناس لينضمّوا إلى كنيستنا، وليصبحوا أعضاءً فيها، حتى وإن لم يكونوا مسيحيين ملتزمين، بل وحتى لو لم يؤمنوا بأي إله على الإطلاق. وأنا مثال جيد على ذلك».

حينما تحتاج إلى مجتمع كامل

في الأيام والأسابيع اللاحقة، بقيت أفكر كثيرًا في ذلك الحوار السقراطي الذي أقمناه في الكنيسة. بدا لي أن العامل المشترك بين جميع الأفراد الذين كانوا هناك وشاركوني النقاش هو رغبتهم في أن يكونوا جزءًا من مجتمع يشعرون فيه بالراحة بغض النظر عن اختلاف توجهاتهم الدينية.

بدأت أفكر حينها أن وصفهم لكنيستهم على أنها جماعة مصلين كان مشابهًا جدًا لما أود أن أصف به جلسات مقهى سقراط: فهي أيضًا تجمعات للصلاة على نحو ما. أعلم أن غالبية الأشخاص الذين يحضرون بشكل دوري لا يستطيعون تخيل الحياة من دون هذه التجمعات الأسبوعية، وأنا متأكد أن معظم مرتادي الكنيسة ينتابهم الشعور نفسه.

حينما أرحب بزوار المقهى، فأنا أستخدم نفس الأسلوب الذي يستخدمه القسيس قبل البدء بالقداس. فنحن المداومون على حضور المقهى نحيي بعضنا بالاحتضان والمصافحة، أما القادمون الجدد فأقوم بمصافحتهم وأقول لهم: «شكرًا لحضوركم». وفي نهاية الجلسة أحرص على توديعهم مع تمنياتي بأن يحضروا الجلسات القادمة. والكثير منهم يعودون بالفعل، فهم يكتشفون أن هذا النوع من الجماعات هو ما كانوا يبحثون عنه ويودون أن يكونوا جزءًا منها، مثلما يشعر المصلون بالكنيسة أن تلك هي الجماعة التي لا يريدون تركها.

لطالما وصفت جلسات مقهى سقراط على أنها «قداسات كنائسية

للمهرطقين»، فهي التجمعات التي نشعر فيها بالارتياح عندما نتحدى دوغمائياتنا. يكتب جون ديوي في مقالة (الديموقراطية المبدعة): «أنا أميل إلى الاعتقاد بأن قلب الديموقراطية وآخر ضماناتها هو في التجمعات الحرة للجيران على زوايا الطرقات ليتناقشوا في الذهاب وفي العودة، ويتحاوروا بكامل الحرية مع بعضهم البعض، لأن كل شيء يمنع الحرية وكمال التواصل يقيم الحواجز ويفرق الناس إلى زمر وعصابات، ليقوم بالتالي بإضعاف الطريقة الديموقراطية في الحياة».

ولكنني لست متأكدًا تمامًا من أن التجمعات الحرة لأولئك الجيران الذين يتحاورون دون قيود هي الضمان الوحيد لديموقراطية قوية. أنا أعتقد أن الطريقة التي يتناقش بها هؤلاء الناس لا تقل أهمية عن حريتهم في النقاش. على سبيل المثال، لو أن مجموعة من الأفراد تحدثوا بحرية وأفرغوا كل ما في جعبتهم من مغالطات، ولم يقوموا بتفحص ما طرحوه بشكل نقدي، ولم يقوموا ببناء نتائج معتمدة على وجهات النظر المختلفة، فإن ذلك لن يؤدي بهم إلا إلى ديموقراطية راكدة وخاوية.

حينما يطالب ديوي بحرية وتمام الحوار فإنه يلمح إلى نوع من الحوار الضروري لحفظ الديموقراطية. ومع أنه لا يقول صراحة ما يعنيه، إلا أنني أظن أن الطريقة السقراطية في البحث هي نموذج من التواصل يدعو كل المتحاورين للمشاركة بشكل كامل وبأسلوب يقوم على المساواة.

وذلك يتطلب من المشاركين أن يساعدوا بعضهم البعض في التعبير عن وجهات نظرهم، ثم اختبارها، ثم محاولة التعرف على آثار تلك الوجهات على المجتمع، وما يمكن أن تحويه من افتراضات. هذا باعتقادي هو نوع من التواصل «التام والحر» الذي يمكن أن يساعد على ضمان ديموقراطية مفعمة بالحيوية يمكنها أن تتطور مع مرور الزمن.

أظن أن باستطاعة ديوي، وهو الذي أكد من خلال مسيرته على أهمية التساؤل في البحث عن المعرفة، أن يرى أن طريقة التساؤل التي تُطرح في مقهى سقراط ضرورية لتعزيز العيش على نحو ديموقراطي. ولكن هناك الكثير ممن يعتبرون مثل هذه الجلسات لعنة. وفي الحقيقة فإن هذا النوع من التساؤل الفلسفي الذي أسسه سقراط عانى منذ أيام اليونانيين القدامى من كثرة معارضيه، الذين طالما وصفوا هذه الفلسفة على أنها تجانب الورع، وتخالف الإيجابية، وتحارب الوطنية. وكان أولئك يشتكون من أن هذا النوع من التساؤل الذي يدعو إلى التحقيق بشكل مستمر، وهذا هو النوع الذي تجسد في شخص سقراط، هو بالنسبة لهم عقبة لما كانوا يسمونه هم البحث عن «الحقيقة».

يا ترى كيف سندافع نحن ممن نمارس هذا النوع من الفلسفة عن أنفسنا إزاء هذه الدعاوى؟ مذنبون بالتهم الموجهة ضدنا. سقراط كان يرى أنه من مسؤوليتنا أن نتساءل دون هوادة. كان ذلك بالنسبة له أمرًا أخلاقيًا. وهذه «الروح السقراطية» لا يمكن فصلها عن الطريقة السقراطية في البحث والتحقيق. للتفريق بين سقراط والسفسطائيين في زمانه - وهم الفلاسفة الذين كانوا يجوبون طرقات أثينا مثلما كان يفعل سقراط، لكن على خلاف سقراط، فإن السفسطائيين دفعوا الغالي والثمين من أجل نشر «حكمتهم» - فقد كتب لاسلو ڤيرسيني، بروفيسور الفلسفة بجامعة ويليامز كولج:

كان السفسطائيون يلقون المحاضرات، أما سقراط فكان يكتفي بطرح الأسئلة. تحدّث السفسطائيون كثيرًا عن التعليم والفضيلة والتفوق الإنساني. أما سقراط فقام بتجسيد تلك الأمور في حياته... عرّف سقراط الرجال على التطوير الذاتي، والذي كان بمثابة «علاج حقيقي للروح»...

كان الخضوع لأسئلته وتجربة مخاض النمو الفكري متعبًا ومؤلمًا... سقراط ركز على الحكمة، واعتبر أن نقص البصيرة هو نقص في القيمة... لم يكن باحثًا منعزلاً يفكر في أمور غريبة عن الناس، بل كان مرتبطًا كل الارتباط عما يبحث عنه.

كان الذين تبنوا الروح السقراطية في السنوات اللاحقة يمثلون «تأنيب الضمير» لمن حولهم، فمن جاليليو إلى غاندي، ومن سولجنيتسين إلى روزا باركس[1]، كان هناك على الدوام أولئك القلائل الذين طرحوا أسئلتهم على الجميع ومن دون خوف، ليتحدوا «الحكم» التقليدية في زمانهم. كان هناك دومًا من يناضل ضد الجهل، ومن أصر على ما أسماه فريدريك نيتشه «إعادة تقييم القيم»، وفي بعض الحالات كانت الشهادة نتيجة سباحتهم عكس التيار. رسالتهم كانت فكرية وأخلاقية واجتماعية في وقت واحد. لقد كانوا مثل الطفيليات من سلالة سقراط.

كان فريدريك نيتشه يتساءل حول حقيقة أن «قبول الحقيقة الدارجة في دائرة المقربين وعموم الصالحين في المجتمع، والتي تعد سبب اطمئنان وسمو الناس» أكثر صعوبة من «اتخاذ طرق جديدة، ومحاربة المألوف، وتجربة الاستقلال، وعدم الاستقرار، والتذبذب المستمر في المشاعر وحتى الضمير، والاستمرار في كل ذلك دون أي مواساة أو تعزية...».

كان نيتشه يقترح «إذا كنت تطمح للمتعة واطمئنان الروح، فآمن؛ أما إذا كنت تريد أن تكون متفانيًا للحقيقة، فتساءل». وفي نفس السياق، فإن تشارلز ساندرز بيرس، الفيلسوف الأمريكي الرائد في العلوم واللغة والذي

١- ألكسندر سولجنيتسين: أديب ومعارض روسي (١٩١٨ - ٢٠٠٨). كان روائيًا وكاتبًا مسرحيًا ومؤرخًا. من خلال كتاباته جعل الناس يحذرون من الغولاغ، وهي معسكرات العمل القسري بالاتحاد السوفيتي. روزا باركس (١٩١٣ - ٢٠٠٥): ناشطة من أصول أفريقية أمريكية، طالبت بالحقوق المدنية للأمريكان الأفارقة. المترجم

عاش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كتب أن «القاعدة الوحيدة للحكمة» هي «للتعلم، عليك أن ترغب في التعلم، وتلك الرغبة في حد ذاتها تعني أنك غير راضٍ بما لديك من قناعات». من هذه القاعدة، يقول بيرس: «تأتي نتيجة لازمة، تستحق أن تنقش على كل جدار من جدران مدينة الفلسفة: لا تضع أي عقبة في طريق التساؤل».

هؤلاء الذين يشاركون في جلسات مقهى سقراط، يكملون – بشيء من التواضع – نفس تلك التقاليد الابتداعية لطفيليات سقراط. الأمر الذي يظهر واضحًا من خلال نقاشاتنا في المقهى هو أن لا أحد يتحدث بطريقة من جاء بالجواب النهائي أو الجواب القاطع لأي من أسئلتنا. في مقهى سقراط، ليس لأي رأي من الآراء، أو أي حقيقة – مما نطلق عليها حقائق – أن تكون الكلمة الفصل التي تنهي أي نقاش. ولكن بعض الحقائق يمكن فعلاً أن تنتصر، أو أن تصمد بشكل أفضل من غيرها بعد أن تمحّص وتوضع في العصّارة السقراطية.

كان لاسلو فيرسيني يقول: «بالنسبة لسقراط، فإن معرفة شيء تعني أنك قادر على إعطاء أسباب له، وأن تدافع عنه بالبراهين العقلية، وأن تثبته للآخرين. إنها تعني الإمساك بشيء... كنتيجة مثبتة بسلسلة طويلة من الاستنتاجات...». التساؤل السقراطي يعطينا الفرصة لأن نتشارك بعقول ذكية متحمسة، لنبحث في أفكار عظيمة، ولندلي بدلونا حول أسئلة وقضايا خالدة. إنه يحثنا لأن نعطي مبررات صحيحة لتمسكنا بفلسفات محددة، وللأسباب التي تجعلنا نختار تلك الفلسفات بالذات للدفاع عنها، واعتبار غيرها آراء خاطئة لا أساس لها من الصحة. والأكثر من ذلك، فإن الاكتشاف أن حتى أذكى المفكرين يمكن أن يكون لديهم ثغرات فادحة ونقاط عمياء في فلسفاتهم هو تذكير دائم لنا بحقيقة أننا في النهاية بشر.

البحث عن الإخلاص

استطاع سقراط من خلال طريقته التي لا تضاهى في استجواب السفسطائيين أن يظهر حقيقة أن تملقهم لم يكن له أي قيمة - خصوصًا أن تملقهم كان في الواقع مكلفًا، إذ أنهم نشروا السفسطة بمقابل ثمين. ومثل ذلك الوقت، هناك الكثير من السفسطائيين في يومنا هذا، سواءً بين أروقة الأكاديميا أو خارجها.

كتب الفيلسوف والباحث المعاصر المشهور روجر سكروتن مقالة حادة نشرت في جريدة الصنداي تايمز اللندنية حول (عودة السفسطائيين). قال سكروتن فيها إن سفسطائيي اليوم «لم يعودوا يرشدوننا نحو الحقيقة عبر إيقاظ قوانا العقلية الكامنة». بل إن السفسطائي الجديد «يصف لنا كيف أن بضاعته أفضل من بضاعة المعالج النفسي... فهو يعرض لنا كتالوجًا من «المعتقدات»، لنعرف أي منها ننتمي له، وربما يشجعنا لاستبداله بما هو أكثر حداثة. ومن أجل إقناع الزبون أنه قد وضع ماله في المكان المناسب، فإنه يزيّن معتقده المفضل بالطلاسم المناسبة، ومن ثم يضع له السعر المناسب الذي يجعله ضروريًا من الناحية السيكولوجية، ليقنع نفسه أنه في طريقه إلى الشفاء». ويقارن سكروتن بين السفسطائيين الجدد بالمثال الأزلي في الاستقامة الذي جسّده سقراط، «والذي خلّده أفلاطون في حواراته» والذي «لم يكن سفسطائيًا، بل فيلسوفًا حقيقيًا»، «أيقظ روح التساؤل والبحث» ومكّن أولئك الذين شاركوه في النقاش لأن يكتشفوا إجاباتهم الذاتية لألغاز الحياة.

يقول سكروتن إن الفيلسوف الذي ينتهج نهج سقراط «هو كالقابلة، ومهمته أن يساعدنا لأن نكون من نحن - كائنات حرة وعقلانية، لا تحتاج إلى أي شيء لتفهم نفسها. السفسطائيون في المقابل يوهموننا بالمغالطات الماكرة، ويستغلون ضعفنا، ويعرضون أنفسهم كحلول هم في الأساس سببها».

كان سقراط يشبّه الفيلسوف بالطبيب الذي يحمي الرجال والنساء من أنصاف الحقائق المغرية التي يعرضها السفسطائيون، وكذا ضد التعصب، واللاإنسانية، وانتشار الأكاذيب والإشاعات، وذلك عبر تدريبهم على التفكير بحذر، وبإخلاص، وبعين ناقدة، وبأمانة. وبهذا المنحى، فإن نوع التفلسف الذي يمارسه «السقراطيون الجدد» في مقهى سقراط ليس في الواقع بحثًا عن الحقيقة المطلقة بقدر ما هو سعي وراء الإخلاص.

ويعلم السقراطيون الجدد أن البحث الفلسفي ليس الدواء الشافي لكل داء، وليس الرصاصة السحرية لمشاكلنا، بل إنها ستكون قمة الخداع تصوير الفلسفة بهذه الطريقة. هل هناك مشكلة تم حلها أو علاجها ولم يتسبب ذلك في ظهور مشاكل جديدة؟ بالتأكيد لا، فهذا جزء لا يتجزأ من التجربة البشرية. بل إن الشيء الذي يتم السعي السقراطي إليه هو الإخلاص، هو القدرة على التفريق بين المشاكل المستعصية والمشاكل التي تستشرف المستقبل التي تمكّن من خلال صياغتها واستكشافها الباحث على أن يكون شخصًا أكثر حرية، وأكثر عقلانية، وأكثر وعيًا بتفسير طبيعته، وكيف له أن يكون ما يطمح أن يكون.

***

لا مكان مثل الوطن[1]

حضرت مبكرًا. أنا في مجمع سكني فخم قريب من المدينة التي عشت فيها أيام صباي بولاية فيرجينيا، يسكن فيه ما يقارب الثلاثمائة من كبار السن. لا أدري ماذا أفعل، لذا بقيت في الممر خارج الغرفة التي سيكون فيها اجتماعنا. بعد لحظات، انتبهت إلى امرأة نحيلة أنيقة ذات عينين عسليتين مفعمتين بالحيوية جالسة على المقعد القريب.

«هل أنت الفيلسوف؟» سألتني حينما لاحظت أني تنبهت لوجودها.

لا أعرف كيف أجيب، فلطالما كانت لدي مشكلة مع تسمية «فيلسوف». حينما أبدأ في التفكير «من هو الفيلسوف؟». وصف الفيلسوف المعاصر والتر كوفمن، الذي بقي حتى وفاته بعمر ٥٩ سنة في عام ١٩٨٠ بروفسورًا في جامعة برنستن، الفيلسوف بشكل مقنع على أنه ذلك الشخص الذي يحارب مخاوفنا «ليفهم الأشياء التي تتعارض مع الأعراف، أو الامتيازات، أو المعتقدات» ويحاول أن يجعلنا «أكثر حساسية لوجهات النظر الأخرى، ولمعرفة كيف يمكن أن تبدو وجهة نظر غير مفهومة وربما مرفوضة إجمالاً إن نظرنا إليها من الداخل».

قال جون هيرمان راندال جونيور، والذي كان بروفيسورًا في الفلسفة

---

١ - كلمة Home بالإنجليزية يمكن أن تعني وطن، كما يمكن أن تعني بيت. وفي النقاشات المطروحة في هذا الفصل يتم الانتقال بين المعنيين ما بين جملة وأخرى، ولما تحمله الكلمة من شمولية للمعنيين، في حين نضطر في العربية لاستخدام مفردتين مختلفتين، كان الانتقال في استخدام اللفظين في الترجمة، لذا وجب التنويه. المترجم

بجامعة كولومبيا لما يقارب النصف قرن، إن أكثر مهام الفيلسوف ضرورة وأكثرها إبداعًا هي أنه «سياسي الأفكار» حيث إن «قوته التكهنية - وهي القدرة على النظر إلى الأمور كما هي - مضافة إلى الفطنة النقدية - وهي القدرة على جعل الأمور تتناسب مع بعضها لصناعة فكرة أحدث وأكثر شمولية، ستتقبل المعتقدات المتنازعة، وتمنح كلٍ منها العدالة الفكرية». وحين يكون الفيلسوف في «قمة قدرته على التأثير»، فإنه يمكن أن يعطينا آفاقًا جديدة «لكل وقت ولكل سرمد».

في نهاية المطاف، ولأجيب سؤال تلك المرأة، قلت: «نعم، ولا».

ضحكت وقالت: «أنت فيلسوف بلا شك»، وكانت لها لكنة ألمانية.

سألتها: «من أين أنت؟»

فقالت: «هممم»، ثم توقفت لحظة لتفكر في أفضل طريقة للإجابة. في النهاية قالت: «انتقلت للعيش هنا قبل شهرين لأكون قريبة من أخي بعد وفاة زوجي، قبل ذلك عشت لسنوات في روما. كنت طبيبة أطفال هناك. لكن لم أفكر فيها على أنها وطني».

«هل أنت من ألمانيا؟»

أجابت بشيء من الغموض: «نوعًا ما. ولدت هناك، ولكنني أظن أن في واقع الأمر لم يكن لي وطنٌ في يوم من الأيام. لا أدري إن كان يوجد شيء حقيقي اسمه الوطن».

لا شيء حقيقي اسمه الوطن؟ لا يسعني الوقت لأطرح عليها المزيد من الأسئلة حول ذلك، لأن وقت مقهى سقراط قد حان. اجتمعنا في غرفة ليست رسمية، بل أقرب إلى أن تكون غرفة في منزل، تحوي آرائك مريحة، وطاولات دائرية صغيرة ذات طراز قديم تغطيها قطع قماش بيضاء.

«ما هو الوطن؟» طرحت السؤال على ما يقارب الثلاثين شخصًا الذي جاءوا للمشاركة، في نفس الوقت الذي تبادلت فيه نظرة خاصة مع تلك المرأة التي كنت أتحدث معها قبل بداية الجلسة. ابتسمت وعبس وجهها في نفس الوقت.

قالت امرأة كانت تجلس بجانبها، ترتدي بطاقة اسم مكتوب عليها اسمها ميلدريد: «سأخبركم ما هو ليس بوطن». قالت على نحو من الشدة وهي تضرب براحة يديها على الكرسي الذي تجلس عليه: «هذا المكان ليس وطني. هذا المكان ليس بيتي. السبب الوحيد لوجودي هنا هو أن أبنائي رموني هنا. أنا أتمنى أن أكون في أي مكان إلا هنا». ثم تحدثت مستغرقة قليلاً في ذكريات سنواتها في نيويورك. قالت بفخر واضح أنها انتقلت إلى هناك قبل ستة عقود، على خلاف رغبة عائلتها، لتكون أخصائية اجتماعية. «تركت منزلي الدافئ في الغرب الأوسط باختياري، وصنعت لنفسي بيتًا في مدينة برونكس بنيويورك». كانت تشع بالفخر وهي تقول ذلك، إلا أن ذلك الإشعاع بدأ بالخفوت، وهي تنظر لنا جميعًا في تلك الغرفة، وتقول: «لكنني لست هنا باختياري، لذا لا يمكن أن يكون هذا وطني. الوطن هو المكان الذي تختار أن تعيش فيه».

حينها تحدث شخص آخر من نزلاء المكان قائلاً: «قلة منّا من كانت لديهم رفاهية اختيار المكان الذي نعيش فيه، أنا عشت حيث وجدت لنفسي عملاً يمكنني من توفير منزل حسن لزوجتي وعيالي».

أجاب نزيل آخر بحزم: «البيت هو المكان الذي يكون فيه سريرك. سريري في هذا المكان. إذًا هذا المكان هو بيتي، وهذا المكان هو وطني».

حينها قالت ميلدريد: «كم منكم يشعر أن هذا المكان هو بيته؟»

ثلاثة مشاركين فقط رفعوا أيديهم؛ ورفعوها للحظات فقط ثم أنزلوها.

«أنا متفاجئ أن عددًا قليلاً منكم فقط من يعتبر هذا المكان بيتًا له» قال هذا النزيل الذي يعتقد أن البيت هو المكان الذي تنام فيه.

ثم تحدثت امرأة متأنقة في لبسها، ذات شعر رمادي لامع يمتد إلى كتفيها، فقالت: «هذا أحد بيوتي. ما زال لدي بيت في فلوريدا أيضًا».

سألتها: «هل تتنقلين بين البيتين من وقت لآخر؟»

أجابت بشيء من خجل الاعتراف: «في الواقع، لا»، ثم قالت: «ولكنني لا أفكر أبدًا في أن أبيع ذلك المنزل. فطالما أملكه، أشعر أن لدي بيت آخر، ووطن آخر، هناك».

توقفت للحظة ثم سألتْ: «ماذا عن العبارة التي نستخدمها: اعتبر نفسك في بيتك؟ إنها تجعلني أسأل نفسي، أين هي الأماكن التي أشعر فيها أنني في بيتي أو وطني؟» مع أنني قضيت عدة سنوات هنا إلا أنني إلى الآن لا أشعر أني في بيتي. ما زلت أشعر كما شعرت عندما انتقلت للعيش في منزلي بفلوريدا منذ سنوات. شعرت في الشهر الأول الذي قضيته هناك أنه ليس إلا مسكن. احتاج ذلك المنزل إلى بعض الوقت حتى صار بيتًا حقيقيًا، ليس فقط ذلك البيت بل المنطقة كلها أصبحت وطنًا لي. في نهاية الأمر، تحول المكان لأكثر من بيت – فهو المكان الذي تعلمت فيه الطبخ، والمكان الذي عقدت فيه صداقات دامت طوال حياتي، والمكان الذي وقعت فيه في الحب». ثم قالت بحزن: «كنت أظن أن يومًا سيأتي أشعر فيه أن هذا المكان أصبح بيتي، لكنني ما زلت أنظر إليه على أنه ليس إلا مسكن».

سألت: «كيف يصبح المسكن بيتًا؟»

بدأ حينها أحد المشاركين بالحديث وهو يضحك وترتسم على شفتيه ابتسامة تهكمية فقال: «أظن أن عليك أولاً أن ترغب في أن تعيش فيه، وحتى لو توافرت أماكن أخرى تريد أن تكون بها، حتى لو كانت لديك تفضيلات

أخرى، يجب أن تشعر على نحو ما أنه مكانك، أو مقرّك. لا أشعر على هذا النحو هنا، ولا أدري إن كنت سأشعر بذلك في يوم ما.»

قلت: «لا أظن أني شعرت في أي مكان عشت فيه منذ أصبحت بالغًا على أنه بيتي. أظن أنني أشعر كما تشعرون بأنها مساكن فقط. كنت أظن أن ذلك بسبب تنقّلي من مكان إلى آخر بشكل متكرر، حيث كنت أغير أماكن سكني كثيرًا حتى عندما كنت طفلاً، ولكنني حينها كنت سريع الانتقال في التفكير في الأماكن التي أنتقل إليها على أنها بيوت لي وليست فقط مساكن».

بعد توقف لحظات لأجمع أفكاري، أردفت: «بعض الأحيان أشعر أن الوقت الوحيد الذي أشعر فيه أنني في بيتي هو عندما أكون على الطريق. كنت أعمل صحفيًا مستقلاً لعدة سنوات، فكنت أسافر على الدوام، لذا اعتدت على المبيت في غرف الفنادق. إلى هذا اليوم، إذا بقيت في البيت لأكثر من أسبوع، أبدأ بالشعور بالتوتر ونفاد الصبر. فأخرج الخريطة لأنظر إلى كل الأماكن التي قمت بزيارتها، وإلى الأماكن التي أود زيارتها».

بدت امرأة خجولة اسمها أودري كأن شيئًا ظلّ معلّقًا على طرف لسانها لوقت طويل، فتحدثت أخيرًا قائلة: «عشت معظم سنوات شبابي في شقة جميلة في الجانب الشرقي الراقي من مدينة منهاتن بنيويورك. الآن فقط انتبهت إلى أن كل تلك السنوات التي عشتها هناك لم أشعر يومًا أن ذلك المكان كان بيتي». سكتت للحظة ثم قالت: «أتساءل ما إذا كان ذلك بسبب أنها كانت شقة وليست منزلاً. ولكنني لا أفكر في هذا المكان على أنه بيت حقيقي هو الآخر. أتمنى لو أنني أفهم لماذا...».

سألت: «ما هو البيت الحقيقي؟»

أجابت ميلدريد وهي تنظر إلى أودري: «البيت الحقيقي هو المكان الذي

تطرقين بابه ويسمح لك بالدخول إليه. أنا أعتقد أن السبب الذي يجعلك لا تشعرين في أن أي من الأماكن التي أقمت بها بيوتًا لك هو أنها أماكن لم تختاري أنت العيش فيها، بل تم اختيارها لك. حتى وإن سمحوا لك بدخولها، فأنت لم تقرعي بابها يومًا».

جاء الرد الخافت: «أظن أنك محقة تمامًا».

«البيت الحقيقي هو المكان الذي تولد وتترعرع فيه»، قالت هذا امرأة كانت واقفة طوال النقاش بقرب المدخل، متكئة بثقل على ذلك العكاز. لسبب ما، لم ولن تكمل طريقها لتنضم إلى المجموعة.

قلت لها: «منزل طفولتي الذي يقع قريبًا من هنا، والذي ما زال يعيش فيه والداي، لم يعد بيتًا لي الآن. غرفة نومي تحولت شيئًا فشيئًا إلى غرفة إضافية تستخدمها والدتي، وفي الواقع، لم أعد حتى أملك مفتاحًا للمنزل».

«لا يمكنك العودة إلى المنزل مرة أخرى»، قالت إحدى المقيمات بالمجمع السكني بصوت يصاحبه شيء من الأسف، في نفس الوقت الذي كانت تتحسس فيه قلادتها اللؤلؤية، ثم تابعت: «ربما يمكنك أن تعود، ولكنه لم يعد نفس المكان، وأنت لم تعد نفس الشخص. نعم يمكنك العودة، لكن هل سيكون هو نفس البيت؟ أم هو بيت جديد؟ أم هو بيت غريب؟»

طريقتها في مراجعة وجهة نظرها الأساسية حول البيت ذكرتني بجورج ويبر، بطل رواية توماس ولف (لا يمكنك العودة إلى بيتك) والذي قال إن «جوهر المعتقد هو الشك، وجوهر الواقع هو السؤال». بالنسبة لويبر – الذي كانت حياته انعكاسًا لحياة توماس ولف نفسه – البيت هو المكان الذي تنشأ فيه، والمكان الذي تغادره لتكتشف العالم خارجه، ومن خلال تلك العملية، تكسر قشرة بيضتك الوجودية.

بعد عدة سنوات عاد ويبر إلى موطنه الأصلي بعد كتابة رواية ناجحة،

ولكنه غادر مجددًا بعد أن عبّر الأهالي عن امتعاضهم من كتابه وتعليقاته الاجتماعية اللاذعة حول تلك البلدة. يقال إن الفقرة الختامية التي لا تنسى من الكتاب جاءت من صوت تحدث إلى ويبر في الليل وقال له: «اترك الأرض التي تعرفها لمعرفة أكبر، اترك الحياة التي لديك لحياة أعظم، اترك الأصدقاء الذين تحبهم من أجل حب أكبر، لتصل إلى بلاد أكثر كرمًا من الوطن، وأكبر من الأرض».

ويبدو أن توماس ولف نفسه خلال مكوثه في الأماكن النائية كان قد وجد «بلادًا أكثر كرمًا من الوطن»، ولكنه لم يعتبر تلك البلاد وطنًا. وحتى مع عدم قدرته على العودة إلى وطنه، فإنه ما زال يعتبر وطن صباه موطنًا له. لقد كان ذلك الوطن جزءًا من نسيج ذاته، بالمعنى المادي والوجودي، فإن توماس ولف شعر أن هناك تجذر واتصال لا يمكن لأي مسافة زمانية أو مكانية أن تمحوهما، ولا توجد بقعة أخرى على هذا الكوكب، مهما كانت كريمة، يمكن أن تكون بديلاً لذلك الوطن.

بعد صمت عميق التفكير، قالت طبيبة الأطفال المتقاعدة بنبرة ختامية: «الوطن هو المكان الذي يكون فيه أصدقاؤك. أخي هنا، وخلال الشهرين الماضيين اللذين قضيتهما هنا أصبح لدي أربعة أصدقاء رائعون. وهذا كافٍ بالنسبة لي». توقفت للحظة ثم أكملت بشيء من التردد: «لذا... هذا المكان أصبح وطنًا لي، إلى حد ما».

قالت ميلدريد: «الوطن هو المكان الذي يكون فيه قلبك».

أردت أن أفهم: «ماذا يعني ذلك؟»

أجابت: «إنه المكان الذي تكون ذكرياتك الجميلة فيه، إنه المكان الذي تعلمت فيه ركوب الدراجة وقيادة السيارة، إنه المكان الذي كانت فيه أولى قبلاتي، إنه المكان الذي أذهب إليه لأجتمع بعائلتي، إنه المكان الذي تكون

غالبية مكالماتي الهاتفية إليه. إنه مكان خاص أهتم به أكثر من أي مكان آخر».

«أنا أتيت من بيت مفكك»، هذا ما قالته نزيلة أخرى كانت تجلس غير مستقرة على طرف كرسيها، منحنية إلى الأمام، تسند مرفقيها على ركبتيها، وتضع وجهها بين كفيها. «لا أملك الكثير من الذكريات الجميلة من ذلك المكان، لكنه يبقى بيتي. أظن أنه من الأفضل القول بأن الوطن هو المكان الذي تكون فيه ذكرياتك، سواء كانت جميلة أم لا». توقفت لحظة ثم قالت: «لكنني الآن أتساءل ما إذا كان ذلك صحيحًا أم لا. فنحن لدينا ذكريات لأمور كثيرة أخرى غير الوطن».

«أنا أفكر في الذكريات نفسها على أنها شكل من أشكال الوطن»، قال ذلك الرجل الذي يجلس بجانبها. «فلاديمير نابوكوف يقول إن الذكرى هي ملكية العقار الوحيدة. ربما كان يقصد أنه بالإمكان أن يتم سلب كل ما تملك، ولكن لا أحد يمكنه أن يأخذ منك ذكرياتك».

قال مشارك آخر: «أختي الكبرى أصيبت بداء الزهايمر، وهكذا فقدت كل ذكرياتها، وفقدت حتى شخصيتها». كل الموجودين التزموا الصمت، فأكمل قائلاً: «أظن أننا نبتعد كثيرًا عن الموضوع عندما نتكلم عن الأماكن غير المادية على اعتبار أنها أوطان. على سبيل المثال، أختي تسكن في دار رعاية للمسنين، وفي أغلب وقتها لا تدري أين هي، لكن ذلك المكان يبقى بيتًا لها».

حينها سألت: «إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن كل الأماكن التي عشنا فيها في وقت ما في حياتنا هي على نحو ما أوطان؟»

أجابت طبيبة الأطفال وهي تهز رأسها: «لا، أنا ولدت وترعرعت في ألمانيا. هي بلدي الأم. لكنني لا أعتبرها وطنًا بالنسبة لي بأي شكل من الأشكال». ذلك لأنها وعائلتها اضطروا لمغادرة ألمانيا ليهربوا من ملاحقة

النازيين لليهود. ومن هناك انتقلت للعيش بإيطاليا. «ألمانيا لم ولن تكون وطنًا لي بأي معنى تحمله الكلمة».

قالت لها إحدى المشاركات: «ولكن جذورك ألمانية».

أجابت بحزم: «لكنها ليست وطني»، ثم توقفت عن الكلام.

قلت: «حتى وإن بدا أن لكل فرد منا فكرة مختلفة عن معنى الوطن وأين هي أوطاننا، هل هناك خيط مشترك لمفهوم الوطن نشترك فيه جميعًا؟»

قالت المرأة التي تجلس إلى جانبي في لحظة الصمت السريعة: «يبدو أن الوطن هو مكان، مكان خاص، يقطنه كلٌ منا بشكل من الأشكال. كثيرون منا يرون أن هذا المكان جميل ومريح، ولكن البعض الآخر يرونه فظيعًا ومزعجًا. ولكن على كل حال، يبقى هو الوطن».

«أعتقد أنك محقة»، قال ذلك رجل خافت الصوت، كان صامتًا طوال الوقت ولم يتكلم إلا في هذه اللحظة. تابع قائلاً: «كلما نشبت حرب قرب وطننا، انتقلنا للعيش في مكان آخر. عندما كنت طفلاً، انتقلت عائلتي من روسيا إلى كندا هربًا من الثورة البلشفية. بعد ذلك انتقلنا إلى جزيرة هاواي الأمريكية، ومنها انتقلنا إلى أراضي الولايات المتحدة الأمريكية عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية. أنا أعلم أن وجهة نظري قد لا تناسب البقية هنا، لكن وطني لم يكن مكانًا قط. وطني هو عائلتي. وطني هو الأشخاص الذي أحبهم».

«في عائلتي، لا يوجد أحد غيري»، قالها بصوت هادئ رجلٌ منحني الظهر، ثم شد قبضته على عكازه الأسود بين رجليه، وتابع: «لقد نشأت في دار للأيتام، ولم تكن تلك تجربة جميلة، ولا أعدّ تلك الدار بيتًا ولا وطنًا. منذ غادرت دار الأيتام عشت دائمًا لوحدي واعتمدت على نفسي في كل شيء، إلى أن جاء هذا اليوم الذي لا أملك فيه خيارًا غير قبول المساعدة من طاقم المركز

هنا. ولكن مثلما قالت تلك المرأة في بداية الحديث، هذا ليس بيتي، هذا ليس وطني». ثم ضرب على صدره وقال: «وطني هو أنا».

خيّم هدوءٌ ملحوظٌ بعد تلك الكلمات، إلى أن تكلم الرجل قبل الأخير من جديد وقال: «لأن هذا النقاش يدعى مقهى سقراط، فأنا كنت أفكر طوال الوقت بسقراط نفسه. أظن أن الوطن بالنسبة لسقراط هو أثينا كلها. ولذا عندما تمت مقاضاته في المحكمة، وإعطاؤه الخيار لأن يتم نفيه من أثينا بدلاً من إعدامه، رفض ذلك. لأن خروجه من أثينا كان سيجعله مشردًا، بلا وطن. وهو فضّل الموت على أن يكون رجلاً بلا وطن».

نظر إلى طبيبة الأطفال وقال: «ألمانيا هي المكان الذي تعود إليه أصولك، الوطن هو المكان الذي يكون فيه أحبابك».

جعلني ذلك أقول: «المرة الوحيدة التي ذهبت فيها مع والدتي إلى مخيم التنقيب عن الفحم في ولاية فيرجينيا الغربية حيث ولدت هي، قلت لها: هذا هو وطنك إذًا. أجابت: هنا جذوري، ولكن أنت وطني».

سألتني طبيبة الأطفال المتقاعدة: «هل كانت والدتك تجعلك تشعر أن طرح الأسئلة شيء مقبول دومًا؟ هل جعلتك تشعر أن طرحك للأسئلة وطن لك؟»

أجبتها: «بكل تأكيد».

طلبت مني أن أخبرها المزيد عن والدتي وعن موطنها الأصلي، فقلت: «ما زال مخيم التنقيب عن الفحم حيث ولدتْ وترعرعت موجودًا، إلا أنه أصبح مكانًا مهجورًا الآن. ومنذ تلك الزيارة الأولى لي إلى هناك مع أمي، فأنا أزور المكان كلما أمكنني ذلك. أحاول تخيل كيف تمكنت أمي في تلك البيئة القمعية من تخيل أن هناك أية عوالم أخرى أو أي فرص مختلفة متاحة لها. بطريقة ما، ومن دون أي تشجيع من الآخرين، تكوّن عند والدتي شغف

للكلمات المكتوبة. كانت تتسلل إلى المكتبة الصغيرة التي بناها قائد منجم الفحم في أي وقت تتاح لها الفرصة، وتقرأ كل كتاب تصل يدها إليه. ومن خلال القراءة، بدأت أمي باستكشاف العالم الذي يقع خلف الجبال من حولها، وبدأت تستكشف الكون من خلال عقلها. لا أظن أني قد قابلت مفكرًا نقديًا أكثر موهبة من أمي».

أكملت: «حتى عندما كنت طفلاً، بدلاً من إعطائي الجواب، كانت أمي تدفعني لأن أكوّن أفكاري ووجهات نظري بنفسي، لأكتشف الطريقة الخاصة بي، والحقائق التي أؤمن بها، عبر استنارتي بنفسي. كنت كالمحقق العنيد الذي يمطرها بسؤال بعد سؤال. لكنها لم تجبني قط بقولها: لا يوجد سبب، الأمر كذلك وكفى. لم تكن تتضجر قط من أسئلتي التي لا تنتهي. بل في واقع الأمر، أعتقد أنها كانت تستمتع بكل سؤال أطرحه. سواء كنت أسأل: لماذا السماء زرقاء؟ أو لماذا نطرح الأسئلة؟ كانت إجابتها على الدوام تبدأ بقولها: ما هو برأيك سبب زرقة السماء؟ لماذا هناك سماء؟ لماذا الأسئلة؟ ومن تلك البداية، نبدأ حوارنا. لقد دفعتني لأن أكتشف الإجابات التي تخصني».

قالت ميلدريد: «يبدو أن والدتك عامل مهم في أنك تعمل ما تعمله الآن».

أجبتها: «من دون أدنى شك. كلما فكرت في الأمر، تبين لي أن تأسيس شيء مثل مقهى سقراط هو شيء حتمي، لا يحتاج إلا لبعض الوقت حتى يحدث».

قالت ميلدريد: «أنت مثل سقراط، تشعر أنك في وطنك حينما تتفلسف مع أشخاص يريدون التفلسف معك، في كل مكان وزمان». ثم تبسمت وقالت: «ألا تظن أن مقهى سقراط هو وطنك؟»

في الطريق نحو الوطن

هل المكان الذي أكون فيه، بكل ما يحمل ذلك من نيات وغايات، هو ما يجعلني من أنا؟ هل يجب أن أحمل وطني معي؟ هل يفترض أن يكون وطني المنهج الذي أسير عليه بين ثنايا هذا العالم؟ هل عالمي ونظرتي نحو العالم شيء واحد؟ ماذا لو قلت إني حيثما أكون، أكون أنا؟ هل سيبدو ذلك غريبًا؟ هل تتوافق «أين أنا» مع «من أنا»؟

في بعض الأحيان أشعر تجاه وطني كما كان مارك توين يشعر تجاه بيته في مدينة هارتفورد بولاية كونيكتيكت، حيث كتب: «كان لبيتنا قلب، وروح، وأعين يرى بها معنا، وكان له استحسان وتعاطف ومواساة، كان واحدًا منّا، كان سر سكينتنا، وكنّا نعيش في رحمته وطمأنينة بركاته». في أحيان أخرى، شعوري تجاه الوطن يكون مثل شعور الكاتب جيم مورغن عندما كتب في كتابه (لو كان لهذه الجدران آذانًا: سيرة ذاتية لمنزل): «قصة أمريكا كانت دومًا قصة البحث عن المنزل. إنها رحلة متعبة، لا نصل فيها أبدًا إلى غايتنا».





حر في النهاية

في مقهى سقراط بمدينة سان فرانسيسكو، والذي تمت إقامته في اليوم الوطني للسكرتارية، كنت أنتظر سماع أسئلة الحاضرين، فلاحظت امرأة صامتة لكنها تبدو متضايقة بعض الشيء. بدت كشخص يتحرق لطرح سؤال لكنه يخشى من ذكره، فكانت ترفع يدها قليلاً ثم تنزلها بسرعة كلما نظرت إليها.

سألتها: «هل لديك سؤال؟»

أجابت بـ «لا» في نفس الوقت الذي كان رأسها يعترض على الجواب، بالإيماء إلى الأعلى والأسفل.

فقلت لها: «أظن أن لديك سؤالاً».

فأجابت: «نعم أظن أن لدي سؤالاً. ولكن لا أدري إن كان سؤالاً مناسبًا للنقاش الفلسفي».

فقلت لها: «أراهنك أنه يصلح لذلك».

تلك الجملة أوفت بالغرض، حيث بدأت بالإفصاح عما في جعبتها وقالت: «كيف لشخص ذكي وحسّاس أن يكون عالقًا في وظيفة تافهة؟» كان واضحًا أن طرح ذلك السؤال تنفيسٌ لها. تبين فيما بعد أن هذه الضيفة الجديدة تعمل سكرتيرة لمستثمر بنكي.

أكملت كلامها بعد ذلك قائلة: «أعمل في مكتب صغير لا يطل على أي

نافذة، في وظيفة ذات راتب جيد، لكن من دون أن يكون لها أي مستقبل مهني. أريد أكثر من ذلك في حياتي المهنية، ولكن ها أنا ذا، عالقة في مكاني».

«أليس التعلق من طبيعة الإنسان؟» قالها بصوت عميق رجل نحيل داكن البشرة، ذو شعر خشن يصل إلى كتفيه. «أنا عالق في هذا الجسم. أنا عالق في العقل الذي لدي. أنا عالق في هذا الكون. أنا عالق في التنفس إن أردت أن أبقى على قيد الحياة. لذا فأنا عالق من جميع النواحي».

«يبدو أنه يجب أن نبدأ باستكشاف فلسفاتنا حول التعلق» قلت ذلك وأنا أتذكر أن من أكثر الأسئلة إثارةً للحيرة على مر تاريخ الفلسفة هو سؤال ما إذا كنّا أحرارًا في فعل ما نريد، أم أن أفعالنا محددة بعوامل وظروف خارجة عن إرادتنا. إحدى أكثر وجهات النظر إثارة للاهتمام هي تلك التي تبناها الفيلسوف الهولندي الأصل باروخ سبينوزا، حيث كان يقول إن الإنسان ليس مقيدًا بالقوى الخارجية، ولكنه «محتوم» بقوى وظروف تأتي من طبيعة ذلك الإنسان. سبينوزا شعر أن ذلك في الواقع كان نوعًا من الحرية، أسماها حرية «تقرير المصير». ما كان يقصده بذلك هو أن تركيبتنا الجسمانية والعقلية تتكاتف مع نشأتنا الماضية وعلاقتنا الحاضرة بالعالم من حولنا لتحدد السبيل الذي نسير عليه في حياتنا. بسبب هذه الآراء، تم طرده في عام ١٦٥٦ من المجتمع اليهودي على أنه مهرطق.

عادت المرأة ذات العمل البغيض لتتحدث وقالت: «أظن أن هناك من يعلق بشكل جيد، وهناك من يعلق بشكل سيء، وأنا أشعر أني عالقة بشكل سيء. ووظيفتي هي السبب في ذلك. لو أنني أحببت وظيفتي لما مانعت من أسباب التعلق الأخرى - سواء كان ذلك تنفسي، جسدي، عقلي، الكون، وما إلى ذلك».

بقي ذلك الرجل واقفًا عند مدخل المقهى لبعض من الوقت، كأنه لم يقرر

إن كان يريد المشاركة أم لا، جاء الآن ليشاركنا النقاش. أخبرنا أنه يعمل لحسابه الخاص في مجال تصميم الجرافيك مقابل أجور زهيدة من خلال العمل مع من أسماهم «المجموعات غير الربحية المسؤولة اجتماعيًا» ثم قال: «بعد الاستماع لما قاله هذين الاثنين، حتى لو كان لديك وظيفة تحبها، فأنت ما زلت تعتبر «عالقًا» على نحو ما، لأنك ما زلت مسجونًا بين جدران الوظيفة وساعات العمل. حتى لو كنت تحب عملك، لكنك حصلت على كل رغباتك في الحياة، فلا أظن أنك ستعمل بتاتًا. ولكن لا يمكنك أن تبقى بلا عمل، إلا إن كنت شديد الثراء ربما، مع أنه حتى شديدي الثراء يحتاجون إلى العمل ولو لبعض الوقت ليبقوا أثرياء. لذا فأنت عالق، ومحاصر، في سجن على نحو ما، حتى لو كان سجنًا تحبه».

كان يجلس بجانبي رجل بدين، يتنفس بشكل مسموع حتى أنه كان يصرف انتباهي عن النقاش في بعض اللحظات. طلب قنينة النبيذ الثانية، وقال: «الحياة وظيفة».

فأعدت ما قال: «الحياة وظيفة»، ثم تابعت: «أظن أنك تعني أن الحياة نفسها، ضمن الأمور الأخرى، تتطلب شيئًا من العمل للعيش فيها، والذي يجعلها في ذلك مثل الوظيفة. ولكن حتى لو أخذنا ذلك كقول مأثور، فإن الحياة في أحسن حالاتها ليست مجرد وظيفة، أليس كذلك؟ أو على الأقل، أليست هناك أنواعًا مختلفة من الوظائف، ومن الممكن تصنيفها على طيفٍ واسعٍ ما بين المريعة والرائعة، والكثير من الأشياء بينهما، بناءً على طبيعة العمل الذي تتطلبه كل وظيفة؟ في أفضل حال، ألا يمكن أن تكون الوظيفة نوعًا من التعبير عن الذات، يتطلب منّا العمل بشكل بعيدٍ كل البعد عن الملل، ويؤدي بنا في نهاية المطاف إلى الشعور بالرضا؟ ألا يمكن أن تكون الوظيفة الصحيحة تعلّقًا يساعدنا في واقع الأمر على أن نكون أكثر حرية؟».

«مورّث البديهيات» لم يجب، بل تظاهر بأنه منشغل بسكب كأس آخر من النبيذ. بدا كأنه أراد طرح مقولته المأثورة دون أي رغبة في الاستماع إلى انتقادها أو التعليق عليها.

توجهت بعد ذلك إلى السكرتيرة وقلت لها: «ربما تكون الوظيفة التي علقت فيها حافزًا لك للبحث عن وظيفة أخرى. كان إيميرسن يقول إن الإنسان يصبح مرتاح البال عندما يضع كل اهتمامه في عمله ويؤدي أفضل أداء ممكن. أظن أنه من الأكثر منطقية القول إن الشخص يجب أن يضع كل اهتمامه ليكتشف نوع العمل الذي يلهمه ليقدم كل ما لديه. وفي الواقع يحتاج بعض الأحيان ذلك إلى طرق ملتوية للوصول إليه. في حالتي أنا، لو أنني لم أعلق في وظائف أصنفها ما بين السيئة، والأقل سوءًا، إلى المرضية بعض الشيء لكن غير جيدة بما فيه الكفاية، لما وصلت في نهاية المطاف إلى ما أقوم بعمله الآن، والذي أعتبره الوظيفة المثالية لي. كل تلك الأعمال أجبرتني على العمل جاهدًا لأكتشف ما أريد أن أكون على نحو تام».

حينها تحدث مصمم الجرافيك وقال: «أفضل نتيجة وصلت إليها هي أن أجرب البحث عن شيء أحب عمله كثيرًا لدرجة أنني لا أمانع عمله من دون مقابل. أنا أعلم أن أول شيء يتبادر إلى الأذهان عندما يقول أحد شيئًا مثل ذلك هو: ذلك كلام جميل على الورق، ولكنه ليس شيئًا عمليًا يمكن تطبيقه. غير صحيح! نعم هو كلام يمكن تطبيقه. لأنه إذا لم يمكنك الوصول إلى الوظيفة التي تروي شغفك، التي تجعلك متشوقًا للاستيقاظ في الصباح، لتقدم كل ما تملك لذلك العمل، فما الذي سيبقى لديك؟»

قال مشارك آخر: «يبدو أن قيمة وجود الشخص تقلّ على نحو ما إذا لم يجازف بتحمل مخاطر محسوبة، وعمل ما يريد أن يعمله في حياتك المهنية.

أعرف كثيرين يجنون الكثير من الأموال في وظائفهم، لكن أرواحهم ميتة. إنهم مثل الأموات الأحياء. لذا فإن المال ليس هو الجواب إذا كنت تريد معرفة العمل الذي لا تمانع أن تكون عالقًا فيه».

لاحظت أن المرأة التي طرحت السؤال في بداية الجلسة كانت تكتب بهمّة، كأنها تدوّن كل كلمة قالها مصمم الجرافيك. ثم توقفت فجأة، وضغطت على قلمها بشدة، ونظرت إلينا وقالت: «قرأت مؤخرًا كتاب (الوضع البشري) للفيلسوفة حنة آرنت، ومنذ ذلك الحين يلاحقني أمر قرأته في ذلك الكتاب. لا أدري إن كنت أنقل الكلام نصًا هنا. قالت: «إن تكليف البشر الفانين وعظمتهم تكمن في قدرتهم على إنتاج أشياء – من أشغال وأعمال وكلمات – تستحق أن تبقى إلى الخلود». أظن أنني أحاول اكتشاف العمل الذي أريد أن أؤديه، والعمل الذي يمكنني عمله، الذي يستحق أن يخلّد. أعني أنني أؤمن أن كل شخصٍ منّا لديه قدرات فريدة يمكنها أن تظهر في عملنا وشغف حياتنا. أو على الأقل ذلك ما أختار أن أؤمن به. ولأنني أؤمن بهذا الأمر، أتضايق كثيرًا، وهذا ما يحدث معظم الوقت، عندما أشعر أنني لا أضع كل طاقاتي تجاه شيءٍ يضع بصمتي على العالم، وسيبقى على نحو ما خالدًا إلى الأبد».

بقيت صامتة بعد ذلك للحظات، ثم قالت وهي تضع القلم والمفكرة في حقيبتها: «أتعلمون؟ أنا الآن مشاركة نشطة في مسرح مجتمعي لما يقارب عقدًا من الزمان. وقد طلب مؤسس المجموعة مني عدة مرات أن أعمل معهم بدوام كامل. عرض علي أقل من نصف الراتب الذي أستلمه حاليًا، وسيكون علي العمل لساعات أكثر مقارنة بوظيفتي الحالية. ولكنه سيكون عمل أستمتع بها حقًا، بل سيكون عملاً أشبه باللعب، عملاً بالنسبة لي غير محدود بزمن، حيث إنني أؤمن أن المسرح الجيد له القدرة على أن يساعدنا

على رؤية العالم ورؤية أنفسنا بنحو مختلف. لكنني لم أفكر في عرضه جديًا من قبل. ليس لأنني خائفة... وليس لأنني مترددة في أن أعيش حياة متقشفة. ولكن أظن أن السبب هو أنني لم أنظر إلى المشاركة في المسرح على أنها عمل. كان لدي دائمًا هذا التعصب الذي يقودني للاعتقاد أنه إذا لم ينتهِ بي المطاف إلى نيويورك لأصبح ممثلة مشهورة، نجمة، فيجب علي ألا أحاول جني المال من هذا العمل. لطالما كنت أنظر إلى عملي في المسرح المجتمعي على أنه هواية، لأنني أقنعت نفسي أنه من غير اللائق أن أستقر في مكان وضيع من عالم التمثيل على اعتبار أنه عمل». ضربت على جبهتها بيدها وقالت بصوت عالٍ: «يا له من تعصب سيء!» قالت تلك الجملة بصوت مدوٍ أفزعت به عددًا من المشاركين وأخرجتهم من أحلام اليقظة التي كانوا يجولون بها. «إن المسرح المجتمعي هو عشقي وشغفي. وليس لدي أي رغبة في أن أنتقل للعيش إلى نيويورك لأصبح ممثلة مشهورة. أريد أن يكون عملي في هذه الحياة مشاركتي في المسرح المجتمعي».

حينها فاجأتني بالوقوف لتعلن لنا: «لقد قررت أن أفعل ذلك!». ظننت أنها ستخرج من الغرفة متجهة مباشرة إلى رئيسها في البنك الاستثماري لتخبره أنها ستستقيل، ثم ستذهب من هناك مباشرة إلى مجموعة المسرح المجتمعي. ولكنها انتبهت إلى أن الساعة كانت تشير إلى العاشرة مساءً، فالوقت كان متأخرًا للبدء بتلك الخطوات. وبينما كانت واقفة أدارت نظرها نحونا، متسائلة إن كان يجب عليها أن تشعر بالحرج من أمر ما. عادت للجلوس من جديد، رتبت بيدها طيات ثوبها، ثم قامت بتقليد صوت سكارليت أوهارا وقالت: «على كل حال، غدًا يوم جديد!»

***

أخي، هل يمكن أن أستعير منك زنزانة؟

أين أنا عالق؟

هل هذه طريقة أخرى لطرح سؤال: إن كانت سجوني موجودة، فما هي؟

ماذا لو كنتَ في سجن لا تريد الهروب منه؟

جان بول سارتر، الفيلسوف الوجودي المعروف، والروائي والكاتب المسرحي والناقد الاجتماعي، أكّد في كتابه (الوجود والعدم) على أننا «محكوم علينا بالحرية». كان سارتر يعتقد أن الإنسانية مقدر لها حرية لا حدود لها. وبما أنه شهد مآسي الحرب العالمية الثانية (حيث إن سارتر نفسه كان أسيرًا لفترة قصيرة لدى الألمان)، كان بلا شك يعرف العوائق الكثيرة التي تواجه حرية الإنسان، ولكنه كان يعتقد أننا بصفتنا كائنات واعية أحرار دومًا في محاولة تغيير ظروفنا. وكان من ضمن ما كتب أننا «نُرمى» في عالم لا قوانين له ولا تنظيم، إلا ما نشاء أن نعطيه إياه.

هناك أشخاص «يريدون أن يكونوا جبارين منيعين، ولا يبحثون عن شيء سوى ما وجدوه سابقًا». ولكن وفقًا لسارتر، فإن أولئك الذين يملكون الجرأة لتجنب التقاليد والتمسك بحرية الاختيار في بحثهم عن الذات هم أشخاص «صادقون»، وأولئك الذين يتماشون مع الأدوار التي يمليها عليهم المجتمع ويرتدّون عن حريتهم المطلقة فإنهم يمارسون «سوء الأمانة».

أحد أعز أصدقائي، كان في منتصف الأربعينيات من عمره، وكان يهوى السفر والكتابة والتصوير وتعلم اللغات. كنت أحرضه فأقول له: «لم لا تغتنم الفرصة وتفعل ذلك؟»

فيقول وهو يهز كتفيه: «لا يمكنني ذلك، حياتي انتهت».

أكثر ما يضايقني وهو يقول ذلك هي النظرة التي تعتلي وجهه. إنها ليست نظرة يأس أو خيبة أمل، أو حتى استسلام. إنها نظرة ارتياح. يبدو لي أنه مبتهج وهو يقنع نفسه أنه لا يمكنه أن يتقدم سنتيمتر واحد تجاه تحقيق أحلامه.

هو بكامل صحته، ولديه ما يكفيه من المال، وفي غاية الذكاء. ولكنه نصب سجنًا لنفسه. أحاول أن أحطم جزءًا من ذلك السجن، فأخبره أن الأوان لم يفت على تحقيق أحلامه. فعلى سبيل المثال، أليكس هيلي مؤلف رواية (جذور) لم يحاول أن يكون كاتبًا محترفًا حتى وصل إلى منتصف عمره، عندما تقاعد من خفر السواحل. ينظر صاحبي إليّ من دون أي تعابير. أظن أنه يعلم ما أحاول إيصاله إليه، ولكنه لا يريد لأي من ذلك أن يتسرب إلى عقله. لقد شيّد سدًا غير مرئي من حوله. يفضل أن يبقى مع كلمته المعسولة: «حياتي انتهت». أحاول أن أمد له بطاقة «خروج من السجن» ولكن لا يريد أن يأخذها. فهو يفضّل أن يبقى في سجنه المريح، والذي تم صنعه خصيصًا له.

وأما في الزنزانة المجاورة، فيجلس صديق آخر من أصدقائي، محامٍ في ولاية فيرجينيا الغربية. إنه محامٍ بارع، حتى أن اسمه صار معروفًا حيث يعمل وهو ما زال في مقتبل العمر. لكن الأمر الذي اعترف لي به في عدة مرات هو أنه يكره المحاماة، ويريد أن يستقيل من تلك المهنة التي يحتقرها، ليصبح بروفيسورًا في علم الأنثروبولوجيا (علم الأجناس البشرية). ما زال

صغيرًا، وأعزب، ولا تثقله أي ديون مالية. سألته: «وما الذي يوقفك؟»

«أنا محبوس»، أجاب بأسى وهو يدير عصا التحريك في كأس شرابه. «بعد سنتين، سيتم تثبيتي في الشركة كمحامي شريك».

قلت له: «ولكنك لا تريد أن تكون محاميًا، لماذا تقضي سنتين أخريين في شركة المحاماة حتى يتم تثبيتك؟ حينها ستكون محبوسًا بشكل أكبر مما أنت عليه الآن».

ظل يتأملني. احتسى جرعة من شرابه، ثم وضع الكأس جانبًا. صار ينظر إلى مكان ما وراء ظهري. شفتاه تتحركان كأنه يتحدث مع نفسه. في النهاية نظر إلي وقال: «هل تعتقد أنني مجنون؟»

صرت أنظر إليه بتساؤل.

«سأكون مجنونًا لو أنني خرجت من مهنتي في هذا الوقت، لأبدأ حياتي كلها من جديد». قال ذلك وعيناه الغاضبتان تدمعان.

كان جزء من عمله القانوني تمثيل المدينة في مقاضاة المجرمين، وكان معدل نجاحه في إدانتهم مرتفعًا بشكل استثنائي. كان ماهرًا جدًا لدرجة أنه تمكن من الحكم على نفسه بالعيش في حياة يحتقرها، دون إمكانية الإفراج المشروط.

هل يمكن لعواطفك أن تكون سجونًا؟

الكثير من الفلاسفة المعاصرين يعتقدون أن من الشائع أن تكون العواطف ضد العقل، وأنها تعرقل قدرة الإنسان على أن يكون موضوعيًا. لكن سورن كيركغارد كان رأيه مغايرًا، حيث إنه يرى أن أكثر المعرفة عمقًا وبصيرةً هي ثمرة فيض عاطفي عارم ومتقد.

ولكن بعض العواطف يمكن أن تكون موهنة ومعيقة. والتر كوفمن كان يقول إنه يمكن أن تعيش في قبضة السخط، أو الغيرة، أو الحقد، أو الحزن، وأنه إلى هذا اليوم فإن كثيرين يرون أنه يكاد يكون من المستحيل تخطي تلك العواطف. يقول كوفمن: «لكن الفلاسفة أدركوا منذ وقت طويل أن هذا الرأي السائد غير صحيح. وسقراط، والرواقيون والأبيقوريون، وسبينوزا جميعهم من ضمن أولئك الذين حاولوا تعليم الإنسانية كيف تحرر نفسها من هذا الاستعباد» من خلال فهم الذات، الذي قال عنه كوفمن إنه «رقي الذات... إنه يغير حياة الشخص». ولكنني أظن أن هناك الكثير من الأنماط لفهم الذات، ولكن ليست جميعها أنماط تحرر الإنسان وتقوده إلى تغييرات إيجابية في حياته. قد تفهم لم أنت مضطهد، أو لمَ لديك مخاوف تصيبك بالشلل، أو لم تقوم بالمماطلة بصفة اعتيادية، ولكن إذا لم تعلم كيف تقوم بتحسين ظروفك، فإن فهم الذات الذي اكتسبته قد يقودك إلى الشعور بالمزيد من الاستعباد والإحساس بعجز أكبر بسبب الخوف والقمع.

من باب الإنصاف لكوفمن، فأنا أظن أن فهم الذات الذي يتحدث عنه هو النوع الذي يؤدي إلى التحرير. تأمل في طريقة السؤال التي تبناها من أجل التغلب على هذه العواطف المنهكة مثل الاستياء أو السخط، والتي تعد من أشد السجون ضيقًا:

يمكن للفرد أن يسأل في البداية: هل أنا متحرر من الاستياء؟ وإن لم أكن متحررًا منه، فما الذي أنا مستاء منه؟ ما هو بالتحديد؟ وهل هو عقلاني أن أستاء من هذا الأمر ولا أستاء من ذلك؟ حينئذٍ لا تكترث لما تعتقده عن نفسك حول قدرتك على نسيان الأمر أم لا. فقط اسأل نفسك إن كنت ستكون أفضل حالاً إن تمكنت من النسيان أم لا، وهل تريد نفسك أن تكون أفضل حالاً أم لا. فكر في البدائل، باستخدام مخيلتك. لن تحتاج لمحللٍ ليقوم بذلك؛ يمكنك أن تقوم به بنفسك حتى وإن لم يكن ذلك سهلاً. الأصعب

من ذلك بالطبع هو عندما تحاول التخلص من الاستياء... ولكن حتى ذلك من الممكن تحقيقه، حتى وإن احتاج لبعض الوقت.

طريقة كوفمن في طرح الأسئلة لا تتركك معلقًا بعد إجابة سؤال «من أنا؟» ولكنها تتطلب منك أن «تفكر في بدائل، باستخدام مخيلتك» وبعد ذلك تلتزم بتغيير تلك الجوانب التي تعيقك من أن تكون ذلك الشخص الذي تطمح أن تكون.

ريتشارد تارناس كتب أن سقراط، من خلال أقواله وأفعاله، «جسّد القناعة الثابتة التي تؤكد بأن نقد الذات العقلاني يمكن أن يحرر العقل البشري من استعباد الآراء الخاطئة». الطريقة التي استخدمها سقراط ليحرر عقله متاحة لأي فرد، في أي وقت، وأي مكان.

ربما تريد أن تسأل نفسك في بعض الأحيان: ما هي سجوني؟ هل بعض سجوني جيدة؟ بل ربما ضرورية؟ وسجون أخرى قابضة ومنهكة؟ هل هناك طرق لتحصين السجون الجيدة في نفس الوقت الذي أتخلص فيه من السيئة؟

أي نوع من الأماكن يعتبر سجنًا – مثل السجون الفيدرالية؟

إيمانويل كانط كان يؤيد بشكل قوي نظام السجون ومعاقبة المجرمين. على سبيل المثال، يقول كانط إن العقل يفرض أن اللصوص يجب أن يحكم عليهم بالعمل الإجباري في السجن: «الشخص الذي يسرق يجعل أموال الناس غير آمنة، لذا هو في الواقع يحرم نفسه... من أمان كل الأملاك المتاحة؛ فليس لديه أي شيء، ولا يمكنه امتلاك أي شيء، ولكنه يريد أن يعيش، وذلك لن يتحقق إلا إذا أطعمه الآخرون. ولكن طالما أن الدولة لن تقوم بذلك من دون مقابل، فإن عليه أن يضع قدراته تحت تصرف الدولة، لأي عمل تراه مناسبًا...»

بعد ما يقارب القرن، يؤكد الفيلسوف والمؤرخ والناقد الاجتماعي الفرنسي ميشيل فوكو في كتابه (التهذيب والعقاب: ولادة السجن) أن الخدمة الوحيدة التي تقدمها السجون هي أنها تقوي وتصقل المجرم المحترف.

اعترض فوكو على الرأي السائد الذي كان يقول إن ظهور نظام السجون كان تطورًا إنسانيًا تقدميًا، بل أنه على العكس كان علامة على تصاعد التحكم الاجتماعي والسياسي. فوكو كان يقول إن الغرض من السجون الحديثة، أو ما تسمى بالإصلاحيات، مشابه للملاجئ أو المصحات العقلية - وبالتحديد فصل الأفراد «غير الطبيعيين» أو «المنحرفين» عن أولئك الذي يُدعون طبيعيين في المجتمع بصفة عامة. أكّد فوكو كذلك على أن المجتمع الحديث، حيث صار الالتزام بالأنظمة الصارمة فضيلة أصيلة، كان هو ذاته يتحول شيئًا فشيئًا إلى أن يكون مثل السجن. يسأل فوكو: «هل من المستغرب أن... المصانع، والمدارس، والثكنات العسكرية، والمستشفيات... كلها تشبه السجون؟»

على النقيض من كانط، فوكو درس على نحو شامل أوضاع السجون الفعلية وقارن ذلك مع وجهات النظر التي افترضها حول المجتمع، وعندئذٍ فقط وصل إلى استنتاجاته العقلية حول كلٍ من السجون والمجتمعات. وعلى الرغم من ذلك، ومع أني والكثيرين غيري نرى أن آراءه مقنعة جدًا، إلا أنها في النهاية لن تكون الكلمة الأخيرة في الموضوع، مثلها مثل آراء كانط. حتى وإن كانت استنتاجات فوكو صحيحة في كثير من الحالات أو ربما في أغلبها، فإني لا أظن أنها صحيحة كليًا. أعتقد أن هناك الكثير من الاستثناءات الفردية التي أظهرت أن السجون من الممكن أن تكون في واقع الأمر، إلى جانب أمور كثيرة، سببًا في الحرية.

يقال إن الفيلسوف النمساوي الأصل لودفيغ فيتغنشتاين استغل الوقت

الذي قضاه في سجن إيطالي خلال الحرب العالمية الأولى ليطور أفكاره حول المنطق والرياضيات، وليكمل كتابه (رسالة منطقية فلسفية) والذي كان الكتاب الوحيد الذي نشر في حياته، وكان سببًا في تحفيز ثورة في الفلسفة. هذا المرجع البارز الذي أكّد على أهمية دراسة اللغة كان سببًا في أن يكون مؤلفه واحدًا من أكثر فلاسفة القرن تأثيرًا، كما أدّى إلى نشوء عدة فروع مهمة في الفلسفة: الوضعانية المنطقية، التي تطبق مبادئ المنطق والرياضيات والعلم التجريبي على كل مجالات الفكر تقريبًا؛ والتحليل اللغوي، الذي يهدف إلى دراسة وتفسير الاستخدامات العديدة للّغة؛ وعلم دلالات الألفاظ، الذي يدرس معاني الكلمات وعلاقة الرموز بالأشياء التي تدل عليها.

هناك وفرة من القصص لأشخاص استفادوا من وقتهم خلف القضبان ليحرروا عقولهم، ليهربوا من القيود الذهنية، وبالتالي عند الإفراج عنهم تمكنوا من الهروب من البيئة القاسية التي يعيشون بها.

فعلى سبيل المثال، دخل المدافع الأمريكي عن حقوق الإنسان مالكوم إكس السجن، حيث اعتنق الإسلام، وتحول بعد الإفراج عنه إلى شخصٍ مختلفٍ تمامًا - بل ربما يصدق القول بأنه في نواحٍ عديدة خرج شخصًا جديدًا. من خلال القراءة الغزيرة للكثير من الكتب في السجن، تمكن من تطوير مهارات لا تضاهى في التفكير التحليلي والإبداعي.

في سيرته الذاتية، ذكر مالكوم إكس أنه قرأ عددًا كبيرًا من كتب الفلسفة حتى استنتج أن «جزءًا كبيرًا من الفلسفة الغربية اُستلهمت من فلاسفة الشرق. سقراط على سبيل المثال سافر إلى مصر... ومن الواضح أنه اكتسب بعضًا من حكمته من حكماء الشرق». بكل ما تعنيه الكلمة، فإن مالكوم إكس تجاوز ذاته السابقة وأصبح كما أرى ويرى آخرون غيري نموذجًا للشخص المستقل الذي نجح في سد الفجوات العرقية والثقافية. لقد كان

مثالاً على الإنسان الذي تمكن من تحرير ذاته من الاستياء المبرر، والذي يعد من أشد السجون قساوة وضيقًا، ليحقق طموحاته. ما حققه يصبح أكثر إثارةً للإعجاب عند تأمل حقيقة أنه منذ أن جاء إلى هذا العالم واجه ظروفًا قمعية شديدة، وتمت تنشأته في وسط مجتمع أنتج عدم المساواة وأجّج العداوات العرقية. وبمجرد أن تعلم من القراءة عن حياة أولئك الذين حققوا تغيرات ذاتية هائلة، أصبح مالكوم إكس منارة لكل من يعتقد أن بإمكانه تغيير العالم من خلال تغيير ذاته. قلائل هم من تمكنوا من تحرير أنفسهم بشكل كامل من الاستياء، أحد أشد السجون تقييدًا، مثل ما فعل مالكوم إكس.

في سنوات لاحقة، كان يقول: «لطالما تأملت في الآفاق الجديدة التي فتحتها لي القراءة. أنا أعلم أن القراءة في السجن غيرت حياتي إلى الأبد. ما أراه الآن هو أن القراءة أيقظت في داخلي رغبة خامدة لأن أكون حي الذهن». بالطبع، هو لم يتمكن من معرفة كل شيء، ولم يتمكن من تعلم كل شيء، قبل أن يتم اغتياله، ولكنه كان على الدوام متقبلاً للفرص الجديدة لكي يتعلم ويفكر ويتساءل بأساليب جديدة، ومثل قلائل من الأشخاص، وضع على عاتقه المهمة الصعبة - والمبهجة - التي لا نهاية لها، ألا وهي تحرير ذاته.

إن مالكوم إكس يمكن أن يكون إلهامًا لنا للهروب من سلسلة غير منتهية من زنزانات سجون الحياة.

***

كان وقت العصر، والمطر يهطل بغزارة، عندما وصلت إلى سجن في شمال كاليفورنيا ذي حراسة أمنية متوسطة. يقع ذلك المبنى القديم ذو الطوب الأصفر الذي يخلو من أي زخارف جمالية في أحد الأودية الضيقة على أطراف مدينة مزدحمة. مررت بعدد من نقاط التفتيش حتى وصلت في النهاية إلى غرفة كبيرة تشبه القاعة الرياضية حيث من المقرر أن أدير مقهى سقراط فيها. مسؤولة السجن التي رتبت لزيارتي كانت موجودة لاستقبالي، وأخبرتني فيما سبق أن حوالي عشرين نزيلاً سيشاركون معنا، وذلك بدا عددًا مثاليًا للنقاش، ولكنها الآن تخبرني أن بانتظاري ستين نزيلاً للبدء بمقهى سقراط. حينها كان من الصعب تهدئة القلق الذي بدأ يدور في داخلي. هل سيمكنني أن أدير حوارًا مجديًا مع هذا العدد الكبير؟ هل أعود أدراجي وأهرب؟ لقد أخذ الأمر شهورًا للحصول على تصريح إقامة مقهى سقراط مع السجناء، وتطلب كتابة العديد من الرسائل وإجراء الكثير من الاتصالات الهاتفية، ثم اللقاء مع مسؤولي السجن، لنتمكن في النهاية من تحديد موعد يناسب الجميع. لا يمكنني الرحيل الآن.

لكنني أتساءل إن كان هذا الجهد كله سيضيع دون أي جدوى. أحد أصدقائي كان قد أقام حلقات نقاشية حول «ديناميكية المجموعات» مع عدد من السجناء، أخبرني أنهم – من خلال تجربته – لن يفصحوا عن أي أمر خاص بهم، خشية أن يفقدوا اعتبارهم ومكانتهم بين بقية السجناء. «لن

يدخلوا معك في أي نقاش يشبه ما تناقشه في جلساتك»، هذا كان استنتاجه المتشائم.

حين دخلت إلى غرفة اللقاء، اقترب مني سجين ضخم الجثة ذو وجه قاسٍ مهموم، وسألني: «كيف يبدو الطقس في الخارج؟»

فقلت له: «سيء للغاية».

«حتى وإن كان كذلك، فإني أفضل أن أكون هناك على البقاء هنا»، قالها وابتسم على نحو ما.

ثم قال: «اسمي وولف (الذئب)»، وصافح يدي، ثم قال: «هل سمعت من قبل بمقولة الإنسان مثل الذئب للإنسان؟»

أخبرته أني سمعت المقولة من قبل. فقال: «لا أعتقد أنها صحيحة، تلك المقولة تعطي سمعة سيئة للذئاب. إذا ألحق الإنسان الأذى بأخيه الإنسان، فلا يفترض أن نشبههم بالذئاب، فالذئاب حيوانات نبيلة، على خلاف الإنسان».

بعد ذلك عرّف رجل طويل أسمر ذو لحية مشذبة بعناية ونظرة ثاقبة بنفسه. كان اسمه جون، وكان من الواضح أنه يريد أن يسألني شيئًا وإن كاد الخجل والتردد يمنعانه. في النهاية قال: «أرجو ألا يبدو كلامي غبيًا، ولكن كنت أتساءل...» ثم توقف من جديد، وكأنه يفكر في أفضل طريقة ليقول ما يريد قوله. ثم سأل: «أليست الفلسفة في حقيقة الأمر هي دراسة اللماذا؟»

أجبته: «يبدو ذلك تعريفًا رائعًا للفلسفة».

كان بقية النزلاء الذين يرتدون سراويل وقمصان برتقالية فضفاضة شبيهة بالبيجاما يجلسون على كراسي معدنية إلى جانب عدد من المقاعد المستطيلة الكبيرة. جميع المقاعد والكراسي مثبتة في الأرض، كإجراء احترازي

لمنع المساجين من رميها على بعضهم، كما يتواجد عدد من الحراس المسلحين على محيط تلك الغرفة ذات السقف العالي الخالية من أي نافذة.

كان غالبية النزلاء يحتسون القهوة، وعدد منهم كانوا يضعون رؤوسهم على الطاولة ويبدون نائمين، ولكن واضح أن غالبية الحضور ينتابهم شيء من الفضول لمعرفة ما سيبدأ بعد قليل. أفكر في تلك اللحظات كيف يمكنني أن أحذر من تحول هذا النقاش إلى أن يكون عقيمًا، وكيف يمكن له أن يعزز مطلبي لتمكين نفسي والآخرين، أيًا كانوا وفي أي مكان يكونون، لنسعى إلى سقراط. تم التعريف بي على أنني «مدرس فلسفة»، فأسرعت بتصحيح ذلك بقولي: «أنا فيلسوف، وأدير نقاشات فلسفية، ولكنني لا أعتبر نفسي مدرسًا بالمعنى التقليدي للكلمة. في كل جلسة من جلسات مقهى سقراط، يكون توقعي أني سأتعلم من المشاركين أكثر مما سيتعلمونه هم مني».

بعد ذلك تحدثت قليلاً حول شعوري بأني عشت جزءًا من سنوات شبابي في فقر فكري وعاطفي على نحو ما. أخبرتهم كيف أنني تأثرت في منعطفات مهمة في حياتي بكلمات سقراط «الحياة التي لا تفحص لا تستحق العيش»، وكيف أن عهدي الجديد مع سقراط أيقظ وأحيا إحساسي بإمكانيات «تطبيق» طريقة سقراط الفلسفية في التحقيق التي مارسها في حياتي وربما في حياة الآخرين. كان واضحًا أنني لم أعرف متى يفترض بي أن أتوقف عن الكلام، ولا أدري لم كنت أقول ما أقول. لحسن الحظ، رفع أحد النزلاء يده ليقاطعني. لقد كان وولف. سأل: «ماذا تعني الفلسفة؟»

أجبت: «الكلمة الأصلية في اللغة اليونانية الهيلينية للفلسفة، فيلوسوفيا تترجم إلى محبة الحكمة».

فسأل: «ما هي الحكمة؟»

فأجبت: «ماذا تعني بالنسبة لك؟»

فأجاب شخص آخر قائلاً: «أظن أنه لا يمكنك إجابة هذا السؤال إلا بإجابة سؤال: من هو الشخص الحكيم؟»

فسألت: «إذًا، من هو الشخص الحكيم؟»

بقي صامتًا لبعض الوقت، ثم قال في نهاية الأمر: «أعتقد أن الشخص الحكيم هو الشخص الذي يملك القدرة النادرة على أن يطبق بشكل فعال ما تعلمه من الحياة والناس. هو شخص يصعب تضليله، وهو ذاته لا يضلل الآخرين».

شخص آخر قال: «الشخص الحكيم يعلم كيف يطبق معرفته من خلال خبراته، وهو شخص يشارك الآخرين ما يعرف».

نزيل آخر بتعابير صارمة قال: «الشخص الحكيم هو الذي يعرف أي نوع من المعرفة عليه أن يشاركه مع الآخرين، وأي نوع يجب ألا يشاركه. على سبيل المثال، الشخص الذي يعرف كيف يحتال على جهاز الصرف الآلي لن يقوم بتمرير تلك المعرفة إلى أشخاص آخرين لأن ذلك من المعرفة السيئة».

كان السجين الذي كان يجلس عن يساري يهز رأسه على وفاق مع كل شيء تم قوله حتى الآن. تحدث في تلك اللحظة وقال: «لم أفكر في الأمر هكذا من قبل. كنت دومًا أظن أن الشخص الحكيم يشارك الآخرين كل ما يعلم. ولكنني الآن أعتقد أنه ليس من الحكمة مشاركة الآخرين كل المعرفة».

ثم قال: «هل تعتقدون أن هناك شيء يمكن القول عنه أنه حكمة سيئة مقابل حكمة صالحة؟»

تدخل وولف مقاطعًا: «لا توجد إلا حكمة صالحة. الحكمة السيئة ليست إلا تناقض في المفردات».

قال رجل بدت عليه الثقافة بطريقة متغطرسة: «أتفق أن الحكمة لا يمكن أن تكون إلا صالحة. في حوار (القوانين) لأفلاطون تعد الحكمة واحدة من الفضائل الأربعة، إلى جانب العفة، والشجاعة، والعدالة. ولكن في حوار (الجمهورية) فإن الحكمة تعتبر الفضيلة الحاكمة لأنها تستوعب البقية. أرسطو، في المقابل، فرّق بين الحكمة الفلسفية والحكمة العملية، حيث كتب أن الحكمة العملية تهتم «بالأمور الإنسانية والأشياء التي يمكن أن تتداول»، لكنه قال إن الفلاسفة قبل سقراط من أمثال طاليس وأناكساغوراس لم يكن عندهم إلا الحكمة الفلسفية، لأنهم كانوا «يجهلون أين تكمن مصلحتهم» وكانوا فقط «يعرفون الأمور الرائعة، والمثيرة للإعجاب، والصعبة، والمقدسة... لكنها عديمة النفع». ثم ذكر الرجل الخمسيني، ذو النظارات السميكة، واللحية التي اختلط فيها السواد مع البياض، من دون أن يسأله أحد أنه يقضي عقوبة خمس عشرة سنة لاختلاس ما يزيد عن مئة ألف دولار من الجامعة الخاصة التي كان يعمل بها إداريًا. وقبل ذلك بمدة طويلة كان قد حصل على درجتي البكالوريوس والماجستير في الفلسفة من إحدى أرقى الجامعات الأمريكية.

لم يتكلم أحد بعد ذلك، حتى بدأت أنا بالكلام: «بمناسبة الحديث عن أرسطو، فإنه قد كان من أوائل الفلاسفة الذين قالوا بأن «الإنسان يولد وهو يمتلك أسلحة يمكن استخدامها في الحكمة والفضيلة، في نفس الوقت الذي يمكنه استخدامها فيما هو ضد لذلك».

ثم تابعت: «ألا يمكن للحكماء أن يفعلوا أشياء غير حكيمة؟ ألا يمكن أن نكون حكماء في بعض الأمور، وحمقى كليًا في أمور أخرى؟»

«أظن أني مثال حي لذلك»، أجاب الإداري الذي كان يعمل بالجامعة الخاصة.

قال جون: «الحكمة شيء تسعى إليه لكنك لا تصل إليه أبدًا»، ثم تدارك كلماته على عجل «لا، ليس الأمر كذلك. أقصد أنه بإمكانك الوصول إلى الحكمة، لكن لا يمكنك أبدًا الوصول إلى الحكمة المطلقة. أكثر الناس حكمةً يعلمون أنهم لا يمكن أن يكونوا أكثر حكمةً. ولكن مع ذلك، فإنهم لا يتوقفون عن السعي لأن يكونوا أكثر حكمة كل يوم. كما يحاولون تحقيق توازن بين المنطق السليم والمعرفة والفهم. وفي نفس الوقت يتقاسمون ما تعلموه مع الآخرين من دون مقابل - عندما يشعروا أن ذلك سيكون نافعًا».

«لا أظن أن المعرفة يفترض أن يتم تداولها دون مقابل، حتى وإن كان ذلك نافعًا»، قال الرجل الذي يجلس إلى جانبه. «بعض الأحيان تحتاج لأن تدفع مقابلاً لتتعلم. تحضر فصولاً دراسية، تشتري كتبًا وأشرطة، لتكسب المعرفة، وتصبح حكيمًا».

«سقراط لم يكن يأخذ مقابلاً لتعليم الناس»، قال وولف. «لقد فضّل سقراط أن يبقى فقيرًا على أن يستفيد ماديًا من أسلوبه في الحكمة».

«ولكن ذلك لا يتعارض مع كلامي»، أصر الرجل. «أنا أرى أن التعلم عمل شاق، يجب عليك أن تدفع لتستحقه - ربما لا يكون الدفع بالمال، ولكن بالجهد الذي تقدمه وتبذله لتتعلم أي شيء».

سألت حينها: «ما هي أفضل طريقة، أو أفضل الطرق، للتعلم برأيكم؟»

فقال جون: «أحدهم كان يقول إن الملك سليمان كان يتحدث بالحكايات الرمزية. كان يكتب لكي نتعلم من القصة إذا أردنا، لكنه لم يكن يجبر أحدًا على حشو المعلومات في أدمغتهم. هذه كانت حكمة سليمان. لهذا أحب القصص الرمزية، لأنها تحترم ذكاء القارئ. تجعلك تشعر وكأنك تعلمت شيئًا بنفسك، وهي تعلمنا أنه من النادر أن يكون هناك جوابًا نهائيًا واحدًا لأي سؤال كبير مهم».

بعد ذلك تحدث موظف الكلية السابق وقال: «أظن أن لهذا السبب سورين كيركغارد استخدم القصص الرمزية - لأن المعنى الذي تستوعبه يكون خاصًا بك، وتكون تلك الحقيقة التي تدركها أكثر جدوى بالنسبة لك».

في نهاية الأمر سألت: «كيف يصبح الناس حكماء؟»

«أعرف عددًا من الأشخاص الذين يبدون أكثر حكمة من أعمارهم»، قال رجل نحيل ولكنه يبدو شخصًا رياضيًا. «ولكنني أظن أن الشخص بشكل عام يصبح حكيمًا بالتعلم من سنوات الخبرات المتراكمة».

قال رجل آخر: «أظن أن كل الناس حكماء».

سألته: «هل يتعلم كل الناس من تجاربهم؟»

فقال: «لا».

«هل تعتقد أن الحكماء يتعلمون عادةً من تجاربهم؟»

«نعم».

«إذًا كيف يكون كل الناس حكماء؟»

«أظن أن كل الناس يولدون حكماء، ولكن إذا اخترنا ألا نتعلم من تجاربنا فإننا نصبح أقل حكمة. أنا كنت أعلم أنه يجب ألا أستخدم المخدرات. كنت أعلم أنه يفترض بي ألا أسرق لأحصل على المال لأشتري تلك المخدرات. فقد تم القبض علي سابقًا، وتم إدخالي إلى السجن قبل هذه المرة. ولكن ها أنا ذا أفعل ذلك مرة أخرى. لذا يبدو أني أصبح أقل حكمة مع تقدمي في العمر».

قال نزيل آخر: «أتفق معه. إن الأمر أشبه بشخص لمس مقلاة بها ماء حار

فحرق إصبعه، فلم يفعل ذلك مرة أخرى أبدًا. لكن شخص آخر يلمس تلك المقلاة، مرة بعد مرة، دون أن يتعلم ذلك الدرس».

تحدث بعد ذلك سجين يبدو أصغر عمرًا من البقية، ذو ملامح خشنة، وشعر مصبوغ بخطوط سوداء وصفراء: «لقد دخلت إلى عدد من برامج علاج الإدمان، ودخلت السجن عدة مرات، وما زلت أعمل الأخطاء نفسها مرة بعد مرة. ولكن هذه المرة أعتقد أنني تعلمت الدرس أخيرًا. لأنني هذه المرة مستعد للتعلم، ومستعد لسماع ما يحاول الآخرون تعليمي إياه. هذه المرة وصلت الفكرة إلى عقلي، بينما في المرات السابقة لم يكن الأمر سوى كلمات وهراء يدخل من أذن ليخرج من الأخرى».

كان رجل نحيف آخر ذو هالات داكنة تحت عينيه الخضراوين، يمرر يده في شعره القصير، ثم قال: «الآن وقد تخلصت من إدمان العقاقير الممنوعة، أرى أن كوني استخدمتها في وقت ما في حياتي يعطيني ميزة على الآخرين. لأنني أعرف ماذا تعني تجربة هذه العقاقير، فإن لدي خبرة لا يملكها كثيرون، وهذا يجعلني أكثر حكمة. أتمنى ألا أعيد هذه التجربة، ولكن من الجيد أنني خضتها. من الجيد تجربة الأشياء السيئة من أجل أن تكون لديك تلك الخبرة».

«أختلف معك من كل قلبي»، قال ذلك الرجل الذي تحدث عن دخوله المتكرر إلى مراكز معالجة الإدمان والسجون. «لا أظن أن تجربة الإدمان على العقاقير تجربة جيدة. كنت أتمنى لو أني لم أجرب تلك العقاقير قط في حياتي. تمنيت لو أني استمعت إلى أولئك الذين حذروني حتى من تجربتها. أظن أننا لو اعتبرنا فلسفة «تجربة الأمور السيئة مرة واحدة» على أنها فكرة جيدة، فإن كل فرد تقريبًا في المجتمع سيكون إما في السجن أو ميتًا».

حينها قال النزيل الذي أثار هذا التعليق «أفهم ما تقول يا صاحبي.

ولكنني أظن بالفعل أنه بسبب تجربتي مع الإدمان، وتمكني من التغلب على تلك المرحلة، فإنني سأكون مرشدًا لمتعاطي المخدرات أكثر تأثيرًا عندما أخرج من السجن مقارنة بما كنت سأكون لو لم أكن مدمنًا من قبل».

«ولكن ماذا لو لم تتمكن من التغلب على الإدمان؟» قال السجين الآخر. «ماذا لو انتهى الأمر بك بالموت بسبب جرعة مفرطة؟ والتغلب على هذه الممارسات السيئة ليس أمرًا مستطاعًا في كل الحالات. وماذا لو أن الشيء السيء الذي جربته لم يضرك أنت فحسب، بل كان سببًا في ضرر آخرين غيرك؟ ماذا لو كان الشيء السيء الذي جربته هو القتل؟»

تبسم السجين النحيل وقال لزميله الذي يحقق معه: «لقد غلبتني في هذه».

مرة أخرى، يحطّ هدوء مريح بيننا نفكر جميعًا فيما سمعناه حتى تلك اللحظة.

ثم سألت: «من هم الأشخاص الذين تعتبرونهم حكماء؟ قد يساعدنا ذلك على أن نكتشف ما هي المعايير التي تحدد الحكمة».

«غاندي ومارتن لوثر كينج جونيور كانوا حكماء»، أجاب رجل على أحد خديه ندبة هلالية، كانت إلى حد ما تبرز وسامته. «لقد مارسوا اللاعنف ودعوا إليه في الوقت الذي كانوا يسعون فيه إلى تحقيق التغيير الاجتماعي. لقد ضحوا بحياتهم ليكونوا للآخرين نماذج تبين أنك في بعض الأوقات قد تحتاج إلى أن تكون مستعدًا حتى للموت لكي تكون سببًا في حرية الآخرين».

قال رجل مكسيكي إن بانشو فيّا كان حكيمًا. «بالرغم من أنه كان أقل رجالاً وسلاحًا، إلا أن فيّا تمكن من التغلب على جيش الجرينجو»[1].

---

١ - واحد من أبرز القادة الثوريين المكسيكيين. المترجم

سأله أحدهم: «هل يعني ذلك أنه كان حكيمًا، أم يعني فقط أنه فاق عدوه دهاءً وحيلةً؟»

فأجاب: «أظن أنك عندما تكون ذكيًا بما فيه الكفاية لتتغلب على عدو قوي يريد أن يحطم شعبك فإن ذلك يتطلب شيئًا يمكن أن أسميه حكمة الدهاء».

قال سجين بدا مستغرقًا في التفكير: «سيغموند فرويد كان حكيمًا. لقد تعلمت من كتبه أكثر من أي شخص آخر حول جذور مشاكلي الشخصية. خذ على سبيل المثال كتابه (تفسير الأحلام)، حيث يناقش سلوك هاملت. يقول فرويد إن كل الإجابات لسؤال لماذا نحن كما نحن «قادرة على التفسير ولا ينقصها شيء للفهم التام». وهذه نظرة ثاقبة. فرويد يعني أنه لا يوجد جواب واحد يشير إلى تفسير لماذا نحن على ما نحن عليه، بل هنالك تفسيرات عديدة، بعضها يمكن أن يتعارض مع البعض الآخر، ولكنها جميعًا تلقي الضوء على ذواتنا. لا يعني ذلك أن كل تفسير يعتبر منطقيًا أو كاشفًا، ولكنه يعني أننا نحتاج إلى محاولة فهم أنفسنا من مختلف وجهات النظر».

قال نزيل يبدو في عمر التاسعة عشرة بصوت خافت: «جدي كان حكيمًا. لو أنني أصغيت إلى كلامه لما كنت في السجن الآن».

قال آخر: «لا أظن أننا يجب أن نتحدث عن الأشخاص الحكماء فقط. يجب أيضًا أن نتحدث عن الأماكن الحكيمة. وادي الجراند كانيون هو مكان حكيم. في كل مرة أزور فيها ذلك المكان، وفي وسط تلك العزلة، يصبح بإمكاني التفكير في أفكار حكيمة. تلك الأفكار تأتي من ذلك المكان الحكيم».

سأله أحدهم: «ماذا تعني بالأفكار الحكيمة؟»

«أعني الأفكار التي تجعلني في حالة من الطمأنينة. الأفكار التي تجعلني

أدرك أنني شخص ناقص ومعيب، ولكن يمكنني دومًا السعي إلى أن أعمل ما هو أفضل، لأن أكون أفضل، وأن من مسؤوليتي أن أفعل الأفضل وأكون أفضل. الأفكار التي تجعلني أدرك أنه لا مشكلة في التحليق خارج السرب بما يوحي به قلبي. لو أنني أخذت تلك الأفكار معي من الجراند كانيون وطبقتها وأنا أعيش في المدينة، لما كنت هنا الآن».

قال آخر: «أظن أن أمنا الطبيعة ذاتها مكان حكيم. لقد بقيت على قيد الحياة لبلايين السنين مع أننا نحاول كل ما في وسعنا لتدميرها. وستبقى هي إلى أمد بعيد بعد أن نمضي نحن».

سأله أحدهم: «ألا يجب أن يكون الشيء واعيًا ليكون حكيمًا؟»

فأجاب: «لا أدري ما رأيك، ولكن بالنسبة لي فأنا أعتقد أن هذه الأرض واعية». وفي الواقع لم يكن وحيدًا في رأيه هذا. ففي عام ١٩٧٩، وضع الدكتور جيمس لوفلوك الكيميائي البريطاني فرضية غايا، والتي أكد من خلالها أن الأرض يجب أن ينظر لها بشكل كلي على أنها «نظام حيوي ذاتي التنظيم». بالنسبة للدكتور لوفلوك فإن «كامل سلسلة الكائنات الحية على كوكب الأرض، من الحيتان وحتى الفيروسات، ومن أشجار السنديان وحتى الطحالب، يمكن اعتبارها على أنها تشكل كيانًا حيًا واحدًا... موهوب بملكات وقوى تفوق بكثير ما تملكه مكوناته منفردةً». إذا كان ذلك صحيحًا، وحيث إن البشر كائنات واعية، والبشر ليسوا إلا من مكونات الأرض، فعليه فإن الأرض نفسها واعية.

قلت حينها: «لنرجع إلى الحديث عن الحكمة وارتباطها بالناس. هل تعتقدون أن الشخص الحكيم يقول عن نفسه أنه حكيم؟»

أجاب شاب مهندم وأنيق قائلاً: «أليس سقراط من قال: إن أكثر الناس

حكمة يعلمون أنهم ليسوا حكماء للغاية؟» كان ذلك الرجل قد أبقى رأسه مطأطأً للأسفل طوال تلك الجلسة، حتى ظننت أنه كان نائمًا.

سألته: «هل يمكنك أن تخبرنا أكثر عن ذلك؟»

«في كتاب (محاكمة سقراط) قال أفلاطون إن مهمة سقراط كانت البحث عن الأشخاص الذين كان أهالي المدينة يظنون أنهم أكثر الناس حكمة على الإطلاق. كان يريد أن يعرف إن كان أولئك حقًا يعيشون بما تمليه معتقداتهم عليهم. وفي كل مرة كان يصل إلى نفس النتيجة: أولئك الرجال لم يكونوا حكماء. في الواقع كانوا حمقى للغاية». ضحك عدد كبير من الحضور، لكن الرجل بقي جادًا في تعابيره.

ثم قال: «انتظروا لحظة». ثم أخرج نسخة قديمة ورفيعة من كتاب أفلاطون (محاكمة سقراط) ذات غلاف ورقي كان قد خبأها في جيبه الخلفي. وبينما كان يقلب صفحات ذلك الكتاب بحثًا عن الصفحة المطلوبة، كان يقول: «في (محاكمة سقراط) يخبرنا سقراط كيف أنه اختبر واستجوب شخصًا كان في أعين كبار شخصيات أثينا أحكم الحكماء، وقد كان الرجل يلعب الدور جادًا».

وجد حينها الصفحة التي كان يبحث عنها، تنحنح ثم قال: «سقراط يقول هنا: على الرغم من أن الرجل بدا للكثيرين - وبدا لنفسه قبلهم - أنه حكيم، إلا أنني قررت أنه في واقع الأمر ليس حكيمًا. لقد حاولت أن أوضح له أنه كان يظن أنه حكيم، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، ونتيجة لذلك أصبحت عدوًا له، وعدوًا لكثيرٍ من الحاضرين [في تلك المحاكمة]. بالنسبة لي، استغرقت بالتفكير بعد أن تركت الرجل وقلت لنفسي: هذا الرجل أقل حكمةً مني. على الأرجح أن لا أحد منّا يعلم أي شيء يستحق المعرفة؛ ولكن الرجل يعتقد أنه يعلم وهو لا يعلم، بينما أنا لا أعلم، ولكنني على الأقل

أعلم أنني لا أعلم. فمن الواضح إذًا أنني أكثر حكمة منه في هذه الجزئية الصغيرة، وهي أنني في حال لم أعرف شيئًا ما، فأنا لا أعتقد أنني أعرفه وأنا أجهله. ومن ذلك الرجل ذهبت إلى رجل آخر؛ شخص كان يبدو أنه أكثر حكمة من الشخص الأول. وصلت إلى نفس الاستنتاج، وأصبحت عدوًا له، وآخرين معه».

رفع الشاب رأسه ونظر إلينا قائلاً: «سقراط بيّن أن معرفة أولئك الملقبين بالحكماء لم تكن إلا بيتًا من ورق».

حينها قال جون: «ولكن على خلاف أولئك الناس الذين حاربهم سقراط، فإن الأشخاص الذين تكلمنا عنهم اليوم كانوا حكماء جدًا. ولو سألهم أحد إن كانوا حكماء أم لا، وأجابوا بأنهم ليسوا حكماء، فإنهم يكذبون».

«أظن أن ما يقوله سقراط هو أن الأشخاص الحكماء لديهم تواضع تجاه حكمتهم أكثر من أغلب الناس»، أجاب الرجل الذي يقرأ من كتب محاكم سقراط. فيما بعد علمت أن هذا الرجل كان يقضي عقوبة السجن لمدة طويلة لارتكابه جريمة سرقة كبرى؛ وهذه هي المرة الرابعة التي يتم القبض عليه ويتم الحكم بإدانته في جريمة جنائية.

ثم أكمل حديثه: «سقراط كان يعتقد أن الأشخاص الحكماء يعلمون أن ما يعلمونه قد لا يكون الحقيقة على الدوام، ولكن القضاة وممثلي الادعاء رأوا أن هذه المعتقدات نوع من التجديف. أتعلمون؟ لقد كانت كذلك. كانت تجديفًا جيدًا. ولكنهم لم يريدوا أن يتعاملوا مع ذلك، لذا قرروا إعدامه».

وبينما هو يقلب صفحات كتابه دون انتباه، قال: «أتعلمون أيضًا؟ لو لم يصدروا ذلك الحكم الشرير والأخرق بالإعدام على سقراط، فإني أراهن أن حكمته وشجاعته الأخلاقية لم تكن ستبرز بهذا الوضوح. أراهن أنها لم تكن لتبقى صامدة إلى هذا اليوم، ولم تكن ستصبح مصدر إلهام منذ ذلك الوقت».

نعم، بالتأكيد، كان ذلك النقاش في سجن. كنت أحس بمشاعر التقييد المملة والقمعية التي تحيط بنا. ولكنني كنت أشعر أن قاطني ذلك المكان كانوا ينضحون بحكمة غير عادية وغزيرة. هؤلاء الرجال شاركونا النقاش بأمانة استكشافية ثاقبة. ومع أني أعلم أن ما أفكر فيه الآن قد لا يكون حقيقة على الدوام، إلا أنه قد خطر في ذهني حينها أنهم - على نواحٍ عديدة - أحرار. بلا شك هم أكثر حرية من الكثيرين الذي أتفلسف معهم فيما نسميه العالم الخارجي، الذين يبدون كأنهم يعيشون في سجون ذهنية صارمة صنعوها بأنفسهم. حتى السجن يمكن أن يكون مكانًا حكيمًا، مكانًا يمكن أن يصل فيه تفكير الشخص إلى ما وراء الحدود المعتادة.

يقول إيميرسن: «كل فكرة هي سجن أيضًا... لذلك نحن نحب الشاعر، المبتكر، الذي بأي شكل من الأشكال سواء في قصيدة، أو في فعل، أو في مظهره وسلوكه، يمنحنا أفكارًا جديدة. إنه يفك قيودنا ويأخذنا إلى عالم آخر».

هؤلاء السجناء أدخلوني عالمًا جديدًا. وبالتالي أصبحت - بلا شك - أكثر حرية.

***

الفصل الثالث

إلى من تحتاج؟

«فهم الحاجات الإنسانية هو نصف العمل لتلبيتها»

أدلاي ستيفنس

أصدقاء



«من هو الصديق؟»

شعر الأربعون من مرتادي مقهى سقراط في مقهى كولاج أنهم متحمسون لسؤال هذه الليلة. اتضح لي أنني بطريقة ما أعدّ أغلب الأشخاص هنا أصدقائي. وفي الحقيقة لا أتصور الدخول في نقاش سقراطي من دونهم. أحتاج إليهم. ولكنني في نفس الوقت لا أعرف حتى أسماءهم كاملة، ولا أعرف أي شيء عن حياتهم الخاصة سوى الشذرات التي يذكرونها في بعض الأوقات خلال حواراتنا الفلسفية.

تبين لي أيضًا أن السؤال الذي اخترناه اليوم للنقاش هو السؤال المحوري في حوار أفلاطون (ليسيس)، حيث يسأل سقراط: بأي طريقة يصبح الشخص صديقًا؟ حتى بعد استكشاف السؤال بعمق، فإن سقراط يقول في نهاية الحوار أنه فشل مع عصبة المثرثرين التي كانت معه في الوصول إلى جواب لسؤال: «ما هو الصديق؟» من يدري، ربما يكون لنا حظًا أوفر هذه الليلة مما كان لسقراط.

قالت شارون هيز: «أظن أن عليك أن تحدد ما هي الصفات الممكنة للصديق». عندما جاءت شارون إلى مقهى سقراط لأول مرة قبل تسعة أشهر، لم تكن تلك الزيارة عن قصد. كانت يومها مع زوجها الموسيقي ريتشارد يحتسيان القهوة في مقهى كولاج ٢. كانت قد استقالت مؤخرًا من عملها في وكالة السفريات وكانا يحاولان معرفة ما يمكن أن تعمله. في تلك الليلة، سمعتنا نناقش سؤال «ما هي البديهة؟» فانضمت إلينا. لقد

استقالت من عملها بناءً على حدسها، ومقهى سقراط أعطاها مساحة غير متوقعة، ولكن مرحب بها، لتتمكن من فهم لماذا اتخذت قرار الاستقالة المجنون بشكل اندفاعي دون تفكير - ولتستنتج في النهاية أنه لم يكن قرارًا مجنونًا على أي حال. من ذلك اليوم، أصبحت شارون مدمنة على مقهى سقراط.

أكملت بعد ذلك حديثها عن سؤال الصديق قائلة: «بالنسبة لي، الاحترام المتبادل والتعاطف والقدرة على التسامح هي أهم الصفات».

سألتها: «لماذا؟»

فقالت: «لا أشعر بالراحة في التعبير عن رأيي بالصديق بأكثر مما قلته للتو». ثم لفت ذراعها حول زوجها. «هذا هو أعز أصدقائي، ولديه كل الصفات التي ذكرتها». فاحمرت وجنتا ريتشارد لما قالت.

«أنا أدخل كل صداقة بمقدار غير محدود من الحب»، قال مايك ديهات. ذلك الرجل المفكر الذي يبدو صغيرًا في عمره، ظل مواظبًا على الحضور إلى مقهى سقراط منذ عدة أسابيع، ولكنني ما زلت لا أعرف عنه شيئًا، سوى أن أفكاره تميل دومًا إلى أن تكون متبصرة بشكل غير اعتيادي، وصرت لا أتخيل مقهى سقراط من دون مشاركته. أكمل بعد ذلك قائلاً: «ليس لدي أي تطلعات أتوقعها من أيِ صديقٍ من أصدقائي».

سأله رون: «هل ذلك ممكن فعلاً؟». رون طالب دراسات عليا في علم الاجتماع، لطيف وذكي ذو عينين عسليتين باسمتين وشعر أشقر طويل، ولقد حضر كل جلسات مقهى سقراط تقريبًا، في كل أسبوع، منذ أن بدأنا المقهى في هذا المكان. هو شخص يقرأ كثيرًا، بشكل متعمق، وعلى نطاق واسع، وكثيرًا ما يظهر لنا تشابهات خفية بين موضوعات مختلفة تمامًا. أنا ورء ن تحولنا من مجرد كوننا شركاء متواطئين في الفلسفة - كما هو حال كل

أفراد المقهى - إلى أعز الأصدقاء. إنه الشخص الوحيد الذي شاركته أعمق طموحاتي وأحلامي ومخاوفي، وعرفني في أسوأ حالاتي دون أن يؤثر ذلك في علاقتي به. سأل رون: «هل من الممكن فعلاً أن نكون أصدقاء من دون قيد أو شرط؟ هل من الممكن ألا يكون لدينا أي تطلعات؟»

فأجابه مايك: «أظن ذلك. أنا لا أقول إني أتوقع من أصدقائي أن يحملوا نفس فلسفة الصداقة التي أحملها.»

«لقد كان لدي عدد من الصداقات أحادية الجانب، أو صداقات من طرف واحد»، قال جيم دافيس، بينما كانت تعلوه التعابير الساخرة التي عهدناه بها دومًا. كان جيم يأتي إلى مقهى سقراط منذ عدة أشهر ولكنني لا أعرف عنه أي شيء. إنه قادر على طرح وجهات نظر فلسفية استكشافية دون أن يكشف عن نفسه سوى بعض الأمور العامة جدًا. أكمل جيم قائلاً: «وكان لي أيضًا صداقات مؤقتة.»

سأل آل غريفين، وهو مندوب شركة تأمين متقاعد: «هل يمكن أن تكون صديقًا لأحد دون أن يكون ذلك الشخص صديقًا لك؟» أصبحنا أنا وآل صديقين بعد أن حضر إحدى جلسات مقهى سقراط قبل ستة أشهر تقريبًا. قبل ذلك، لم يكن آل، الرجل الطويل الذي يفرض نفسه بشخصيته التي لا تقبل الفارغ من الكلام وذكائه الحاد، قد قرأ كلمة في الفلسفة إطلاقًا. أما الآن فيبدو أنه يتغذى بالفلسفة، وينام في الفلسفة، ويتنفس الفلسفة. لقد عاد للدراسة بالجامعة، وهو الآن يقترب من الحصول على درجة البكالوريوس في الفلسفة. في كثير من الأيام، كنت أقضي ساعات الظهيرة مع آل، ونحن نتفلسف معًا في أحد المطاعم. وحيثما أدرت مقهى سقراط - سواء كان ذلك في دار لكبار السن، أو في مدرسة، أو في مقاهٍ أخرى - كان آل حاضرًا على الدوام. لقد أصبحنا ثنائيًا لا ينفصل، وبلا شك نبدو «ثنائيًا غريبًا» حين يرانا الناس معًا. فهو متأنق دائمًا بملابس مثالية لا غبار عليها، في حين ألبس أنا

الجينز والتيشيرت والأحذية الجلدية، ولا أحلق لحيتي إلا فيما ندر. أنا وآل لسنا فقط صديقين، بل نحن رفيقان. أكمل آل كلامه مخاطبًا جيم: «لا يمكن أن أتصور أن عقد صداقة من طرف واحد بشكل كامل.»

فأجاب جيم: «يحدث ذلك دائمًا. بإمكانك اختيار أن تكون لك صداقة مع شخص ما دون أن تتطلع لأن يقرر ذلك الشخص أن يكون صديقًا لك. وحتى لو كنت تتطلع إلى ذلك، يمكنك أن تكون صديقًا لشخص حتى لو قرر ألا يكون صديقًا لك».

سأل آل: «وماذا عن الصداقات المؤقتة؟ ألا يفترض أن الصداقات تصمد عبر اختبارات الزمن؟ أليس ذلك أحد أهم سمات الصداقة؟»

فقال جيم: «لا أظن ذلك. أنا أعتقد أنه بالإمكان أن يكون لك صداقة عمرها دقيقة واحدة. عندما تفعل شيئًا لطيفًا لشخص ما - بأن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك - فأنت تكون صديقًا لهم، وأنت في تلك اللحظة تشترك معهم في صداقة. وحتى لو كانت الصداقة مستمرة، فإنها في النهاية مكونة من لحظات، وفي أي لحظة يمكنها أن تنتهي».

«ربما يمكننا أن نبحث في أصل صداقة ما، أصبح فيها شخصان صديقين على الفور»، قالت غيل بيتمان، التي تسبح عيناها الفضوليتان وراء عدسات نظارة طبية ذات إطار أنيق. منذ أن قدمت غيل إلى مقهى سقراط أول مرة قبل ثلاثة أشهر وأدمنت على حضور الجلسات، تقابلت معها صدفة عدة مرات في عدة أماكن - في المطار، وفي محلات بيع الكتب، وفي الحديقة العامة. وفي كل مرة يحدث ذلك، كنّا نستغل اللقاء غير المتوقع لنتعرف على بعضنا البعض أكثر حتى اتفقنا في النهاية على أنه «مكتوب» لنا أن نكون صديقين مقربين. ما زال أمامنا طريق طويل لنصل إلى تلك المرحلة، إلا أننا كنّا في كل مصادفة نفصح شيئًا فشيئًا عن أنفسنا، ونستلطف بعضنا البعض أكثر فأكثر. أكملت قائلة: «ولكن لكي يكتشف شخصان أنهما أصبحا صديقين، فإن

ذلك يتطلب قضاء بعضٍ من الوقت معًا».

فسألت: «ما هو الشيء الذي يكتشفانه من أجل أن يعرفا أنهما قد أصبحا صديقين؟»

«مثل ما قالت شارون في بداية النقاش، يكتشفان أن بينهما احترامًا وتعاطفًا لبعضهما البعض. ويكتشفان أن كلاً منهما يستمتع بصحبة الآخر».

«هل يجب أن يكون الشخصان متشابهين بشكل جوهري من أجل أن يكونا صديقين؟»

أجابت مارتا: «أظن أنه من الممكن أن يكون الأشخاص مختلفين تمامًا وفي نفس الوقت يكونون من أعز الأصدقاء. أنا خجولة جدًا ورقيقة الصوت، لكن أعز أصدقائي منطلق بشكل لا يصدق».

قالت هيلدا وهي تنظر إليّ: «أظن أن ما تريد أن تسأله هو ما إذا كان الشخص الصالح يكون صديقًا فقط لشخص صالح آخر، وما إذا كان الشخص السيء يكون صديقًا فقط لشخص سيء آخر.»

قلت: «هذا ما قصدته إلى حد ما، ولكن ما قلته للتو يجعلني أفكر في مقطع من كتاب (الأخلاق النيقوماخية) لأرسطو حينما قال إن الصداقة المثالية هي تلك التي لا يرى فيها كل فرد منهما الآخر على أنه ذات أخرى فقط، وكأن كل واحد منهما انعكاس للآخر، بل يعتبر كلاً منهما الآخر متساويًا معه في الفضيلة. ولهذا، كان يعتقد أن الشخص الصالح لا يمكن أن يكون صديقًا لشخص سيء.»

قالت مارتا بعد تفكير طويل: «لا أظن أن هناك شخص سيء بالكامل. إلى جانب ذلك، فأنا أظن أن حتى أكثر الأشخاص شقاءً يمكن أن يكون لديه بعض الميول إلى الخير، حتى وإن كانت مخبئة جيدًا. على سبيل المثال، قرأت أن حتى أكثر الأشخاص حقارة في الغالب يكون لديه حيوان أليف

يحبه بشدة وشغف. أظن أن ذلك الحيوان هو صديقه، ربما أعز صديق، وربما الصديق الوحيد. وأظن أن حتى أكثر الناس فضيلة وعفة، لا بد أن يكون لهم هفوة في وقت ما في حياتهم. بالنسبة لي، هذا الوعي بمدى سهولة الانحراف عن الصراط المستقيم يجعلني أشعر بالقرب من أولئك الذين ندعوهم أشخاصًا سيئين».

قالت هيلدا: «أتفق معك». تأتي هيلدا دومًا لوحدها إلى مقهى سقراط، وفي كل المرات التي صادفتها في المدينة، لم تكن يومًا بصحبة أحد. «ولقد قرأت عن الكثير من الأشخاص الذين كانوا أشرارًا من عدة نواحٍ ولكنهم أوفياء بشدة لأصدقائهم. على سبيل المثال، قرأت أن كثيرًا من النازيين الذين أقدموا على أبشع الأعمال الوحشية في معسكرات الاعتقال كانوا من أشد الناس إخلاصًا لعدد من الأفراد، بل ومن الممكن أن يضحوا بحياتهم من أجل أولئك الأصدقاء.»

قلت حينئذٍ: «ولكن كل هذا الكلام يدل على أن الأشخاص لا يكونون أصدقاء إلا مع أناس قريبين منهم في الشخصيات الأخلاقية. الأفراد الذين وصفتهم بالأصدقاء كان لديهم نفس الصفات البشعة تجاه التعامل مع ضحايا معسكرات الاعتقال. وحسب علمي، كانوا أولئك يعتبرون أنفسهم أشخاصًا صالحين. لذا أنا أتساءل ما إذا كان الأشخاص يختارون أن يكونوا أصدقاء فقط مع الذين يشتركون معهم في تشابه الوازع الأخلاقي، أو انعدامه، والأشخاص الذين يملكون مفاهيم تتفق مع تصوراتهم حول الصواب والخطأ، والخير والشر».

«لست متأكدًا أن الأمر هكذا دومًا، ولكنني أظن هذا ما يحصل في أغلب الأحيان»، قال وينستن، الرجل الذي يستحيل أن تخمن عمره، ويحضر كل جلسات مقهى سقراط بانتظام، يجلس في زاوية بعيدة، يضع ساقًا على الأخرى ويحركها بحيوية وهو يتظاهر بأنه - أو ربما كان فعلاً - منهمكًا

في قراءة أي كتاب يصادف أن يكون مفتوحًا أمامه في ذلك المساء. ثم أكمل قائلاً: «ولكنني أظن أن هناك دومًا استثناءات. لقد قرأت مؤخرًا رواية بوليسية بعنوان (موت أحمر) للكاتب والتر موسلي. كان بطل الرواية إيزي رولينز يتحدث عن أعز أصدقائه ريموند على أنه «أصدق صديق» عرفه في حياته. ولكنه في نفس الوقت يقول عن ريموند: «إن كان هناك شر حقيقي، فإنه هو ذلك الشر كذلك». يمكن لصديقه ريموند أن يقتل أي شخص يعتقد أنه أخطأ في حقه دون أن يؤرقه ذلك لدقيقة واحدة. ولكنه يمكنه أيضًا أن يكون صديقًا مخلصًا، وقد أخرج إيزي رولينز من أسوأ المآزق في مرات عديدة».

أغلق كتابه ثم أكمل: «أظن أن ما أريد إيصاله هنا هو أن محاولة تبسيط هذا الأمر أكثر من اللازم قد يكون أمرًا خطيرًا. أظن أن علينا أن نتذكر أن من الممكن أن يكون لدى أغلب الناس تناقضات شديدة في دواخلهم. وربما يحملون بذور الخير والشر في آن واحد، حتى وإن كانوا منضبطين أو أخيارًا إلى الحد الذي يمنعهم من التصرف بما تمليه عليهم دوافعهم الشريرة.»

قالت امرأة اسمها كاثي، جاءت إلى مقهى سقراط لأول مرة الأسبوع الماضي: «لا أتفق معك. أظن أن بعض الأشخاص يكادون يكونوا أخيارًا بالكامل، وبعض الأشخاص أشرارًا بالكامل، وهذا يؤثر في كيفية تكوين الصداقات. لقد كان أخي مدرس لغة إنجليزية للمساجين في أحد السجون شديدة الحراسة، وقد صادق بعض أولئك المساجين. بعضهم من مرتكبي جرائم الاغتصاب، وبعضهم من مرتكبي جرائم القتل. ولكنه كان صديقًا لهم رغم ذلك، لأنه بعد مرور الوقت أصبح قادرًا على اكتشاف الخير فيهم. كما أظن أنهم أصبحوا أشخاصًا أفضل بسبب مصادقته».

أجاب فرانك لوتيربيرغ: «أعتقد أنه استخرج الطيبة التي بداخلهم، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهو قد أصبح صديقًا «للجزء الطيب» من

جوهرهم. لأنه كما قلتِ، ذلك هو الجزء الذي تمكّن من استخراجه منهم. لذا لست واثقًا أن هذا مثال على أن شخصًا جيدًا قد أصبح صديقًا لشخصٍ سيء».

توقف فرانك للحظة ثم أضاف: «ربما نضطر إلى الانتظار حتى موعد مقهى سقراط القادم حتى نناقش هذا الأمر بالتفصيل، ولكنني انتبهت الآن إلى أننا نتحدث عن الأشخاص الأخيار الأشرار، بدلاً من الحديث عن أفعال الخير والشر التي يقدم عليها الناس. لا أظن أن الناس بطبيعتهم أخيار أو أشرار، هم فقط يقدمون على فعل الخير أو الشر.»

قال أحد المشاركين: «أتفق معك، وبالإضافة إلى ذلك ألا يمكن أن يكون الخير لشخص هو شرٌ لشخص آخر؟»

كان سقراط يؤمن في كتاب (الجمهورية) لأفلاطون أن الفرق بين الخير والشر ليس مسألة رأي، بل إن التقصي الدقيق حول طبيعة الخير والشر هو ما يؤدي إلى المعرفة التي تمكن الشخص من فهم الفرق بين الاثنين. كان مما قال: «ليقم كل واحد منّا بالبحث عن شيء واحد فقط، ومن ثم الامتثال به، وهو إدراك الخير والشر والتفريق بينهما». ولكن ميشيل دي مونتين يبدأ إحدى مقالاته بالإفصاح بأن «تذوق الخير والشر يعتمد إلى حد كبير على آرائنا حولها». وكتب باروخ سبينوزا أن مفاهيم الخير والشر «لا تدل على شيء إيجابي في الأمور بحد ذاتها، إنما هي مجرد أنماط للتفكير.... الأمر ذاته يمكن أن يكون في نفس الوقت خيرًا وشرًا، أو محايدًا». كان يرى أن الأمر يعتمد بأكمله على ما إذا كان الشخص يحكم على الشيء أو الفعل على أنه شر.

بعض ناشطي الرفق بالحيوان يرون أن ذبح الحيوان أمر بشع وشرير، ناهيك بأكل اللحوم، وبعضهم يرى الأشخاص الذين يقدمون على ذلك على أنهم أشرار. في المقابل، هناك ناشطون آخرون للرفق بالحيوان ممن

لا يرون ذبح الحيوانات أمرًا بشعًا، إلا إذا تم بطريقة يعتبرونها غير إنسانية. وهناك آخرون لا يرون أي مشكلة في ذبح الحيوانات بأي طريقة كانت إذا كان ذلك لتناول لحومها - اعتمادًا على نوع الحيوان. فبعضهم لا يرون أي مانع من ذبح بقرة لكنهم لا يقبلون بذبح الحصان لأنه حيوان نبيل، وآخرون في المقابل يعدّون قتل البقرة فعلاً شريرًا لأسباب دينية. بعضهم لا يرى بأسًا في أكل قط أو كلب، بل ربما كان ذلك شيئًا تقليديًا. ولكن على خلاف سبينوزا، أعتقد أن هذه الأمثلة تشير إلى أن تحديد ما إذا كان الفعل خيرًا أم شرًا لا يعود فقط إلى آرائنا، بل الأمر نسبي أو مسألة أعراف اجتماعية ثقافية. قراءتي حول الشر في مختلف فروع المعرفة، ومناقشات مقهى سقراط التي تناولت هذا الموضوع، قادتني إلى أن أستنتج أن أغلبنا يحمل وجهات نظر متشابهة إلى حد كبير حول معايير الحكم على فعل ما بأنه شر، وهي أن يكون الفعل خطأً أو إثمًا أخلاقيًا، وأن يكون في الغالب عن قصد، وأنه إما أن يعرّض أحدًا لخطرٍ أو يسبب الضرر لأحد أو شيء. ما نختلف فيه بشدة هو تحديد أي الأفعال تعتبر شريرة. معتقداتنا المتباينة على نطاق واسع هي من تصور لنا أي الأفعال نعتقد أنها خاطئة أو سيئة أخلاقيًا، أو مضرةً عن عمد. لذا فإن السياق الذي نعتقد أن الشر حصل فيه يختلف اختلافًا هائلاً من فرد إلى آخر.

في النهاية قال فرانك: «أتفق معكم في أنه لا يوجد شخص صالح أو خبيث تمامًا. خلال سنوات دراستي الجامعية، كنت متطوعًا في أنشطة تعليم القراءة والكتابة للمراهقين في أحد مراكز احتجاز الأحداث. بعضهم ارتكب جرائم فظيعة. ولكن الشيء الذي اكتشفته بعد قضاء وقت طويل معهم، هو حجم التشابه بيني وبينهم من عدة جوانب. أفكر فيما قاله نيتشه: «نظرت إلى الهاوية فرأيت نفسي». كنت أرى نفسي في أولئك الأشخاص، بل ويمكنني أن أرى أن لدي القدرة على ارتكاب الجرائم التي ارتكبوها». ابتسم ثم أتبع: «وهذا يجرّني إلى اقتباس آخر: «لو لا عناية الله، لكنت هناك».

لقد كان مما يدعو للتواضع إدراك كم أنا قريب إلى طبيعة أولئك المراهقين الذين عملت معهم. لقد جعلني ذلك أكثر تعاطفًا، ويمكنني القول أن عددًا منهم أصبحوا لي أصدقاء ومقربين مثلما أصبحت أنا لهم.»

«أريد أن أعلق على فكرة أن يكون الصديق مقربًا وكاتمًا للأسرار»، قالت ذلك جاسمين ذات الثمانية عشر عامًا، والتي ستتخرج من الثانوية بعد أشهر قليلة، وهي «ستطير من السعادة» كما قالت لي قبل أن نبدأ المقهى، لأنه قد تم قبولها في جامعة برينستن حيث تخطط للتخصص في الفلسفة. «قبل عدة سنوات، أسرّت أعز صديقة في العالم كله لي أن زوج والدتها كان يعتدي عليها جنسيًا منذ أن كان عمرها ست سنوات. قبل أن تخبرني ذلك، طلبت مني أن أعدها ألا أخبر أحدًا بالسر الذي ستقوله لي. ووعدتها ألا أفعل. واحتفظت بالسر لعدة أسابيع، ولكن في كل مرة تذكرت فيها كيف كانت تعاني، شعرت أني أخونها بعدم فعلي لأي شيء يمكن أن يساعدها. في النهاية، أخبرت معلمة التاريخ في مدرستنا، لأنها كانت قريبة مني في مشكلة حصلت لي قبل ذلك. كنت أتمنى أن تعطيني نصيحة لما يجب أن أفعل، لكنها قالت لي إن من مسؤوليتها التعليمية أن تبلغ عن أي اشتباه في حالة اعتداء بمجرد أن يتم إخبارها بها. ثم أبلغت فورًا دائرة الخدمات الاجتماعية، وتدخل موظف من تلك الجهة الحكومية على وجه السرعة. ولم يمض وقت طويل حتى تم القبض على زوج والدة صديقتي. ظلّت معلمتي تقول لي إنني فعلت الصواب عندما أخبرتها، لكن صديقتي لم تكن ترى أني أصبت. لقد أخبرتني أنني غدرت بها، وأنني الآن أصبحت أسوأ أعدائها. ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى وانقطع التواصل بيننا، فلم نتكلم أو نقابل بعضنا منذ ذلك الحين، إلى أن جاءني اتصال منها قبل شهر واحد فقط، اتصلت بي لتشكرني على ما فعلت حينئذٍ. قالت إنني أنقذت حياتها، حيث كانت على وشك الإقدام على الانتحار قبل أن أخبر معلمة التاريخ. ومع أنها عاشت لفترة طويلة في وضع نفسي أسوأ بعد اعتقال زوج أمها، إلا أنها بعد أشهر

من العلاج النفسي، بدأت تدرك أن كل ما حصل لم يكن خطأها بأي شكل من الأشكال، وأن زوج أمها هو من غدر بها، لست أنا. وأخبرتني أن أعز صديقة فقط هي من ستخاطر بالصداقة ذاتها لتفعل ما فعلت أنا لها».

توقفت للحظة عن الكلام لتأخذ نفسًا عميقًا. كان اثنان من الحضور يبكيان في صمت. أكملت جاسمين: «لذا الصديق بالنسبة لي هو من يسعى دومًا لمصلحتك، قد لا يبدو أنه يفعل الصواب دومًا، وبعض الأشياء التي يفعلها نيابةً عنك قد لا تنجح على النحو المقصود... ولكن هدفه دومًا مصلحتك».

لم ينبس أحد ببنت شفة لفترة طويلة. ماذا لو أقدمت على فعل ما بنية حسنة لكن النتيجة لا تكون كما كنت تتوقع؟ هل يعني ذلك - على الأقل إلى حد ما - أن أفعالك تحددها قوى خارجة عن سيطرتك؟ أم أنه لا يوجد شيء يدعى صدفة أو قدر، وحتى من دون أن نعلم، فهل هناك «قوة عليا» تحرك الأوتار الكونية لضمان أن كل شيء يحدث لمصلحة عظمى؟ إبكتيتوس، الفيلسوف الرواقي الأخلاقي الذي عاش في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، والذي أسس مدرسة للفلسفة بعد أن تم تحريره من العبودية، كان يعتقد أنه مع أننا لا يمكن أن نتحكم في كل العناصر، إلا أننا مستقلون بذواتنا من حيث قدرتنا على أن نتحكم في تفاعلنا تجاه تقلبات الوجود. كما كتب: «يجب أن نستفيد من الأشياء التي في وسعنا التحكم فيها إلى أقصى حد ممكن، ونأخذ البقية كما تعطينا إياه الطبيعة». وعلى نفس النسق، أكّد فريدريك نيتشه على أنه حتى مع أننا لسنا السادة المتحكمين بمصيرنا بشكل كامل، ولكننا لسنا الضحايا المستسلمة أيضًا. يقول نيتشه إننا نحن المشاركون في صناعة أقدارنا. مثلما هناك قوى خارجية تلعب دورًا في تحديد اتجاه أفعالنا، نيتشه كان يعتقد أننا أيضًا قوة أساسية لا يستهان بها، وأن بإمكاننا أن نصنع لأنفسنا وجودًا فريدًا حتى وإن لم ينته بنا المطاف تمامًا حيث كنّا نريد، سواء كان ذلك للأفضل أم

للأسوأ.

سألت المجموعة بعد صمت شديد: «هل هناك شيء آخر يمكننا أن نقوله عن الصداقة؟»

«أظن أن أحد الخصائص المحورية للصداقة هي أن الأصدقاء يجب أن يسعوا إلى الحصول على مقابل»، قالت ذلك سارة التي دومًا ما تكون يقظة شديدة الانتباه إلى كل كلمة تقال. لقد حضرت إلى مقهى سقراط لأشهر الآن لكنني لا أعرف عنها شيئًا سوى حبها للتفلسف.

قال آل غريفين بطريقته الفظة المعتادة: «أنا غير مقتنع بفكرة أن يكون المقابل هو أساس الصداقة، فالصداقة يجب ألا تبنى على أساس المساواة».

قلت لآل: «أظن أنك ربما تحتاج إلى النظر إلى المقابل بشكل مختلف. فعلى سبيل المثال، لو أن صديقًا قدّم خدمة، وقدّم الصديق الآخر ألف خدمة، فإن هناك خدمات كثيرة قدّمها الطرفان. ربما تكون تلك الخدمة الوحيدة ضخمة وكان لها أثر هائل على حياة الصديق الآخر، بينما الألف خدمة التي قدمها الآخر لربما كانت عديمة الأهمية نسبيًا. لذلك ربما يكون هناك مساواة، أو توازن، لكن ليس بالطريقة التي تفكر فيها.»

قال آل وهو يعضّ على شفته، وهي العادة التي فهمت بعد فترة طويلة أنه يفعلها عندما يفكر بعمق: «ربما... ربما.»

قالت امرأة جديدة على المقهى ترتدي تيشيرت (يو تو): «لدي صديقة تعيش في هاواي أراسلها وأتصل بها على الدوام، ولكنها نادرًا ما تبادر بالاتصال. لذا فأنا أفكر ما إذا يجب عليّ أن أتوقف عن الاتصال بها. لقد مللت من المبادرة دومًا في المراسلة معها. أنا مستاءة من ذلك.»

سألتها: «ولكن لم لا يستوعب كلا الصديقين أنهما يلبيان حاجات بعضهما البعض، حتى وإن كان تعداد من يتصل بمن غير متوازن؟ لدي صديقة يندر

أن تراسلني أو أن تراسل أحدًا غيري. لذا عندما تصلني رسالة منها، فإنها مناسبة مميزة. أكتب لها رسائل على الدوام، لكن رسائلها أكثر عمقًا من رسائلي ألف مرة. لذا في هذه الحالة، أتساءل ما إذا كان التوازن مختلاً بيننا، لكن في صالحها، لا لصالحي».

بعد لحظات من الهدوء، قال تيم ريموند: «أظن أن الصداقة هي شيء يستلزم البقاء». قبل بضعة سنوات، تعرض تيم لحادث عمل تركه معاقًا. وفي المرة الوحيدة التي تحدث فيها تيم عن ذلك الحادث، لم يبدُ عليه أنه مستسلمًا أو مكتئبًا، ولم يكن مستبشرًا جدًا ولا متفائلاً إلى حد مفرط. إنه يعيش حياته بطبع حليم رصين، ويبدو من القلائل الذين أعرفهم ممن يستمتعون بكل لحظة من لحظات حياتهم. أكمل تيم قائلاً: «كلما مرت الأيام وبقي الأشخاص أصدقاءً، كانت صداقتهم أقوى. كلما مضى الوقت، حصلت المزيد من الأخطاء، وجرحت المشاعر. ولكن تبقى الصداقة. لذا فإن البقاء، أو الصمود، معيار مهم.»

توقف جيفري إنجرام ذو الاثنتي عشرة سنة فجأة عن تصفح المجلة التي أحضرها معه. كانت عيناه الزرقاوان تحدقان من خلال شعره الداكن الذي يتدلى في مقدمة رأسه. قال وهو يبتسم ابتسامة ودية متكلفة: «جميعكم تتحدثون عن الصداقة بين شخصين. ماذا عن الصداقات الجماعية التي تكون بين عدة أشخاص؟» جيفري طالب في إحدى المدارس الابتدائية التي أذهب إليها بانتظام لأتفلسف مع الأطفال. عندما زرت فصله أول مرة وعرّفت بنفسي على أنني فيلسوف، نظر إليّ جيفري كما لو كنت كائنًا فضائيًا. كلما أخبرت جيفري وزملائه عما أعمل، أراد أن يتعلم المزيد. لا أظن أنني قابلت مستمعًا جيدًا مثل جيفري من قبل، ومتيقن أنني لم أقابل شخصًا بهذا الصغر يحمل مثل هذا الاهتمام الأصيل بالفلسفة. لم يكتفِ جيفري بالمشاركة في البحث الفلسفي في وقت دوام المدرسة، لذا فإن أمه تحضره مساء كل

ثلاثاء إلى مقهى سقراط. قد تمر ساعة من النقاش دون أن يتكلم جيفري بأي كلمة. ولكن عندما يختار في النهاية أن يذكر ملاحظته، فإنه يأتي بنظرة متعمقة غفل عنها جميع من حضر.

قالت لوري سيلرز: «إنه محقٌ تمامًا. في الواقع فإن غالبية صداقاتي جماعية. لدي عدة مجموعات من الأصدقاء.»

قلت: «أو لِمَ لا نتحدث عن الصداقة بالنسبة لشخص واحد فقط؟ هل يمكن أن أكون صديق نفسي؟»

قال أحد الضيوف الجدد على مقهى سقراط: «أعتقد ذلك، ولكنني أظن أنه سواء كنت تتكلم عن صداقتك مع نفسك، أو مع شخص آخر، أو مع عدة أشخاص، يبدو أنه يجب ألا تكون ميالاً للحكم على الآخرين إلى حد ما إن أردت أن تبقى الصداقة إلى أمد بعيد».

سألت: «هل ذلك صحيح حقًا؟ أم أنه يمكن للصديق أن يكون شديد الانتقاد، ولكن ليس بشكل سلبي؟ من سيكون أفضل من أعز الأصدقاء ليحكم على الشخص ويقدم له النقد البنّاء؟»

قال رون: «أتفق معك، نيتشه كان يقول إن الأصدقاء يجب أن يكونوا معلمين لبعضهم البعض. وإن أرادوا أن يكونوا معلمين بالمعنى الذي أراده، فلن يكفي فقط الابتعاد عن العاطفة، بل يجب أيضًا أن يكونوا ناقدين إلى حد ما. بالنسبة له فإن من مسؤولية الصديق أن يكون عونًا لصديقه لاكتساب السيطرة على الذات.»

عدنا إلى الصمت من جديد للحظات ونحن نفكر في جميع مفاهيم الصداقة التي تحدثنا عنها. سأل ريتشارد هيز بعد فترة: «ما فائدة الأصدقاء؟»

سأله مشارك آخر: «ماذا تعني؟»

«كانت المجموعة التي تناقش الموضوع في حوار ليسيس لأفلاطون قد

وصلت إلى اتفاق سريع على أن الأصدقاء لا بد أن يكونوا نافعين لبعضهم البعض بشكل أو آخر، وإلا فلن يكونوا أصدقاء. ما رأيكم في ذلك؟»

قالت شارون: «أظن أن ذلك صحيح، بدون أي شك، أنا أراهن على أن حتى أولئك الذين قالوا إنهم لا ينتظرون أي شيء من أصدقائهم يشعرون أنهم ينتفعون من أصدقائهم، حتى وإن لم يعبروا بوضوح عن طبيعة ذلك الانتفاع. أصدقائهم يلبون حاجة ما. أنا لا أعني أنهم يستغلونهم أو ينتهزونهم، لكنني أقول إنهم مفيدون على نحو ما».

سألت: «ما نوع الحاجات التي يلبونها؟»

أجابت: «بالنسبة لي، يمكنني القول إن كل صديق من أصدقائي، من أعز صديق إلى أقلهم وفاءً، يجعلني أشعر أنني أقل وحدةً في هذا العالم. إنهم يلبون لي إحدى حاجاتي الأساسية للغاية. أظن أن كانط كان يقول شيئًا من قبيل إن كل شيء في الصداقة هو غاية وليس وسيلة. أظن أنه كان يعني أن الأصدقاء يسعون إلى إسعاد بعضهم البعض. نعم، قد يلبون رغباتهم أثناء ذلك، ولكن ما يفعلونه في النهاية هو لمصلحة الآخر. على سبيل المثال، قد أدعوك لتأتي معي إلى رحلة تخييم. وأحد أسباب ذلك هو أنني لا أحب التخييم لوحدي. ولكن الدافع الأكبر لي هو أن أحضرك معي إلى رحلة تخييم متأكدةً أنك ستستمتع بها كثيرًا، خصوصًا أني أعلم أنك تحب التخييم كثيرًا».

يبدو أن لا نهاية للأسئلة: ما هي الصداقة الجيدة؟ ما الذي يجعل صداقة ما فاشلة؟ هل هناك صداقة هدّامة؟ كيف تتكون الصداقات؟ هل تختلف الصداقات عن بقية العلاقات؟ كيف تتشكل الصداقات وكيف تتحطم؟ هل يمكن للكتاب أن يكون صديقًا؟ استمر النقاش أطول بكثير من المعتاد. اقتربنا من منتصف الليل. يبدو أننا لا نرغب في ختام الحديث، ولكنني في النهاية سألت الموجودين إن كان لديهم أية مداخلات ختامية.

كانت آن أحد آخر المتحدثين. كان شعرها الأشقر يطل من قبعة تلفها ألوان زاهية. آن تناديني «البروفيسور.» أخبرتها عدة مرات أنني لست بروفيسورًا، بل أنا أبعد ما أكون عن البروفيسور. ولكن بالنسبة لآن أنا «البروفيسور» وانتهى الأمر. في المرة الأولى التي حضرت فيها آن إلى مقهى سقراط قبل عدة أشهر، كشفت لنا عن جزئيات كافية من حياتها أوضحت لنا فيها أنها قد تغلبت على تجارب ومحن عصيبة. هذه المرأة المتحمسة نجت من تلك التجارب منتصرةً، لكنها لا تستخدم ماضيها عذرًا للاكتئاب أو الحسرة على الأوقات الضائعة، بل منطلقًا لطريقتها الخاصة في التفكير، الفريدة في تعاطفها واستقلاليتها. أعلم أنها تأتي إلى مقهى سقراط لأنه ملاذ على نحو ما. وفي هذا اليوم، على عادتها، كانت تنصت بانتباه شديد لتعليقات الجميع. وكما هو معتاد، لا تقول أي شيء حتى اقتراب نهاية النقاش.

تحدثت آن وقالت: «كان الشاعر والكاتب المسرحي غوته يقول إن الأصدقاء يعزز بعضهم البعض. أتفق معه - تقريبًا. بالنسبة لي، الصديق هو الشخص الذي يتقبلك في أسوأ حالاتك، ولكنه يلهمك لأن تكون شخصًا أفضل».

قالت شارون: «أحسنت القول».

ثم قلت أنا: «أظن أن هذه المجموعة هنا هي صديقي. الحوار يربطنا ببعض».

حلّت لحظة صمت جميلة. صرت أفكر في الأصدقاء الذين خذلتهم أو خذلوني على مر السنين، سواءً بشكل كبير أو صغير. أفكر في الأصدقاء الذي صمدوا معي خلال المتاعب والمسرات. وأفكر كيف أن كثيرًا من هذه الصداقات لم تنجُ فقط بل بطريقة أو بأخرى ازدهرت على الرغم من (أو ربما بسبب) استعدادنا لتقبل بعضنا البعض في أسوأ أحوالنا - لأن هذه الإرادة كانت دافعًا لنا لنصبح أصدقاء أفضل، وبشرًا أفضل.

أقول في الختام: «حسنًا يا أصدقائي، إنه أمر يستحق أن نستمر بالتفكير فيه».

صرت أنظر إلى آل، إلى ريتشارد، إلى آن، إلى تيم، إلى شارون، إلى غيل، وفي النهاية إلى رون. أريد أن أقول شيئًا آخر. سأنتقل للعيش في منطقة باي أريا في كاليفورنيا في اليوم التالي. لا يوجد لدي أدنى شك أني أترك مقهى سقراط في أيدٍ أمينة؛ فالآن يوجد عدد من الأشخاص الذين يمكنهم إدارة الحوارات بمهارة، وسيستمرون في حمل مشعل المقهى بعد مغادرتي. ولكن في نفس الوقت الذي أتطلع فيه للمساعدة في تأسيس عدد من مقاهي سقراط في مواقع مختلفة في كاليفورنيا حالما أصل، فإن قرار الرحيل كان صعبًا. أتساءل مع نفسي ما إذا كان بإمكاني يومًا اكتساب أصدقاء هناك يكونون مقربين إليّ مثل أصدقائي هنا. أريد أن يعرف الجميع هنا قيمتهم عندي، ولكن تخونني الكلمات.

شارون ساعدتني في ذلك حين قالت: «نحن نحبك أيضًا».

***

حينما يرشدني الأطفال



أحتاج إلى الأطفال لأتفلسف معهم.

لا أحد يستفسر، ولا أحد يتساءل، ولا أحد يتفحص مثلما يفعل الأطفال. ليس ذلك لأن الأطفال يحبون الأسئلة، بل لأنهم يعيشون الأسئلة.

أول مرة زرت فيها مجموعة من طلاب الصف الخامس في إحدى المدارس القريبة من مدينة سياتل بولاية واشنطن، بدأت بقولي: «الفلسفة تبدأ بحس التساؤل»، وهي كلمة اقتبستها من كتاب (الأخلاق النيقوماخية) لأرسطو، وهي أيضًا قريبة من كلمة لسقراط في (حوار الثيتتس) لأفلاطون، حيث كان يقول إن حس التساؤل «هو سمة الفيلسوف.»

«ما هو التساؤل؟» استفسر أحد الأطفال مباشرةً، قبل أن أحصل على فرصة لأكمل حديثي. لقد ألقيت الكلام المنمق حول «غريزة التساؤل» على أسماع العديد من مجموعات الكبار، لكن هذه هي المرة الأولى التي يسألني أحد هذا السؤال.

أعدت السؤال إليه: «ماذا يعني لك التساؤل؟»

رد: «لا أظن أني أعرف الإجابة عن ذلك». حرّك شعره البني الداكن بيده، ثم حدق نظره تجاهي ووجهه مفعم بالحيوية، ثم قال: «يمكنني أن أخبرك ما أتساءل عنه، لكن لا أظن أن هذا هو نفس معنى التساؤل.»

قلت: «تبدو طريقة رائعة لمعرفة ما يعنيه التساؤل».

قال بصوت منخفض: «أتساءل ما رأي الفتية الآخرين بي. أتساءل كيف ينظرون إلي. أتساءل ما إذا كانوا يعتبرونني شخصًا صالحًا». حسبت أنه انتهى من الكلام، لكنه أكمل قائلاً: «بعض الأحيان أشعر بالغيرة من الفتية الآخرين لأن بإمكانهم رؤية وجهي، ولا يمكنني ذلك أبدًا إلا من خلال المرآة - والمرايا تحرّف دومًا».

كان واضحًا أن معلمته كانت مندهشة مما قال، حيث أخبرتني لاحقًا إنه يندر أن يقول أي كلمة في الفصل، ولم يتحدث من قبل عن نفسه. أردت أن أقول لها: «هذه هي الفلسفة. الفلسفة تصنع العجائب بالأطفال، والأطفال يصنعون العجائب بالفلسفة.»

في رواية (أوقات عصيبة) لتشارلز ديكنز، كان سيء السمعة توماس جرادجريند، المغرم بالحقائق الثابتة ولا شيء غير الحقائق، يحذر ابنته قائلاً: «لا تتساءلي أبدًا!» لأنه كان يعتقد أن القدرة على التفكير يجب أن تغرس في الأطفال «من دون الانحدار إلى غرس المشاعر والأحاسيس». في المقابل، فإن سقراط كان يعتقد أن قدرات التفكير لا يمكن أن تقوى وتُشحذ من دون التساؤل.

يتساءل الأطفال دون توقف. يقول جون هيرمان راندال في كتابه (تكوين العقل الحديث) إن الأفراد «الذين طالت طفولتهم قادرون على الاستمرار في التعلم في حين يصل الآخرون إلى حدود قدراتهم وإمكاناتهم الطبيعية». في حالتي، لا يوجد أي شك أن طفولتي قد طالت - بمعنى أن طبيعتي في التساؤل وشغفي بالتعلم استمرا في النمو - وسبب ذلك إلى حد كبير هو أني أتفلسف مع الأطفال على الدوام.

حين أقارن الأطفال بالآخرين الذين أدخل معهم في نقاشات فلسفية، أجد أنهم أكثر فئة أتعلم منها. إضافة إلى أنني اكتشفت من خلال خبرتي

أن الأطفال لا يعرفون كيف يكونوا غير صادقين. وفي طرحهم للأسئلة، ومحاولتهم للوصول إلى الإجابات عنها، نزاهة وأمانة يفتقر إليها معظم البالغين. كما يتمتع الأطفال بقابلية وجاهزية مثالية للتصحيح الذاتي لفلسفاتهم متى ما أصبح واضحًا لهم أن وجهات النظر التي كانوا يدعون لها غير مقنعة.

جان بياجيه، عالم الأحياء الذي تحول فيما بعد إلى متخصص في علم النفس، والذي كرّس حياته بدءًا من عشرينيات القرن الماضي لدراسة وفهم التطور الذهني للأطفال، كان يرى أن تفكير الأطفال يشبه طريقة المفكرين في الحقبة التي سبقت سقراط، من حيث إن كلاهما لا يملك منظومة متماسكة من المعتقدات. وحتى قبل ذلك، فإن الفيلسوف البرجماتي الأمريكي ويليام جيمس كتب عن «الاضطراب المزهر المزعج» في عوالم اليافعين. ولكن جيرومي برنر، بروفيسور علم النفس في جامعة نيويورك والمعروف بعمله الرائد في التخصص الناشئ «علم النفس الثقافي»، كان يرى أن تلك الفكرة تناقض الكثير من الدلائل العلمية. ومن خلال أبحاثه المكثفة حول التطور الذهني للأطفال وعلى علاقاتهم التجريبية مع محيطهم الثقافي، فإن برنر قد لاحظ أن حتى الرضع والأطفال في عمر ما قبل المدرسة هم في واقع الأمر باحثون فضوليون «لا عن العالم» بل «عن المعتقدات» التي يحملونها حول العالم. كما يؤكد على أن الأطفال يبدأون في وقت مبكر جدًا من مراحل التطور الذهني بمحاولات فهم العالم والثقافة من حولهم. إنهم «أكثر ذكاءً، ويعتمدون أكثر على الاستباقية في البحث عن المعرفة بدلاً من تقبلها بأسلوب رد الفعل، ... أكثر مما كنا نعتقد سابقًا»، وعلى خلاف الاضطراب المزهر المزعج، فإنهم شديدي «الانتباه إلى العالم الاجتماعي المباشر من حولهم» ويمكنهم صياغة معتقداتهم بشكل أرقى مما كان متصورًا فيما سبق.

أكّد جون هولت - وهو أحد أبرز النقاد التربويين والاجتماعيين في الولايات المتحدة الأمريكية، والذي قضى حياته العملية في دراسة كيفية تفكير الأطفال وتعلمهم - في كتابه الكلاسيكي (كيف يتعلم الأطفال) على أن «الأطفال الصغار في الغالب يتعلمون بشكل أفضل من الكبار» لأن «لديهم نمط من التعلم يلائم حالتهم، ويستخدمونه بشكل طبيعي وفعال حتى نعلمهم على التخلي عنه». كان هولت يأسف لحال البالغين لأنهم في أغلب الأحيان يستبدلون حب الاستطلاع الغريزي الذي لا يمكن إشباعه لدى الأطفال - والذي كان يقول إنه مصدر «لطريقة طبيعية وقوية في التفكير» - بوسائل تعلم قاسية وجافة مصيرها أن تقضي على حبهم للتعلم. يكتب هولت: «تروس وأغصان وأوراق، الأطفال يحبون العالم. لهذا هم ماهرون في التعلم، لأن الحب هو جوهر التعلم الحقيقي، لا الحيل العقلية وأساليب التفكير. هلا تركنا الأطفال يتعلمون ويكبرون من خلال هذا الحب؟»

***

يفوق الخيال

تفلسفنا لهذا اليوم وصل إلى نهايته، وغادر الأطفال إلى الفسحة. كلهم ما عدا جيريمي، الذي بقي في مكتبة مدرسة باي أريا الابتدائية، حيث تعقد مناقشاتنا الفلسفية الأسبوعية. كان يعتصر يديه بشدة، وهو ينظر إليهما بتركيز شديد.

سألت جيريمي: «ما رأيك في النقاش؟»

في حوار اليوم، قمنا بمحاولة جريئة للإجابة عن سؤال «ما هو المعتقد؟» وخلال النقاش أخبرنا جيريمي كيف أنه وأخيه كثيرًا ما يطلون من نافذة غرفة النوم في الليل حينما يكون بقية أفراد العائلة نائمين، ثم قال: «بعض الأحيان نرى أنوارًا لا تبدو ملتصقة بأي شيء وكأنها تطير في السماء. أخي الصغير كان يقول إنها أطباق فضائية طائرة، وأنا أقول له إنها طائرات، ولكنه لا يصدقني».

قلت له: «ولكنك لا تصدقه أنت أيضًا».

أجاب: «هذا لأنني أعلم أن ما قاله ليس صحيحًا.»

ضيقت عليه وقلت: «ولكن ألا تظن أنه كان يعتقد أن ذلك صحيح؟»

أومأ جيريمي برأسه. أردت أن يتأمل هو وبقية الصبية في المعضلة الفلسفية الأزلية حول ما إذا كانت المعتقدات بشكل أو بآخر ليست إلا الأمور التي نعتبرها صحيحة، بغض النظر عن كيفية وصولنا إلى صحتها.

كنت أفكر تحديدًا في (حوار الثئيتتس) لأفلاطون، والذي يستكشف فيه سقراط الوسائل التي تجعل المعتقد بينًا: حيث كان الافتراض في البداية أنه طالما يمكن التعبير عن المعتقد بالكلمات فهو واضح. لكن سقراط تعمق أكثر واستنتج أنه فقط إذا كان بإمكانك تقديم تحليل مقنع لسبب إيمانك بما تؤمن به - في هذه الحالة، لماذا كان يعتقد جيريمي أن الشيء الذي رآه كان طائرة - حينها فقط يمكن اعتبار ذلك المعتقد بينًا.

سأل سكوت، أحد الفتية الذين حضروا النقاش، جيريمي لِمَ كان متأكدًا أن ما رآه هو وأخوه كانت بالفعل طائرات لا أطباق فضائية. فأجاب جيريمي: «لأنني رأيت نفس الأضواء في السماء في وقت الغروب حيث ضوء النهار لا يزال موجودًا. والأضواء دائمًا ما تكون ملتصقة بالطائرات. لذا استنتجت أنه إذا كانت تلك الأضواء في وقت المغرب طائرات دومًا، إذًا هي كذلك ما نرى في الليل عندما نرى فقط الأضواء ولا يمكننا رؤية الطائرات». لقد طبّق جيريمي أحد أساليب المنهج العلمي في التفكير القائمة على التجربة والملاحظة التي تؤدي إلى المنطق الاستدلالي، ليصل إلى هذه النتيجة المقنعة.

لكن سكوت لم ينثنِ عن رأيه. سأل جيريمي: «ولكن كيف يمكنك إثبات أنها ليست أطباقًا فضائية؟»

أجاب جيريمي: «يبدو أنه لا يمكنني ذلك، ولكن أظن أن لدي أدلة على أنها طائرات أكثر من الأدلة التي يملكها أخي على أنها أطباقًا فضائية. وأنا أراهن أن أخي سيدرك يومًا ما أنها ليست أطباقًا فضائية. مثلما كان يؤمن في يوم من الأيام بأن بابا نويل شخص حقيقي، لكنه الآن يعلم أنه ليس كذلك».

ذلك ألهمني لأن أسأل جيريمي: «كيف وصل إلى الاعتقاد بأن بابا نويل

غير حقيقي؟»

ظل يفكر جيريمي في ذلك لوهلة ثم هز كتفيه: «أظن أنه عرف كما عرفت، لا يوجد دليل. أصبح سانتا كلوز بالنسبة لي قصة خيالية».

فسألته: «وماذا يعني ذلك بالنسبة للمعتقدات؟»

ومرة أخرى أخذ ذلك الفتى المتروي وقته ليفكر مليًا قبل أن يجيب: «المعتقد هو الأمر الذي أعتقد أنني أعرف إن كان صحيحًا أم لا. ولكن إذا كان خاطئًا - مثل لو كان الاعتقاد بأن الأنوار في السماء قادمة من طبق فضائي اعتقادًا خاطئًا - فهو معتقد مغلوط».

أعاد جواب جيريمي الرصين لذاكرتي واحدًا من الفلاسفة المفضلين لدي، البريطاني المغمور الذي عاش في القرن التاسع عشر ويليام كينغدن كليفورد. يناقش كليفورد في مقالته غير المشهورة (أصول المعتقدات) المعتقدات من حيث إمكانية اعتبار أفعال الفرد صائبة أو خاطئة. يقول كليفورد: «يأتي تحديد الصواب والخطأ من أصل معتقد المرء، لا من موضوع المعتقد، ولا ماهيته، بل كيف توصّل إليه؛ وليس كذلك إن كان معتقده في الحقيقة صائبًا أم خاطئًا، بل إن كان لديه الحق ليؤمن بالمعتقد بناءً على الأدلة المتاحة أمامه». كليفورد كان يؤمن أن «القناعات الصادقة» إن لم تكتسب بأمانة عبر الوسائل التي استخدمها جيريمي في تقصيه الصبور عن الحقائق «تُسلب بالاستماع إلى صوت التعصب والعاطفة».

وقد طوّر ويليام جيمس، الفيلسوف الأمريكي والبروفيسور في جامعة هارفارد الذي عاصر كليفورد، نهجًا مختلفًا في الفلسفة مبنيًا على المذهب البراغماتي الخاص به. يذكر جيمس في مقالته الشهيرة (إرادة الاعتقاد) أن هناك حالات يكون فيها «التخلي عن الإجراءات الصارمة» التي كان يدعو لها كليفورد في التقصي عن الحقائق «مبررًا». كما يؤكد جيمس على أن

«حق الاعتقاد» من دون دليل كافٍ مسموح به إذا كان يؤدي الغرض منه. بالنسبة لجيمس، إذا كان المعتقد يبدو مقنعًا، وكانت له تبعات كبيرة، فإن من واجبنا تجاه أنفسنا أن نسأل: «هل سنقبل به أم سنمضي من دونه؟» بالنسبة لجيمس، فإن الخيار هو القبول، وحول ذلك كتب: «من المؤكد أن أخطاءنا ليست بالأمور الجلل. وفي هذا العالم الذي نكون فيه على يقين بأننا سنقع في الأخطاء حتى إن اتخذنا كل الاحتياطات اللازمة، فإن صفاء القلب بلا شك أكثر صحة من هذا الهلع المفرط تجاهها». فمن الواضح أن جيريمي الذي توصّل إلى قناعته الصادقة (أو عدم قناعته) حول وجود بابا نويل عبر التحقيق المتأني ينحاز إلى كليفورد أكثر من جيمس في فلسفاتهم المتناقضة حول المعتقد.

يعيش جيريمي في شقة بغرفتيّ نوم مع والديه وسبعة أشقاء. ترك إخوته الثلاثة الذين يكبرونه سنًا الدراسة. ولطالما أخبرت هذا الفتى الذكي، دقيق الملاحظة بشكل لافت، الطالب المتميز، أنني أتمنى أن يدخل الجامعة مستقبلاً. ولكن في كل مرة أقول له ذلك يبرز على وجهه ذلك التعبير الذي يوحي أنه يعتقد أن ذلك صعب المنال بالنسبة له، بل هو شيء يجب ألا يجرؤ على أن يحلم به خشية أن يتبدد ذلك الحلم لاحقًا. لكنني أخذته فيما بعد في جولة إلى إحدى الكليات القريبة، وزرنا بعض الفصول الدراسية، وأخذنا دليلاً للكلية وبحثنا فيه معًا، وشرحت له عن المنح الدراسية المتوفرة، وأريته نماذج التقديم على القبول والمنح الدراسية. لقد كان في غاية الحماس بعد رحلتنا تلك وأصبح يتحدث باستمرار، وعن معرفة، عن الجامعة. لم تعد الجامعة بعد ذلك مكانًا مخيفًا صعب المنال. منذ ذلك اليوم بدأ ينمو بداخله إيمان صادق بأنه قادر على دخول الجامعة. جيريمي بلا شك سعيد أنني مهتم به، وأنا في المقابل حصلت على قدر عالٍ من الرضا لرؤية هذا الفتى مزدهرًا مكتسبًا الثقة في نفسه.

ولكن ذلك اليوم في نهاية اجتماعنا الأسبوعي، بدا جيريمي كتومًا على غير العادة عندما سألته عن رأيه في نقاشنا الفلسفي في تلك الجلسة. بقي وقتًا طويلاً دون أن يرد على سؤالي. كان يتمايل على كعبي قدميه إلى الأمام والخلف. ومن دون أي حماسة، حاول أن يرفع شعره عن عينيه. في النهاية أخذ نفسًا عميقًا وقال بنبرة هامسة لم أكد أسمعها: «حاول أبي أن يقنعني أنه لم يضربني البارحة، ولم يجعل سني ينزف دمًا». ثم اشتد صوته وهو يقول: «ولكنه ضربني. أنا أعلم أنه فعل». أخبرني بعد ذلك أنه عندما ذهب ليخبر أمه أنكر أبوه كل ما حصل. كان يقول إن أباه كان مقنعًا جدًا في كلامه إلى درجة أنه كاد يصدقه بنفسه. قال جيريمي: «إنه يكذب»، ثم أراني سنه الأمامية النابتة مؤخرًا. كانت غير ثابتة في مكانها ويغطيها دم متيبس. أفشى سلوك هذا الفتى اللطيف عن خليط من الغضب والألم والحيرة. لن يبقى بعد اليوم بريئًا كما يستحق طفل في عمره أن يكون. «أنا أعلم ما يجب أن أصدقه وما لا يجب أن أصدقه»، قال جيريمي، طالب الصف الخامس، وهو يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إلي.

لم يكن عندي أدنى شك أن والد جيريمي قد اعتدى عليه بالضرب، لذا قمت بإخبار معلمته ما أخبرني به للتو. وبعد أن أبلغتها بالأمر وطمأنتني أنها ستتواصل مع إدارة الخدمة الاجتماعية في المدينة، تنبهت إلى أنه من شبه المؤكد أن جيريمي ما كان ليخبرني بأن والده كان يضربه لو لم نكن نناقش ذلك اليوم سؤال «ما هو المعتقد؟»

***

المحنكون الصغار

مثلما يمكن للأطفال بفطنتهم التمييز بين الأمانة والخيانة، وبين الصدق والكذب، فإنهم يعرفون الفرق بين بذل قصارى الجهد، وتكريس قلوبهم وأرواحهم وعقولهم، وقدراتهم التخيلية والنقدية، لإجابة سؤال ما فلسفيًا، وبين المحاولات الكسولة للوصول إلى «أي إجابة جاهزة» تحضر للذهن، سواء كانت منطقية أم لا. يمكن أن يعارض شخص بالغ بأن يقول: «حسنًا، معك حق، ولكن المسألة ليست أنهم صادقون بقدر ما هم يتكلمون وفقًا لوجهات نظرهم غير المتمرسة». أحقًا هذا؟ لا، بل يملكون وجهات نظر متمرسة، والحوار السقراطي مع الأطفال يعطيهم الفرصة ليبرهنوا كم من الحنكة يمكن أن تحمل آراؤهم.

***

نادي الفلاسفة

«ما هو الصمت؟»

اليوم الأربعاء، واجتماع عصابتنا الذي يُعقد مرتين كل أسبوع سيبدأ تمام الساعة الثانية ظهرًا. أجلس مع واحد وعشرين طالب من الصفين الرابع والخامس بمدرسة سيزار تشافيز الابتدائية، المدرسة زاهية الألوان التي تقع في قلب ضاحية ميشن بمدينة سان فرانسيسكو، وهي منطقة نابضة بالحياة لكنها فقيرة. كنّا في مكتبة المدرسة، وكنت مع الصغار جالسين على الأرائك المريحة. تعجبنا اللقاءات في المكتبة، حيث يكون جوها هادئًا ومن دون رسميات، ومن السهل علي أن أتسلل بالكعك والعصير. أصبح هذا المكان مثل الواحة لهؤلاء الأطفال، تعزلهم عن العالم الخارجي حيث جحافل بائعي المخدرات، والمنحرفون المنتسبون إلى عصابات الحمر والزرق وعصابة الشارع الشمالي التي تقض مضاجع الأحياء القريبة.

أما عصابتنا فكانت تدعى «نادي الفلاسفة». عندما زرت هذا المدرسة - الواقعة في منطقة يرتفع فيها معدل التسرب المدرسي إلى حد يرثى له - لأول مرة قبل عدة سنوات، لم يكن الفتية هنا قد سمعوا من قبل كلمة فلسفة. أما الآن فلا يمكنهم تخيل الحياة من دونها. «نحن الفلاسفة نفكر في الأسئلة لكي نتمكن من التفكير في الإجابات، لكي نتمكن من التفكير في المزيد من الأسئلة» هكذا كان صديقي الفيلسوف رافي، والذي يبلغ من العمر ٩ سنوات ويدرس في الصف الرابع بمدرسة سيزار شافيز، يصف مغامراتنا الفلسفية.

أما ويلسن، الفتى القادم من الإكوادور ذو الصوت الهادئ والعينين الزرقاوين اللتين تشبهان اللوز، فهو من اقترح أن نطلق على مجموعتنا اسم نادي الفلاسفة، وقد أعجب الاسم أصدقاءه الفلاسفة الصغار، وعلق في أذهان الجميع.

والآن في لقاء نادينا لهذا اليوم، طرح علينا سؤال: «ما هو الصمت؟»

سؤاله استحضر في الأذهان مباشرة عدة اعتبارات للصمت. كنت قد أعدت مؤخرًا قراءة كتاب (بيداغوجيا المقهورين) للمعلم البرازيلي باولو فريري، والذي يتحدث فيه عن «ثقافة الصمت» التي تتشكل لدى الناس الذين أمضوا حياتهم تحت الظلم والحرمان، فيقبلون جبرًا حقيقة أن ليس بمقدورهم التحكم بمجريات حياتهم. أفكر في آباء وأمهات هؤلاء الفتية، لا بد أن عددًا كبيرًا منهم ينازع تحت وطأة مثل هذه الأقدار. طرح موريس ميرلو بونتي، العالم الفينومينولجي الفرنسي، وجهة نظر أخرى حول الصمت[1]. ففي كتابه (المرئي واللامرئي) يصف الصمت على أنه أساس كل اللغات: «صمتي عند الكلام والاستماع ضروري لي كمشارك فعال في حواري مع العالم». ولكن من الممكن أن تشير بعض أنواع الصمت إلى أن أحدهم يحاول التنصل من فرصة حاسمة للانخراط في الحوار. قامت إيرنستين شلانت بروفيسورة الأدب المقارن في كتابها الشهير (لغة الصمت: أدب ألمانيا الغربية والهولوكوست) بتحليل الأدب الألماني الغربي - تحديدًا روايات الكتاب الألمان غير اليهود - ومحاولاتهم للتعايش مع الهولوكوست وآثاره على المجتمع الألماني الغربي بعد الحرب. من خلال ذلك وصلت إلى نتيجة مثيرة للقلق، وهي أن «لغة الصمت» تتواجد بكثرة في ذلك

---

١ - الفينومينولوجيا أو علم الظواهر: هي مدرسة فلسفية لتحليل الظواهر وأسس معرفتنا بها. المترجم

الأدب، حيث يتم التغاضي عن الضحايا ومعاناتهم.

قطع ويلسن خواطري الصامتة عندما أكمل قائلاً: «في الواقع، ما أود أن أعرفه حقًا هو: هل من الممكن أن تكون صامتًا إذا كان كل من حولك يصرخ؟»

لاحظ أني كنت بطيئًا في استيعابي لما قال، فأوضح: «حتى عندما أحاول النوم في الليل، أسمع صراخًا. أسمع أفراد العصابات يصرخون في الخارج. أسمع الجيران يصرخون. لذا لا يمكنني أن أكون صامتًا حتى وإن كنت صامتًا».

توقف عن الكلام للحظة، وبقينا نحن صامتون لكي يكمل شرح فكرته. أكمل: «لذا أظن أن ما أتساءل عنه حقًا هو: لو كان كل الناس من حولك يصرخون، هل يمكنك فعلاً أن تكون صامتًا؟ لأنك ستظل تسمع كل من حولك حتى لو سددت أذنيك».

فقلت له: «لنقم بتجربة». فبدأنا نسد آذاننا واحدًا بعد الآخر، بينما تأهب بقية أعضاء نادي الفلاسفة للصراخ. وبالتأكيد، فإن الصراخ أحبط محاولاتنا لصنع جدار صامت من حولنا. لذا استنتجنا بشكل جماعي أن من المستحيل أن نكون صامتين، أن نكون في حالة من الصمت، والجميع من حولنا يصرخ.

ولكن بعد ذلك، قال خوان كارلوس، الفتى الصامت الآخر في مجموعتنا والقادم من البيرو: «حتى إن كان من الممكن حجب كل الأصوات من حوله، فإن من المستحيل أن يبقى هو صامتًا».

رأى خوان تعابير وجهي التي فضحت عدم فهمي مقصده، ولكنه حليم معي مثل كل فتية نادي الفلاسفة، لأنه يعلم أن الكبار مثلي يواجهون صعوبة في التفلسف بمثل حماس الأطفال. لذا شرح لي قائلاً: «لا يمكنك أن تكون

صامتًا مع نفسك، حتى إن كنت صامتًا مع الآخرين. قد لا أتكلم بصوت عالٍ، ولكن في نفس الوقت أتكلم مع نفسي. أنا أناقش نفسي داخل رأسي، حتى إن لم يسمعني أحد. لا يمكنني إيقاف الأصوات التي داخل رأسي. فهذا يعني أنك لست صامتًا. أليس كذلك؟»

قمنا بتجربة أخرى. حاولنا جميعًا أن نكون صامتين تمامًا مع أنفسنا، وأن نقوم بإيقاف الصوت أو الأصوات التي تصدر في عقولنا، ولكننا وجدناها مهمة مستحيلة.

تحولنا إلى صمت ظاهري، ونحن نحاول التركيز على الأصوات بدخلنا. مرّت دقائق الصمت، حتى قطعه رافي طالب التربية الخاصة لصعوبات التعلم والقادم من جواتيمالا، قائلاً: «يمكنك أن تكون صامتًا، لكن ليس تمامًا».

سألته: «كيف يكون ذلك؟»

فقال: «لقد كنّا صامتين من الخارج لكن ليس داخل رؤوسنا، لذا فقد كنّا صامتين. لكن ليس بشكل كامل».

كان مساعد معلم رافي موجودًا معنا في هذه الجلسة تحديدًا، فاعتلت وجهه نظرة ذهول. وبمجرد انتهاء جلستنا جاء إليّ ليقول: «لم أكن أظن أن رافي قادر على التفكير في أمور كهذه»، ثم أضاف بخجل: «أنا لست قادر على التفكير هكذا».

نعم، قد يكون لدى رافي صعوبات في التعلم، ولكن لا توجد لديه عوائق تمنعه من أن يسمو فوقها. وفي الواقع، ورغمًا عن صعوبات التعلم، فإن رافي وكل أعضاء نادي الفلاسفة هم تلامذة موهوبون في تقديري.

وهذا ما يجعلني أتساءل: ماذا يعني موهوب؟

عندما أعقد جلسة تفلسف مع مجموعة من الأطفال للمرة الأولى، أحضر معي كأسًا مملوءة بالماء إلى منتصفها. وأسأل الأطفال: «هل الكأس نصف فارغة أم نصف مملوءة؟» آخر مرة فعلت ذلك مع مجموعة من الأطفال الذي كانوا يعدون من الموهوبين، تجادلوا فيما بينهم على أن الكأس يجب أن تكون إما فارغة أو مملوءة. لم يقبلوا بأي احتمالات أخرى.

لكن الأمر مختلف في نادي الفلاسفة. أجابت كارمن عندما طرحت السؤال عليهم: «إنها نصف فارغة ونصف مملوءة. نصف مملوءة بالماء ونصف فارغة من الماء».

ثم قالت ستيفانيا: «إنها نصف فارغة ونصف فارغة! نصف فارغة من الهواء ونصف فارغة من الماء». ثم ابتسمت طالبة الصف الخامس ذات العينين الواسعتين بعد ذلك ابتسامة عريضة، راضيةً عن نفسها لفكرتها تلك.

مما دفع بأرتورو، الفتى المكسيكي ذي البشرة الفاتحة والشعر الأشقر، إلى أن يقول: «إنها مملوءة تمامًا بجزيئات الماء والهواء».

ثم جاء دور بيلار، المكسيكي الآخر ذي الوجه الملائكي، الذي قال: «ولكنها أيضًا فارغة تمامًا، فارغة من الكثير من الأشياء. إنها فارغة من كل شيء إلا الماء والهواء.»

ثم رافي، الذي انتظر كالمعتاد طويلاً قبل أن يقول أي شيء: «ماذا عن ذلك الشيء الذي في المنتصف؟»

نظرت إلى الكأس ثم نظرت إليه، لم أرى ما رأى. «ماذا تقصد؟»

أخذ الكأس مني وحركها قليلاً حتى تحرك سطح الماء، وقال: «هنا، حيث يلتقي الماء والهواء. ذلك الجزء ليس لها صلة بفراغ الكأس أو امتلائه، أليس كذلك؟»

من اليسير أن أتصوّر هذا الفتى جالسًا في منزله، منكبًا على مناقشة الفيلسوف زينون الإيلي في متناقضاته الشهيرة، بل إن موقفه في ذلك النقاش سيكون قويًا[1]. يقول زينون في إحدى متناقضاته الفلسفية إنه للانتقال من النقطة أ إلى النقطة ب فإن عليك أولاً قطع نصف تلك المسافة. ولكن لكي تصل إلى نقطة المنتصف تلك، عليك أولاً أن تقطع نصف تلك المسافة... ولكن أولاً عليك قطع نصف تلك المسافة، ونصف تلك المسافة، وهكذا إلى ما لا نهاية. وفي الحقيقة، فإن من أجل حتى البدء بتلك الرحلة، من الواجب قطع عدد غير متناهٍ من النقاط - وذلك أمر يقول زينون إنه لا يمكن تحقيقه في أي فترة زمنية محدودة. لذا، فإنه يستنتج أن من المستحيل أخذ الخطوة الأولى حتى. ولذلك أتساءل ما يمكن أن يقوله زينون لرافي حول كيفية وإمكانية رأب الصدع بين الهواء والماء في تلك الكأس، أو ما إذا كان بينهما برزخ لا حدود له، في تلك المساحة المحدودة - وهذه متناقضة أخرى تبعث على الحيرة بقدر لا يقل عما يطرحه زينون حول عبور المسافة بين النقطتين أ وَ ب.

كل هؤلاء الأطفال رأوا أشياء في الكأس لم تتمكن أي مجموعة أخرى من مجموعات الأطفال الذين تفلسفت معهم من رؤيتها. لقد فتحوا عيني.

لذا أسأل من جديد، من هو الموهوب؟ ماذا يعني أن يكون الفرد موهوبًا؟ وفيما يتعلق بالبحث عن سقراط، فأنا متأكد أن أكثر الأطفال الذين التقيتهم موهبةً على الإطلاق هم هؤلاء الفتية في نادي الفلاسفة بمدرسة سيزار تشافيز الابتدائية. وحتى إن كانت قدراتهم في المهارات الأساسية الثلاثة -

---

١- زينون من إيليا (زينون الإيلي): أحد فلاسفة ما قبل سقراط عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، من إيليا وهي مدينة يونانية على الساحل الجنوبي لإيطاليا. وهو من أنصار بارمنيدس في أن عالم الحس وهم باطل. المترجم

القراءة، والكتابة، والحساب - أدنى من المستوى المطلوب، فإن قدرتهم في المهارة الرابعة - التفكير - لا مثيل لها.

وأنا أكتب هذا، أرى رافي يندفع تاركًا كرسيه، لا تسعه السعادة بأحدث اكتشافاته الفلسفية. أراه يدلك جبهته المتجعدة بيديه، كأنه يمسد عقله وهو يفكر. أراه يميل إلى الأمام ناحية طاولته، متبسمًا، كاشفًا عن غمازات عميقة في خديه، يقبض يديه ثم يبسطهما وهو منغمر في الحوار معنا. أراه يفكر في الحديث ولكن يختار ألا يتحدث، لأن الوقت لم يحن بعد، فهو لا يزال يصيغ كلماته وأفكاره ومفاهيمه التي يفيض بها عقله، كأنها تتصارع من أجل البقاء. أراه مطمئنًا وهو يرتبها في أماكنها الصحيحة، ثم يطرح تلك الأفكار بتمهل، ولكن بصوت مسموع.

كل فتى من هؤلاء الفتية يذكرني بسقراط، وخصوصًا رافي، فلديه قلب وروح وعقل - وحب استطلاع لا يرتوي - لفيلسوف وشاعر وعالم، كلها اجتمعت في فرد واحد.

***

الشباب والشيوخ

الأطفال والمسنون - أو كما أسميهم أنا الشباب والشيوخ - أرواح متآلفة. ولكن كثيرًا من الأشياء التي يشتركون فيها تكشف بوضوح صارخ عن أوجه القصور فينا نحن البقية، وفي مجتمعنا. يُنبذ الشيوخ في دور رعاية المسنين أو في مراكز إقامة خاصة بهم، والتي قد تبدو راقية وجميلة وتقدم برامج وأنشطة دون توقف، ولكنها خاوية من الناحية الفكرية. ولا شيء من كل ذلك يعوض لديهم فقدان الاستقلالية والمنزل والعائلة والهوية. الشيوخ متأملون بدرجة غير عادية، ولكن قلة من يريد أن يتأمل معهم. يميل الشيوخ إلى أن التصريح بالحقائق كما هي، ولكن قلائل من يريدون أن يسمعوا الحقائق كما هي. كلما كبروا في السن ازدادوا براءةً وضعفًا وعمقًا في التفكير، وصاروا أكثر شبهًا بالأطفال. وكلما أصبحوا أشبه بالأطفال تعامل أولئك الشيوخ - الذين لم يتم وصمهم بلقب «كبار السن» بعد - مع من هم أكبر منهم سنًا كما يعاملون الأطفال - بتعالٍ في أوقات، وباحتقار في أوقات، وبشكل مؤذٍ في أوقات أخرى.

والأطفال مثل الشيوخ صادقون جدًا. ومع ذلك نجد أن «الكبار الطبيعيين» يعاملون الأطفال مثلما يعاملون الشيوخ، موجودون حولهم لكن دون أن يلقوا لهم بالاً. من لديه الوقت للإصغاء؟ أولياء الأمور مشغولون جدًا بتدبير أمور المعيشة، أو بالتحرك قدمًا بأقصى سرعة في مسيرتهم المهنية. كثير من الأطفال يعرفون مقدمي الرعاية «الأوليين» - جليسات

الرعاية النهارية، ومربيات الأطفال، وغيرهن - أكثر مما يعرفون آباءهم وأمهاتهم.

والنتيجة المؤسفة هي إهمال الأطفال والمسنين في الغالب على هوامش المجتمع. ولكن مكانتهم المميزة في المجتمع أيضًا توحدهم، لأن الشباب والشيوخ يحتاجون بعضهم البعض. يحتاجون بعضهم للتفلسف معًا، لأن الشيوخ - على خلاف الكثير من البالغين - يشتركون مع الشباب في رغبة عنيدة وشغوفة للاستمرار في السؤال والسؤال والسؤال: لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

***

كبير جدًا؟

كنّا في بداية فصل الربيع، وقد تجمع ستة وثلاثون مسنًا وطفلاً حول طاولة مستطيلة كبيرة في غرفة ندوات واسعة ومضاءة بشكل جيد بمدينة مونتكلير بولاية نيوجيرسي. في تمام الساعة الثانية ظهرًا، وصلت بريندا ساندرز معلمة الصف الثالث الابتدائي مع طلابها. لقد جاءوا مشيًا من مدرستهم الابتدائية التي تبعد ما يقارب المئة ياردة. أما المشاركين من كبار السن فقد وصلوا جميعهم مسبقًا - وهم المشاركون المعتادون في عدة مقاهي سقراط ساعدت في تأسيسها في بعض المقاهي ومساكن كبار السن بالمدينة. اجتمع إجمالاً ثمانية عشر طفلاً، وثمانية عشر مسنًا. وها أنا ذا، في مكان ما في المنتصف، ولكن بلا شك أقرب عمرًا إلى الشيوخ. وفي تصرف سافر للتلاعب بالهندسة الاجتماعية، قمت بترتيب أماكن الجلوس بحيث يجلس كل طفل بين مسنَين. أعلم أن لا أحد من الصغار قابل أحدًا من المسنين الذين سيشاركون معنا، لكن بمجرد جلوسهم على تلك المقاعد، بدأ الشباب والشيوخ بالتحدث مع بعضهم البعض - ما بين ارتشاف عصير الليمون وتناول كعك الشوكولاتة - كأنهم أصدقاء لم يلتقوا منذ وقت طويل.

عندما بدأت بدعوة مشاركي مقهى سقراط الكبار من كافة أنحاء المنطقة للمشاركة في هذا الحوار، أخبروني أنهم لن يفوتوا هذه الفرصة لأي سبب كان. بل إن أحدهم قال لي: «أنت تمنحني فرصة للتعلم من أصغر معلمينا».

عندما طلبت منهم طرح أسئلة للنقاش، بدت هيلين، وهي واحدة من

المسنين، كأنها محتارة. في البداية رفعت يدها، ثم أنزلتها. ثم رفعتها مجددًا وقالت: «لدي سؤال.»

قلت لها: «تفضلي».

قالت هيلين: «قبل أيام قلت لإحداهن إنني أحضر دروسًا في الجامعة، وعندما أخبرتها كم عمري، قالت لي: أنت لست كبيرة جدًا. في ذلك الوقت لم يزعجني ما قالته. ولكنني الآن أتساءل ما الذي كانت تعنيه. أتساءل ما إذا كانت تعلم عما تتحدث. أقصد، أنا أتساءل... متى يكون المسنّ كبيرًا جدًا؟»

سألت: «من يمكنه إجابة ذلك؟»

فارتفعت يد الطفلة الذكية تيا في الحال، مع أن فمها ما زال شبه ممتلئ بالكعك. قالت: «يكون كبير جدًا عندما يكون عمره قرابة المئة عام».

سألتها: «لم تقولين ذلك؟»

«لأنه عندما يكون عمرك تسعين سنة فأنت كبير، وعندما يكون عمرك مائة سنة فأنت كبير جدًا».

قلت لها: «يبدو أنك تساوين كبير جدًا مع كبير للغاية. حسنًا... لماذا عمر المئة سنة كبير جدًا وعمر التسعين ليس كذلك؟»

قالت وعلى وجهها ابتسامة ملائكية: «لأن ذلك يبدو هو الصواب».

أعدتُ ما قالت: «لأن ذلك يبدو هو الصواب. امممم... لنرى ما إذا كان هناك آخرون يساعدوننا في إجابة هذا السؤال».

زميلها في الصف أليكس كان يحاول أن يتمالك نفسه، متلهفًا لأن يدلو بدلوه: «إذا كنت صغيرًا، فحتى العشر سنوات تعد كبيرة جدًا أو كثيرة بالنسبة لك. لو كان عمرك أربعين سنة، فإن الستين كبيرة جدًا بالنسبة لك». كان أليكس بلا منازع أطول طالب في فصله ويبدو كأنه أكبر من عمره

بسنتين على الأقل. ثم أكمل قائلاً: «لذا فكون أحد ما كبير جدًا يعتمد على عمرك أنت. إذا كان عمرك عشر سنوات وكنت تعرف شخصًا عمره ستون سنة، فذلك الشخص كبير جدًا».

«ولكن ماذا يعني الكبر في السن؟ كيف يمكنك أن تقول ماذا يعني كبير جدًا - سواء بالطريقة التي استخدمت بها هذه الكلمة أو بأي طريقة أخرى - إلا إذا عرّفنا معنى الكبر في السن؟»

قلّب تلك الفكرة في رأسه قليلاً ثم قال: «الكبر في السن هو عندما يكون لديك شعر رمادي»، ولكن بمجرد أن قال تلك الكلمات، كان من الواضح لي أنه لم يكن مقتنعًا تمامًا بها. ثم نظر إلى دوروثي الثمانينية التي تجلس بجانبه، وكان شعرها رماديًا بأكمله، فقام بتغطية وجهه بيديه خجلاً.

ربتت دوروثي على ظهره ثم قالت: «كان لأختي شعر رمادي وعمرها تسعة عشر. لذا فإن الشعر الرمادي لا يعني أنك كبير في السن. كما أن بعض الأشخاص الذين لديهم شعر رمادي يقومون بصبغه، لذا لا يمكنك استخدامه كمعيار.»

قال مارك إيفانز أحد المسنين من الحضور: «أظن أن جواب السؤال عن معنى كبير جدًا هو كلمة (حتى إن...)».

سألته: «ماذا تعني؟».

أجاب مارك، وكان شرطيًا متقاعدًا يعمل بعد تقاعده مديرًا متطوعًا لبرنامج الوقاية من خطر المخدِّرات: «قد أقول مثلاً: إنني كبير جدًا حتى إن لدي أحفاد، ولكن بالنسبة لي فإن قول شيء كهذا لا يعني إصدار أحكام على الناس. في الواقع لا يدل ذلك على أنك كبير أو صغير. ولا يمكن استنتاج أي شيء مما قلت سوى أنني كبير بما فيه الكفاية ليكون عندي أحفاد. لذا فإن كلمة «حتى إن» هي وصف. قد أقول: أنا كبير جدًا حتى إنني لا أستطيع

التصويت في الانتخابات، أو أنا كبير جدًا حتى إن بإمكاني قانونيًا أن أقود سيارة. عند استخدامها بهذه الطريقة، فإن ذلك لا يعني إلا أنني في عمر يفتح لي، أو يغلق علي، مجالات محددة - لا أكثر ولا أقل».

قالت حينئذ كارن جينكينس، وهي إحدى المسنّات: «لم أفكر بالأمر هكذا من قبل، لكنني أظن أن مارك محق. لو قلت إنني كبيرة بما فيه الكفاية لأن يكون عندي بنت وإني كبيرة كفاية لأكون جدة، كما قال مارك، فإن أيًا من هذين الأمرين لا يعني أنني كبيرة أو كبيرة جدًا. مثلما يكون الطفل ذو الثلاث سنوات كبيرًا جدًا حتى إنه يقود دراجة ثلاثية العجلات، أنا كبيرة جدًا حتى إن عندي ابنة وحفيدة، أو أنني كبيرة جدًا حتى إنني مررت بتجارب كثيرة تكفي لكي أكتب سيرتي الذاتية - والتي أقوم فعلاً بكتابتها! لذا فإن إحدى الطرق لتعريف مفهوم كبير جدًا هي بالنسبة إلى الأشياء التي يمكننا عملها أو لا يمكننا عملها، أو الأشياء التي يمكننا الحصول عليها والتي لا يمكننا الحصول عليها، وطريقة أخرى هي عبر النظر إليها على أنها طريقة لتحديد ما نحن مؤهلون أو قادرون على أن نفعله أو نكونه.»

قالت دوروثي: «مما سمعناه من الصغار حتى الآن فإن كبير جدًا يعني كبيييير. إن التقدم في العمر تغير درامي بالفعل، وهو شيء سنصل إليه جميعًا في النهاية، لكنه أمر لا يتطلع إليه أحد. بعض الناس يتشوقون إلى العمر الكبير ويسمونه العصر الذهبي. بطبيعة الحال أنا لا أعتبر نفسي كبيرة في السن. أنا مراهقة قد تم إعادة تصنيعها»، ضحك الجميع، صغارًا وكبارًا.

أكملت قائلة: «حبي للتعلم لم يهرم أبدًا. ما زلت أحب حضور الفصول الدراسية لأتعلم أشياء جديدة. في الحقيقة، كلما كبرت في العمر زادت رغبتي في تعلم وتجربة أمور جديدة. هذه الأيام، أنا أحضر دروسًا في تعلم الرقص، وأتعلم كيف أتحدث اللغة الصينية لأتمكن من التطوع في أحد المراكز التي

تقدم رعاية نهارية لأطفال الصينيين المهاجرين حديثًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية».

ما قالته ذكرني بمقالة المديح التي كتبها ميشيل دي مونتين عن سقراط: «لا يوجد شيء أكثر روعة في سقراط من حقيقة أنه حتى بعد تقدم عمره كان يجد وقتًا لأخذ دروس في الرقص وعزف الموسيقى، ولم يكن يعتبر ذلك تضييعًا لوقته». وقبل وفاته بفترة قصيرة، كتب مونتين حكمة مأثورة نُقِلت عنه، وهي تعكس فلسفة دوروثي حول التقدم في العمر: «كلما قصر نصيبي من الحياة، كان لزامًا علي أن أجعلها أكثر عمقًا واكتمالاً».

اختلست نظرة إلى باربرا، وهي واحدة من أكثر المشاركين ثرثرةً في مقهى سقراط الذي تحضر إليه بانتظام في أحد المقاهي القريبة. كانت ذلك اليوم صامتة على غير طبيعتها. مستغرقة في الإنصات إلى الأطفال إلى حد أنها لم تتكلم قط. سألتها: «باربرا، ما رأيك؟».

قالت بعد برهة تفكير: «يبدو أن كثيراً من الناس لا يريدون القول بأنهم كبار لأنهم يظنون أن من السيء أن تكون كبيرًا. هناك أشياء جميلة تأتي مع التقدم في العمر. دوروثي على سبيل المثال تحظى بالاحترام لأنها كبيرة في السن. يمكنك القول إنها كبيرة جدًا حتى إنها تنال الكثير من الاحترام».

ثم أكملت قائلة: «لا ينتقد الناس كثيرًا عندما تكون متقدمًا في السن. يظنون أنك أعلم منهم لأنك كبير في السن، ولذلك يستمعون إليك. ولكنني لست واثقة من أن كبار السن فعلاً أعلم من غيرهم. أظن أن بإمكانك تعلّم القدر نفسه من التجارب من الأطفال، مثلما تعلمت أنا الكثير هذا اليوم من الأطفال هنا. كل ما في الأمر أنك تتعلم أمورًا مختلفة منهم في مقابل ما تتعلمه من الكبار».

توقفت عن الحديث للحظات، ثم قالت بصوت ثابت: «الأشجار تكبر

وتصبح قديمة، الأثاث يصبح قديمًا، الهدايا التذكارية تصبح قديمة، وذلك يجعلها ثمينة وذات قيمة أكبر. لهذا السبب يقوم الناس بزيارة غابات ريدوود غروفز، لأنها تصبح أنفس وأكثر قيمة كلما تقدّمت بالعمر. وكذا تصبح المجوهرات أيضًا أغلى وأثمن كلما طال بها العمر».

ثم قالت: «كل شيء يتغير بمرور الزمن. كل شيء يتقدم في العمر. كثير من الناس ينظرون إلى الزمن كأنه عدو. لا يريدون أن تتغير الأشياء. ولكن التغير جزء من الحياة، كما هو الزمن جزء من الحياة».

كان الكثير من الفلاسفة على مر التاريخ ينظرون بالفعل إلى الزمن والتغير على أنها أعداء. كانوا يعتقدون أن الزمن والتغير أمور وهمية وأن «الحقيقة المطلقة» أبدية وخالدة. على سبيل المثال، كان الفلاسفة الإغريق الذي عاشوا قبل سقراط ومنهم فيثاغورس - الذي كان أيضًا عالمًا في الرياضيات، ومتصوفًا، وأسّس جماعة دينية كانت تؤمن بخلود الأرواح وتناسخها - يربطون الكمال بالخلود، ويعدّون التغير شائبة أو عيبًا فظيعًا. ولكن الإمبراطور والفيلسوف الروماني ماركوس أوريليوس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، والذي كان من أنصار الفلسفة الرواقية التي كانت تؤمن أن الموت أمر طبيعي مثل الولادة، كان قد كتب أن الزمن والتغير يمضيان جنبًا إلى جنب، وأن «خضوع الأشياء للتغير ليس شرًا». كان يؤمن أن الزمن والتغير «ملائمان لطبيعة الكون... ألا ترى أن تغيّر نفسك بهذه الطريقة ملائم أيضًا، وضروري بنفس القدر لطبيعة الكون؟» والتر كوفمن يذهب إلى أبعد من ذلك، ويؤكد أن الزمن والتغير ليسا مترافقين لا غنى عنهما فحسب، بل هما فنانان على نحو ما. ويقول كوفمن إن الزمن يحول ويغير كل شيء في مجمل الأحوال: «الزمن في الغالب هدام، مثل قدامى النحاتين الذين يشتغلون على حفر قطعة كبيرة من الحجر. ومع ذلك، فإن وجوه كبار السن تكون أكثر تعبيرًا من وجوه الصغار، والجدران والمنحوتات العتيقة

تكون أكثر ثراءً من الجديدة». على أي حال، فإن للزمن قوة مدمرة يصفها الكاتب الأمريكي ستيفن كينج بشكل واضح في روايته (الميل الأخضر)، حيث أجبر أحفادُ راوي القصة بول إدجكومب ذي المئة عام على دخول دار المسنين. يقول إدجكومب: «الوقت هنا مثل الحمض الضعيف الذي يمحو الذكريات في البداية ثم يمحو الرغبة في عيش الحياة.»

قلت موجهًا سؤالي إلى فيرونيكا ذات التسع سنوات، التي لم تنطق بكلمة حتى الآن: «ما رأيك في موضوع الكبير والكبير جدًا؟» شدّت فيرونيكا على ضفيرتي شعرها وهي تفكر فيما تريد أن تقوله.

ثم قالت في النهاية: «بعض الأحيان عندما تسأل الأشخاص الأكبر عمرًا سؤالاً، يمكنك أن تعرف من خلال ما يقولون أنهم يعرفون أكثر مما تعرف. أنا أسأل جدتي الكثير من الأسئلة - للنصيحة أو للمساعدة في المدرسة، وأمور مشابهة - لأنها كبيرة جدًا ولذلك لديها خبرات كثيرة.»

سألتها: «ماذا تعنين بالخبرة؟»

«لقد تعلمت أكثر مني، وقد حصلت لها أمورٌ كثيرة، لأنها عاشت حياة أطول. ولذلك تعرف أكثر مما أعرف. لذا لو كان لدي مشكلة مع صديقة، أو في أمرٍ ما بالمدرسة، فعلى الأغلب أنها مرت بشيء مشابه لأنها كبيرة جدًا ويمكنها أن تعطيني نصيحة جيدة اعتمادًا على خبرتها.»

سألتها: «إذًا أنت تعتقدين أن التقدم في العمر - أو ما تعبرين عنه بكوننا كبارًا جدًا هو أمر جيد جدًا من نواحٍ كثيرة».

أجابت ڤيرونيكا: «نعم، أعتقد ذلك».

قالت باربرا: «وأنا أيضًا، أعتقد ذلك بشدة. أعتقد أنني كبيرة جدًا ما يجعلني أستمتع بالأشياء وأدرك قيمتها أكثر من أي وقت مضى في حياتي».

«أشياء مثل ماذا؟»

«يمكنك أن تدرك قيمة هؤلاء الصغار وهم يتحدثون هنا. تدرك قيمة معرفتك فيما يفكرون فيه. قيمتهم أكبر بالنسبة إليك. تدرك قيمة المعرفة أكثر مما كنت تدركها وأنت أصغر عمرًا. لا أظن أنك تعرف قيمة الأشياء حتى تتقدم في العمر. لم أعرف قيمة التعلم حتى أصبحت كبيرة جدًا. لقد بدأت بأخذ دروس جامعية في الإيكولوجيا (علم البيئة)، وأتمنى أن يخدمني ذلك في عملي التطوعي كناشطة في حماية البيئة. ومن يدري... قد أكمل دراستي وأحصل على درجة الدكتوراة». بدا كأن بعض الموجودين ينظرون إليها على أنها كانت تمزح، ولكن كان واضحًا أنها كانت جادة فيما تقول. ثم قالت: «لا أدري كيف أقول هذا، ولكن التعلم يجعلني أشعر أنني صغيرة. يجعلني أشعر أنني شغوفة بحياتي والحياة من حولي».

قام عالم الاجتماع ويليام أ. سادلر في كتابه (العمر الثالث) بدراسة حالة امرأة عادت إلى الدراسة الجامعية بعد تقاعدها في السبعينيات من العمر، لتحصل في النهاية على درجة الدكتوراة؛ وهي الآن خبيرة معروفة، وناشطة اجتماعية، ومتحدثة يكثر الطلب على حضور خطبها حول التقدم في العمر. أخبرت المرأة سادلر أنها حتى إن كنت بالفعل وصلت إلى مرحلة «الكبر في العمر»، فإنها ما تزال تعتبر نفسها «صغيرة في نواحٍ كثيرة»، وفي نواحٍ كثيرة شخصًا أفضل «لأنه قد أصبح لدي خبرة أكبر وأظن أن لدي حكمةً أكبر». وصفها سادلر بأنها «كبيرة وليست كبيرة، صغيرة وليست صغيرة»، ويستنتج أن حيرتها في تصنيف نفسها «منعها من قبول المعنى التقليدي لعمر ما وساعدها في تشكيل هوية تجمع بين التقدم في الكبر والتقدم في الصغر». كأنه يصف باربرا بوصفه ذلك، وغيرها آخرين من الأصدقاء المسنين الذين يحضرون معنا هذا النقاش.

لاحظت أن كارين جنكينز مستغرقة في التفكير. قلت: «كارين؟»

ردّت كارين: «أنا أفكر بأغنية (شروق، غروب) من فيلم (عازف الكمان

على السقف). إنها أغنية يغنيها الأب بعدما يكتشف فجأة أن طفلته أصبحت امرأة، ولَم يكن لديه أي أدنى فكرة حتى تلك اللحظة أنها قد كبرت. يحدث ذلك بسرعة كبيرة - كطفرة هائلة. أنا كبيرة جدًا حتى إنني قفزت قفزة هائلة من طفلة إلى بالغة. أنا كبيرة جدًا حتى إنني لا أقدر الآن على الحركة بشكل جيد، وأنا كبيرة جدًا حتى إن أكثر أصدقاء طفولتي قد رحلوا عن الدنيا.»

تنهدت قليلاً، ثم ابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت: «ومع كل ذلك، فأنا في الحقيقة نفس الشخص من الداخل منذ كان عمري خمس عشر سنة. اكتسبت فقط المزيد من المعرفة والخبرة».

قالت دوروثي: «الجسد والعقل يتغيران بمرور الزمن. يمكنك القول إنهما يتقدمان في العمر، ولكن لا أظن أن ذلك يحمل نفس معنى أنهما يشيخان. بلا شك، إذا توقف شغفك بالتعلم والحياة، فإن عقلك يمكن أن يشيخ من قلة الاستخدام - ولكن ذلك يمكن أن يحدث في عمر صغير جدًا. ولكن إذا تمت تغذية عقلك باستمرار، فإنه يمكن أن يزداد شبابًا كلما تقدمت في العمر».

قالت آنا: «أظن أنها طريقة جميلة في التعبير عن الأمر». حتى تلك اللحظة لم تتحدث هذه التسعينية النشطة المفعمة بالحيوية بعد - وهي التي عملت مدرسة للصف الأول الابتدائي على مدى ثمانية وخمسين عامًا، حتى تقاعدت قبل ثلاث سنوات، ثم تفرغت لهوايتها في الرسم الزيتي بشكل كامل. لقد كانت مستغرقة بصمت في أحلام اليقظة، تتبسم مع نفسها، وأظن أن تلك المرأة الرزينة المتحفظة قد قالت كل ما تريد أن تقول. ولكنها بعد ذلك نظرت إلينا وقالت: «بدأت أفكر في أنه ليس بإمكانك فقط التقدم في العمر بفخر، بل إنك إذا قمت بتنمية حس التساؤل لديك فإن بإمكانك أن تكبر بروح الشباب».

أين كنت عندما احتجت نفسي؟

قلت لنفسي: «ما الذي أفعله؟»

أوقفت سيارتي على جانب الطريق السريع. أطفأت المحرك. نظرت إلى يدي. لقد كانتا ترجفان قليلاً. ولكنني لم أتحرك. بقيت متوقفًا على جانب الطريق، مشلولاً.

لقد أبحرت في الرحلة المثالية بالنسبة لي إلى المجهول.

إنه منتصف فصل الصيف من عام ١٩٩٦. وقد وصلت إلى النقطة التي لا يمكنني بعدها دفع نفسي للاستمرار في حياتي المهنية التي لم يعد لها معنى. حياتي الشخصية كانت متناثرة هي الأخرى. وصلت أنا وزوجتي إلى إدراك متردد لحقيقة مرّة وهي إن كنّا نريد أن نحافظ على ما بيننا من صداقة، فإن على زواجنا أن ينتهي.

كلانا كان يعاني لوقت طويل من أجل إحداث تغييرات جوهرية في حياتنا. لقد قضيت وقتًا أكثر من اللازم متحسرًا على الأشياء التي لم أتمكن من عملها، وعلى الوقت الذي أضعته. فكرت في أسئلة كثيرة مثل: لماذا تنازلت بسهولة عن طموحاتي؟ لماذا فشلت في اتباع سبيل غير مألوف؟ لقد كان عذابي مع تلك الأسئلة مجهودًا يستنزف كل طاقاتي، وضياعًا للوقت لا يمكنني الهروب من إغرائه. لقد كان من السهل أن أبقى غارقًا في الماضي متحسرًا على كل ما لم يتحقق؛ فمن الصعب أن أستجمع نفسي، وأمضي قدمًا من جديد.

في النهاية، ومع شيء من الروحانية، استيقظ إدراكي السقراطي. وكان أول بند في جدول أعمالي هو طرح هذه الأسئلة: هل أسأل الأسئلة الصحيحة؟ هل الأسئلة التي أعذب نفسي بها هي الأسئلة التي يمكن أن تقودني إلى إجابات تستشرف المستقبل بحيث يمكنها أن تساعدني لصياغة مسارٍ جديد لحياتي؟

مستحيل. لم أكن أطرح أسئلة مجدية. لقد كنت أطرح أسئلة تتعمق في الماضي ولا يمكنها أن تصنع أي تحول جذري في حياتي، في هذا المكان والزمان. بدأت أفكر في صياغة أسئلة جديدة، أسئلة أفضل: ما الذي أريد حقًا أن أعمله من حيث مهنتي أو رسالتي في الحياة؟ لو عدت لأكون ذلك الشخص المهيب الذي لا يخشى خوض المخاطر، وهو ما كنت في السابق، فأي عمل سيجعلني أشعر أنني أحقق أكثر ما يمكن تحقيقه من حياتي الفانية؟ ما هدفي في هذه الحياة؟

تذكرت أني قرأت ذات مرة مقابلة في مجلة رولينج ستون مع المغني بونو، قائد فرقة الروك الإيرلندية يو تو، والتي جعلتني أفكر بمحتواها. يقول بونو في تلك المقابلة: «هناك معركة... بين الخير والشر، وأنا أعتقد أنه يجب أن تجد مكانك في تلك المعركة. قد يكون ذلك على أرضية مصنع، أو في كتابة الأغاني. عندما تكون هناك – عندما تكون حيثما يجب أن تكون وتعلم ذلك في قلبك – حينها تكون معنيًا بالأمر... قد لا أستطيع تغيير العالم، لكن أستطيع أن أغير العالم في داخلي».

ومثل ذلك ما ذكره والتر كوفمن في كتابه (إيمان مهرطق)، حيث يتذكر قراءته لكتاب عن حياة فان جوخ عندما كان في السابعة عشرة، وقد هرب من ألمانيا النازية. يتحدث كيف أن فان جوخ خطط للعيش مع عمّال المناجم، وأن ينزل معهم إلى الحفر، وأن «يشاركهم معاناتهم. ولكن زولا أخبره أن

ذلك أمر لا معنى له، ولن يخدم عمّال المناجم بأي طريقة كانت. زولا، الذي كتب رواية (جيرمينال)، وهي رواية تصف حياة عمّال المناجم البائسة، تمكن من خدمتهم من خلال إظهار معاناتهم للجميع أكثر مما كان يمكن لفان جوخ أن يقدمه لو عانى معهم. وبلا شك فإن أوضاع عمال المناجم تحسنت إلى حد ما، والإنسانية ارتقت إلى حد ما، نتيجةً لرواية (جيرمينال)». استنتج كوفمن بعد قراءة (جيرمينال) «إذًا لا بأس ربما من إكمال الدراسة الجامعية إن كانت ستمكنني من القيام بخدمة لم أكن أقدر على القيام بها من دون التعليم».

رأي كوفمن حول إيجاد مكانك الفريد في الحياة و«القيام بخدمة ما» بطريقتك الفريدة لا يختلف عن رأي بونو. بل يقترب أكثر منه في كتابه (من شكسبير إلى الوجودية) حين يتحدث عن «التدين الخاص» لدى فريدريك نيتشه والشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه، الذي تنتهي قصيدته المؤرقة (جذع أبولو العتيق) بهذه الوصية: «لا بد أن تغير حياتك». كلاً من نيتشه وريلكه كانا يرفضان «كل شيء تشكّل وتقولب حتى غدا صورة نمطية... إصرارًا منهما على أن يكونا منفتحين وجاهزين لنداءات حياتهما الفردية».

يتساءل نيتشه في كتاب (ولادة التراجيديا) ماذا كان سيحصل لو أن سقراط لم يكن منفتحًا ومستعدًا لندائه الفردي. حيث يفكر بسوداوية في «الإبادة» التي كانت ستحصل للإنسانية لو أن سقراط - والذي يعتبره «نقطة تحول... في تاريخ العالم» - لم يقم بتنمية شغفه بالبحث العقلاني وقام بتوظيفه في «خدمة المعرفة».

رغم الجهود النبيلة لسقراط، فإنني لا أظن أنها تمثل نقطة تحول في تاريخ العالم. فعلى مر العصور، تسيطر على التاريخ قصص الأعمال الوحشية للإنسان ضد أخيه الإنسان، والإبادة التي يتحدث عنها نيتشه احتمالية

تلوح في الأفق على الدوام. هل قام سقراط بتأجيل اليوم الذي سنقع فيه إلى الجحيم؟ إن كان الأمر كذلك، فماذا يعني ذلك بالنسبة لجهوده، وجهود كل أولئك الذين سعوا من بعده، كما يقول فولتير في رواية (كانديد) «لننمي حديقتنا» بجعل المجتمع أكثر عقلانية وإنسانية؟

لقد تأثرت تأثرًا كبيرًا بهذا النص الذي كتبه الفيلسوف ويليام جيمس:

إن كانت أجيال البشرية قد عانت وضحت بأرواحها؛ وغنّى الشهداء في الحرائق... لا لسبب سوى كي تخلفهم سلالة من مخلوقات تحمل تفاهة لا نظير لها، ويمتد أجل... حياتهم القانعة الخانعة... فالخير كل الخير في إسدال الستار قبل المشهد الأخير من المسرحية، كيلا ينال أمرًا بدأ بعالي الهمة والأهمية نهاية لا تليق به.

أرقني هذا المقطع كثيرًا. وصف كاتب الأخلاقيات لورينس شيمس أمريكا في الثمانينات من القرن العشرين بمكان يفتقر إلى المجتمع والهدفية، حيث النجاح قد تم «تعريفه على نحو يكاد ينحصر بكامله في المال... من دون الإشارة إلى قيمة إنجازات الفرد» فضلاً عن «سمو النوايا»، حيث إن الناس «وصلوا إلى الإيمان إلى أنه لا حاجة إلى وجود الغاية»، وحيث الهفوات الأخلاقية «فادحة وواسعة النطاق». هذا التوصيف أكثر ملائمة لوقتنا الحالي. بل إن المؤشر ابتعد أكثر عن المسؤولية الاجتماعية واقترب أكثر إلى الكسب الشخصي غير المقيد. في رحلاتي حول الولايات المتحدة الأمريكية بصفتي كاتب صحفي مستقل، أصبحت قلقًا بشكل متزايد مما رأيته من أنانية وتعصب شديدين ومتفشيين بين الناس، بالإضافة إلى الافتقار إلى أي حس بالمسؤولية تجاه الأفراد الآخرين. لم نعد فقط مجتمعًا يسأل «ما مكسبي من ذلك؟» بل تحولنا إلى مجتمع يقول للآخر «فلتذهب إلى الجحيم.»

وكذا كان نمو الشعور بالعجز والقدرية التشاؤمية مثيرًا للقلق – والشعور بأن ما يقوله الناس وما يفكرون به لم يعد مهمًا، وأن ليس لديهم إلا القليل من القدرة، إن وجدت، على التحكم في الظروف المحيطة بهم. إن مثل هذه التصرفات الاجتماعية المتفشية كانت تعدّ في الماضي علامات على مشاكل أكثر عمقًا، التي بدورها كانت سببًا في حلول أكثر الفترات ظلمة في تاريخ البشرية. ولكن مثلما كان هناك أولئك الذين استغلوا هذه الظواهر إلى أسوأ الغايات، فقد كان هناك آخرون من مختلف مشارب الحياة الذين سعوا للتغلب عليها وتجاوزها.

من خلال محاولتي صياغة رسالتي في الحياة وبلورتها، كنت دومًا أسأل نفسي: ما الذي يمكنني عمله بحيث أستطيع على نحو متواضع أن أواصل مسيرة تلك الأرواح النبيلة التي جاءت من قبلي، وكما قال ويليام جيمس «البشرية التي عانت وضحت بأرواحها» من أجل تحسين مصير البشر؟ أين مكاني؟ ما الذي يمكنني أن أقدمه؟ ما الذي أوّد أن أفعله؟

عندما جاء الجواب، حطّ مثل الإلهام وإدراك الحقيقة: أريد أن أكون فيلسوفًا على شكل سقراط. أردت أن أقيم حوارات سقراطية. أردت أن أصل إلى أي شخص وكل شخص يريد أن يشترك معي في الرحلة إلى الحصول على فهم أفضل لأنفسنا وطبيعة الإنسان – وهم كذلك يشتركون معي في الطموح إلى أن نصبح أفرادًا أكثر تعاطفًا، ومحققين فلسفيين أكثر براعة في النقد وأكثر إبداعًا. كان الجواب واضحًا جدًا، ولذا كان من الواضح مباشرة لِمَ لم أتجرأ لأطرح السؤال قبل ذلك الوقت. لأنني عندما أجبت عليه بصدق، علمت أن عليّ طرح السؤال الحاسم الآخر، المشحون بالتغيير المثير للذهول: لِمَ لم أتمكن من المضي قدمًا في اتجاه أحلامي الآن، بغض النظر عن الوقت الذي أظن أنني ضيعته؟

حينها خطر لي أمر: لقد كان من السهل البقاء في روتين التحسر على الوقت الضائع والانغماس في التعاسة. ولكن العمل الصعب الذي يتطلبه التغيير اللازم لوضع حياتي في الطريق الذي يحمل معنى حقيقيًا يتطلب بدايةً طرح مجموعة أخرى من الأسئلة: ما الذي يجب أن أعمله لتحقيق أحلامي؟ ما الخطوات التي يجب أن أتخذها؟ ما التضحيات التي يجب أن أقدمها؟ وهل أنا على استعداد لتقديمها؟

ومع خوفي الكبير من فرصة تغيير حياتي بشكل جذري، إلا أنني كنت مستعدًا، أو على الأقل كنت أظن أنني مستعد. ولكن اتضح لي أن صياغة الخطة والتعبير عن رغبتك في تحقيقها هو شيء، وتحويل تلك الأفكار إلى أفعال هو شيء آخر تمامًا.

ولكن هذا ما كنت أقوم به في تلك اللحظة - أو كنت على وشك القيام به - بينما كنت جالسًا في سيارتي على جانب الطريق. لقد قرأت عن فلاسفة في أوروبا كانوا يعقدون نقاشات فلسفية مع العامة في المقاهي. وسمعت أيضًا عن ماثيو ليبمن بروفيسور الفلسفة سابقًا بجامعة كولومبيا الذي أصيب بخيبة أمل بعد محاولاته بثّ الحياة في الفلسفة عبر برنامج (الفلسفة للأطفال) الذي أسّسه في جامعة مونتكلير، بالجزء الشمالي من مدينة مونتكلير بولاية نيوجيرسي. كان هدف ليبمن الطموح هو إدخال الفلسفة في مناهج الأطفال بالمدارس وتشكيل ما وصفه بـ «جماعات فصلية للبحث الفلسفي». وفي كتابه المهم (التفكير والتعليم)، انتقد «العقل المتخصص أكثر من اللازم» والذي كان يعتبره «آفة الحياة الأكاديمية». وكان يشجع على الرجوع إلى نوع من الفلسفة التي تشجع على التفكير في التخصصات وحولها وما بينها، معللاً ذلك بأن «ما يجري في الطويات والتشققات بين التخصصات العلمية لا يقلّ أهمية عما يجري في داخلها». ومثلما كان فلاسفة المقاهي في أوروبا يفعلون،

حاول ليبمن أن يعيد الحياة في تخصص قد تم الحكم عليه بأنه متحجر وغير ذي أهمية.

لكن كلا الطريقتين استثنت أولئك الذين لا يذهبون إلى المدرسة، أو لا يستطيعون الذهاب إلى المدرسة، أو ليسوا قادرين على زيارة مقهى للمشاركة في بحث فلسفي. وقد بدا لي أنهم يستخدمون خليطًا من الطرق في البحث والتساؤل، أو لا يتّبعون طريقة محددة نهائيًا، وأن الكثير من فلاسفة المقاهي في أوروبا أعداء سافرون للوسط الأكاديمي. أكثرهم شهرة كان مارك سوتيه، الخبير بنيتشه والذي حصل على درجة الدكتوراة من جامعة السوربون، حيث كان يرى أن الفلاسفة الأكاديميين قد رهنوا الفلسفة حقًا طبيعيًا لهم. ثار سوتيه ضد «العنصرية الأكاديمية» في الفلسفة بالجامعات، وهكذا بدأ حركة مقاهي «كافيه فيلو».

مع أني كنت أيضًا أنتقد الكثير من جوانب البرج العاجي، في الفلسفة الأكاديمية تحديدًا، إلا أنني بالرغم من ذلك شعرت أن لها مكانها الشرعي ورسالتها النبيلة. وكما كتب ماثيو ليبمن بـ «براجهم العتيقة، وبيروقراطيتهم المربكة، ومعلميهم الذين يجهلون أصول التربية» فإن الجامعات في الغالب تنصلت من رسالتها ولم تستجب للنقد البناء من الداخل أو الخارج.

ولكن بالرغم مما في التعليم العالي من مواطن ضعف، فأنا أرى أنه أقرب إلى أن يكون نعمة لا آفة. وعلى مر الجيل الأخير، أصبح التعليم العالي في متناول أشخاص أكثر من السابق - بفضل نظام الجامعات الحكومية الآخذة في الازدهار - حتى أخذ الكثيرون بالإيمان أن دخولهم الجامعة بعد المدرسة الثانوية هو حقهم الطبيعي. وهذا سبب إضافي، كما أظن، للاستمرار في صراع الخير والعمل على جعل الجامعات نماذج للتعلم الإبداعي الحثيث، بدلاً من هجرها بالكامل.

كانت أمنيتي أن أشارك في شيء مثل التواصل الفلسفي الذي يمكنه، ضمن الكثير من الأمور الأخرى، أن يساعد في إنعاش الفلسفة الدراسية، من خلال توسيع نطاق الموضوعات المعنية التي يمكن أن تكون مادة للبحث الفلسفي وتوسيع نطاق الجمهور الذي يمكن أن يشارك. كما أردت أيضًا بناء جسور بين الأكاديميا وما يدعى بالعالم الخارجي.

وكذلك نرى أن المدارس الابتدائية والثانوية جاذبة للانتقاد. يذكر ديفيد بيركينز، مدير برنامج (المشروع صفر بهارفارد) أحد أهم مراكز تعليم الأطفال، والبروفيسور بكلية هارفارد للتعليم أن: «نواقيس الخطر في نظام التعليم الأمريكي تشير إلى متاعب المعرفة الهشة والتفكير الضعيف». وفي كتابه (مدارس ذكية: تفكير أفضل وتعليم لكل طفل) يقول إن الولايات المتحدة على وجه العموم تفتقر إلى المدارس الذكية، مدارس «مستنيرة، مليئة بالطاقة، وحافلة بالأفكار» وتسعى لتحقيق «أهداف صعبة». ونتيجة لذلك، كما يقول، فإننا «غير قادرين على أن ننافس بفاعلية مع الدول الأخرى التي تمكنت من تنظيم نفسها بشكل أفضل». انتقادات بيركينز ليست فريدة من نوعها بين دعاة إصلاح نظام التعليم. ولكن كما هو الحال في التعليم العالي، فإن الحوار الحماسي يدور حول جودة التعليم الذي يستحقه أطفالنا وشبابنا، وليس حول الاستغناء عن المدرسة والتعليم المدرسي. وكثيرًا ما يغفل منتقدو نظام التعليم الأمريكي عن وجود معلمين مخلصين وتقدميين في أنحاء البلاد يحققون إنجازات في تطبيق مناهج ترفع من مستوى المعايير الأكاديمية التي يتوقع أن يصل إليها الأطفال، وهذا يحفز ويتحدى الأطفال لأن يكونوا أكثر قدرة على النقد وأن يصبحوا مفكرين واعين.

وكما هو الحال أيضًا في التعليم العالي، تمنيت أن أقوم بدوري الفردي لإحداث بعض التغيرات الضرورية جدًا في مدارس بلادنا. ولكن أثناء

تفلسفي مع الأطفال لم يكن طموحي أن أطور منهجًا آخر لأولئك المدرسين المرهقين، أو أن يحل المقهى محل المناهج التقليدية بالمدارس - في الواقع، لم يكن لدي رغبة في استخدام أي منهج على الإطلاق. كنت أريد التفلسف مع الأطفال بنفس الطريقة، وباستخدام نفس الوسائل، التي أستخدمها مع الكبار. ومن خلال العمل على أطراف محيط المدرسة - عبر إقامة نادي الفلاسفة أثناء الدوام المدرسي وبعده - أطمح إلى تقوية وتدعيم ما تقوم به المدرسة. ومن خلال غرس المهارة الرابعة والمهمة «التفكير»، كنت أطمح إلى أن يعطيهم ذلك حماسًا أكبر لتعلم المهارات الثلاث التقليدية؛ القراءة، والكتابة، والحساب. ولكنني كنت أتمنى أيضًا أن يلهمهم ذلك ليكونوا خبراء ومحققين في طرح الأسئلة، لا يخافون من أي أحد يحاول أن يكبح جماح فضولهم. إذا تحقق هذا الحلم، فإنني سأكون مطمئنًا إلى أن هذا الجيل من الأطفال سيكون أكبر أمل لنا في صنع تغييرات حقيقية وضرورية لجعل مدارسنا وجامعاتنا مختبرات للتعلم الإبداعي والتحقيقي متعدد التخصصات، قادرة على التطور باستمرار، تسعى دومًا لتشجيع النظرة التخيلية والتفكير العقلاني.

مع ذلك، يبقى هدفي الأساسي هو نشر الوعي الفلسفي إلى ما وراء المدارس والجامعات والمقاهي. أنا أؤمن أنه إذا كنّا نريد جعل مجتمعنا أكثر مشاركة، أكثر ديموقراطية، فلا بد لكل فرد أن يشعر أن له دورًا في العملية. يجب أن يفهم كل فرد بوضوح أن ما يقوله أو يفكر فيه أو يفعله مهم ومؤثر. عندئذٍ فقط سيتحمس الناس من جميع مشارب الحياة ليفصحوا عن مرئياتهم حول الحياة، وتوسعة آفاقهم عبر المشاركة في مساعٍ تكميلية للمعرفة والتفوق البشري.

كنت قد حزمت أشيائي وتركت المنزل قبل ساعات. وكنت في طريقي إلى منزلي الجديد في ولاية نيوجيرسي، حيث قررت الاستقرار، ولكنني كنت

أفكر في العودة مع كل خطوة في ذلك الطريق. وكلما تقدمت أكثر بسيارتي، ازدادت قوة الرغبة في العودة. في النهاية أوقفت سيارتي على جانب الطريق. لم أتمكن من الاستمرار، ولكني كذلك لم أتمكن من العودة.

«ما الذي أقوم به؟» قلت لنفسي ويداي ما زالتا تمسكان بشدة على عجلة القيادة.

كنت أردد هذا السؤال كشعار احتجاجي دون أن أنتبه.

شعرت أني تائه بشكل مخدر - غريب عن نفسي، ولا أملك أدنى فكرة عمّن أكون، أو ما أريد. شعرت أني تخليت عن نفسي في اللحظة التي احتجت فيها نفسي أكثر من أي وقت مضى.

مضت ساعة. وفي النهاية، في مكان ما بداخلي، سمعت صوتًا يأتي من تحت جبال الشك قائلاً: «أنت تمضي تجاه أحلامك».

أخرجت ورقة متجعدة من جيبي. هذه ورقة حملتها معي لسنوات، وهي جزء من صفحة من ورقة مهمومة طبع عليها كلمات مقتبسة من يوهان فولفغانغ فون غوته، الشاعر الرومانسي والروائي والعالم الألماني العظيم، والذي كان بصدق محققًا سقراطيًا في نهاية القرن التاسع عشر. على تلك الورقة كانت هذه الكلمات من غوته: «إلى أن يصبح الفرد ملتزمًا، سيبقى هناك تردد، وفرصة للتراجع، وانعدام للفعالية. ومع أخذ جميع أفعال المبادرة والابتكار بعين الاعتبار، فإن هناك حقيقة أساسية واحدة يكون تجاهلها سببًا في قتل عددٍ كبيرٍ من الأفكار والخطط الرائعة: يتبع اللحظة التي يلزم بها الفرد نفسه سيل من الأحداث الذي ينحدر من القرار، والذي يرفع من حظ الفرد في مواجهة الأحداث غير المتوقعة واللقاءات والمساعدات المادية، التي لا يحلم أي شخص أنها كانت ستأتي إليه. أي شيء يمكنك عمله، أو تحلم بعمله، ابدأ به. الجرأة تحمل معها عبقرية، وقوة، وسحرًا. ابدأ بها الآن».

طويت الورقة ثم أدخلتها في جيبي. وضعت كراسة ورقية على مقعد الراكب بجانبي وكتبت بأحرف كبيرة مستخدمًا قلمًا عريضًا أحمر اللون ما سأفعله حال وصولي إلى نيوجيرسي: (١) أسس مجموعات نقاش فلسفي للعامة في المقاهي، ودور رعاية المسنين ومراكز كبار السن، في المدارس وفي رياض الأطفال، في المراكز الاجتماعية وفي السجون وفي دور رعاية المحتضرين - في أي مكان يتوق فيه الناس إلى التساؤل فلسفيًا، (٢) ابدأ الآن.

لأول مرة أكتشف أن لا مجال للرجوع. لأول مرة، فإن مخاوفي وشكوكي المفهومة ساعدت في توضيح أهمية المضي قدمًا إلى نيوجيرسي. لأول مرة أشعر كم احتجت إلى نفسي، وأنني إن تجرأت الآن على الرجوع، فإنني سأهجر نفسي بطريقة يصعب نسيانها.

شغلت المحرك، وبدأت بقيادة سيارتي.

حينها كنت بصدق، في طريقي، إلى وجهتي.

***



ما علاقة الحب بذلك؟

كانت الساعة السابعة مساءً، وقت بداية مقهى سقراط، ولم يحضر أحد بعد.

لقد كان ذلك ثاني أسبوع منذ أن بدأت مقهى سقراط جديد في مدينة مونتكلير بولاية نيوجيرسي. عدد قليل من الأفراد حضروا الجلسة الأولى يوم الثلاثاء الماضي. لكن هذا الأسبوع يبدو أني سأبقى لوحدي.

مثل هذه الأشياء تحتاج إلى وقت كي تنجح. هذا ما أقوله لنفسي، وأنا أجلس على الكرسي مثل جلوس تمثال المفكر لرودين. ولكنني مع ذلك يراودني شعور سيء. أتساءل ما إذا كنت أضيع وقتي، وما إذا كان من الحماقة والمجازفة أن أحاول بعث الحياة في روح سقراط. الأفكار السلبية المزعجة تبدأ بالتسلل: الناس مشغولون جدًا، منغلقون على أنفسهم، ومتأكدون جدًا من أنهم يملكون الإجابات، فما الذي سيجذبهم للمشاركة في أخذ وردٍ سقراطي. لو أن أحدًا توقع في تلك اللحظة أن الحضور في هذا المقهى كل ثلاثاء سيزيد عن أربعين شخصًا خلال عشرة أسابيع فحسب، وأنهم يحضرون ليتفلسفوا معي، وأن هذه الفعالية ستسبب ثورة من اهتمام وسائل الإعلام الوطنية، لأخبرت ذلك الشخص أنه مجنون.

بعد خمس دقائق جاءت امرأة. توقفت عند المدخل لحظة وهي تراني جالسًا لوحدي على ذلك الكرسي. لا بد أنني كنت أبدو كالساذج بجلوسي وحيدًا، فلم يكن غيري في ذلك المكان، حتى العاملين في المقهى كانوا بالمطبخ

في تلك اللحظة. بدا كأنها تفكر في الرحيل، لكنها لم ترحل. على الأقل ليس بعد. سألتني: «هل هذا مقهى سقراط؟»

أجبتها: «نعم. يبدو أنه لا يوجد غيرنا اليوم».

تبسمت فظهرت علامات جذابة في صدغيها. كان لها شعر أسود طويل، وعينان بنيتان دافئتان. كان وجهها يحمل الكثير من الألوان الطبيعية إلى الحد الذي يصبح من الجريمة استخدامها للمكياج. كانت تلبس ثوبًا قطنيًا أبيض مخيط يدويًا مع تطريزات متشابكة بشكل جميل.

قررت أن تبقى. قمت من الكرسي، وجلسنا على إحدى الطاولات.

سألتها: «هل لديك أي سؤال محدد في ذهنك ترغبين في الحديث عنه؟»

ترددت لبرهة قبل أن تجيب. ثم قالت: «نعم، لدي سؤال».

انتظرت.

ترددت لبرهة أطول. كانت تحرك المنديل بأصابعها، وظننت أنها نست وجودي. في النهاية رفعت رأسها ونظرت إلي.

ثم سألت: «ما هو الحب؟»

«ما هو الحب؟» هو كل ما تمكنت من قوله. لم تجب. وبقينا في صمت مربك.

في النهاية قلت: «سقراط ادعى الجهل النسبي في كل مجالات المعرفة – ما عدا الحب. في حوار (لايسيس) لأفلاطون يقول: في الوقت الذي قد أكون فيه عديم الفائدة في كل المجالات، فقد أعطتني الآلهة إلى حد ما المهارة في التعرف بسهولة على المحب والمحبوب».

ردت علي: «في حوار (سيمبوزيوم) يقول سقراط: لا أجد سبيلاً لرفض

الحديث عن موضوع الحب، حيث لا أملك أي معرفة في أي مجال، إلا في الموضوعات التي تتعلق بالحب».

لاحظت نظرة الدهشة على وجهي وتبسمت ثم قالت: «حوار (سيمبوزيوم) هو أحد أفضل حوارات أفلاطون. بالنسبة لي هو بجمال سوناتات شكسبير».

تبسمت بدوري ثم قلت لهذه المرأة الغامضة: «أظن أن عليّ الاعتراف أنني أختلف مع سقراط في هذا الموضوع. أنا أشعر أن بإمكاني الحديث بثقة أكبر في أي موضوع تقريبًا سوى الحب. ولكن إذا أردنا أن نخوض نقاشًا حول الحب، فإن من الحكمة أن نطرح نفس الأسئلة التي طرحها سقراط عندما ناقش سؤال ما هو الحب؟ لأنه شعر أنه لا يمكن الإجابة إلا بعد فهم طبيعته وآثاره».

قالت: «يعجبني كثيرًا ما يقوله سقراط في (سيمبوزيوم) أن الحب، أو إيروس (إله الحب)، يصل السامي بالدنيوي، ويعطي للحياة الإنسانية معنى. أنا أتفق مع سقراط بأن الحب هو توق الروح للجمال. يعجبني ذلك لأنه لا يعبر عن الحب بوصف جامد. بل يعطيه وظيفة وغاية ساميتين.»

في الفكر الإغريقي القديم، كان الحب يعتبر في الأغلب ذا طبيعة جنسية، وكان إيروس إله الحب الجنسي لدى الإغريق. في نهاية الأمر، وبسبب أعمال أفلاطون تحديدًا، توسّع مفهوم الحب وأُعيد تعريفه. كان أفلاطون يعدّ الحب «القوة» النافذة في كل أفعال الإنسان ودوافعه، وصار إيروس يمثل تجليات عديدة للحب. سقراط أفلاطون قال إن الحب يبدأ بشخص معين كمادة له، مما يؤدي إلى العلاقة الجسدية بين شخصين. وهذا الحب يتسامى في النهاية ويتوجه نحو الجمال في شخص ما. ولكن كما قالت المرأة التي تشاركني هذا النقاش بشكل بليغ جدًا أفلاطون قال بوضوح في (سيمبوزيوم) إن حتى

هذا التجلي لإيروس ليس إلا محطة في الطريق إلى نماذج أسمى من الحب؛ حب البشرية، حب كل الحقيقة والجمال، حب الجمال المطلق الذي يسمو فوق الواقع. وفي نهاية (سيمبوزيوم) يقول ديوتيما إن الحب ليس مجرد شي يمكن تعريفه ببعض الكلمات المنمقة، بل يجب رؤيته وإحساسه وتخيله وتجربته. تشارلز ساندرز بيرس، فيلسوف العلوم واللغات الأمريكي المعروف، والذي كان وحيدًا طيلة حياته، كان يعتقد أنه قد جرب هذا النموذج المتسامي من إيروس - هذا الاتحاد الدائم في أشكال جمالية - الذي وصفه ديوتيما. بيرس قال إنه عندما باشر في تحقيقاته الفلسفية كان مفعمًا بالحيوية بسبب إيروس حقيقي.

بعد صمت ملحوظ، قالت الشابة لي: «الحب هو رد فعل. الحب هو شيء يتم التعبير عنه، ويتم إظهاره، ثم يقود إلى ذلك المكان الرفيع في داخلنا ولكنه أيضًا يسمو فوقنا. ولكن الوصول إلى هذا المكان صعب جدًا، جدًا».

«صحيح»، أقصد بها نفسي، أكثر مما هي رد عليها.

قضينا قرابة الساعتين في محاولة استيعاب هذا المفهوم العميق جدًا ولكن في نفس الوقت يصعب فهمه بالكامل، الحب. كنت أواجه صعوبة طوال ذلك الوقت في التركيز، أو على الأقل كنت أشعر أني أكون في جزء من النقاش ثم أجد نفسي قد حلقت بذهني إلى مكان آخر. في مرحلة ما من النقاش ذكرت أن رد فعلي تجاه الحب في أغلب الأحيان هو أن أهرب منه، أو على الأقل أقترب منه بحذر. ولكن مع استمرارنا في الحديث، رأيت نفسي أفكر أن هناك أوقات أيضًا لا يمكن فيها الهروب من الحب، بل تجده يطوقك من كل مكان.

كان اسمها سيسيليا تشابا، وهي من مدينة مكسيكو سيتي. تبين أنها طالبة بالجامعة هنا، تدرس للحصول على درجة الماجستير في التعليم.

حاصلة على درجة البكالوريوس في الفلسفة، وأخبرتني أنها تتمنى أن يأتي اليوم الذي تفعل فيه بطريقتها الخاصة مثلما أفعل؛ إعادة الفلسفة «إلى العامة من الناس». في العام الماضي كانت تعمل معلمة بمدرسة للسكان الأصليين بمدينة تشياباس بالمكسيك، وهي ولاية ريفية في الجزء المنقطع والبعيد والفقير جنوب البلاد، حيث تشن «الزاپاتيستا» على مدى سنوات طويلة حرب عصابات لتضع حدًا لمحاولات الحكومة لاستغلال قبائل السكان الأصليين[1]. بعد حصولها على درجة الماجستير تنوي أن تكرس حياتها لمساعدة الأطفال المحرومين، من خلال إعانتهم على أن يساعدوا أنفسهم، عبر غرس مهارات التفكير النقدية والإبداعية التي سيحتاجونها مستقبلاً إن أرادوا تمكين أنفسهم ومجتمعاتهم، لأنها تؤمن يقينًا أن الأطفال هم مستقبلنا وهم خلاصنا.

دخلنا في لحظة صمت بعد مدة. صرت أراقبها وهي ترتشف كوب الشاي، الذي برد الآن، فقد طلبته قبل ساعتين تقريبًا. كانت تتبسم مع نفسها، ثم نظرت إليّ مباشرة وقالت: «الجزء المفضل لدي من حوار (سيمبوزيوم) لأفلاطون هو خطبة أريستوفان».

إنه الجزء المفضل لدي أيضًا. وكطفل لا يمل من الاستماع إلى قصة ما قبل النوم المفضلة لديه، استمعت إلى سيسيليا منطربًا وهي تقول: «يحكي أفلاطون قصة - أو ما يطلق عليها الناس خرافة، ولا أظن أني أتفق معهم - وهي أن الجنسين لم يكونا في الأصل اثنين كما هما الآن. كانوا في السابق رجل، وامرأة، وثنائي الجنس وهو اتحاد الاثنين معًا. هذه الأجناس كانت تامة، وكان لديها أربعة أيدي وأربعة أقدام ورأس واحد ذو وجهين. كان

١- جيش زاباتيستا للتحرر الوطني: مجموعة سياسية وعسكرية ليبرتارية اشتراكية تتحكم بأقاليم كثيرة في تشياباس.

الإله زوس يرى الجنس البشري متزايدًا في غطرسته وعنجهيته، ولكي يكبح ذلك، قام بقطع كل جنس من هذه الأجناس الثلاثة إلى نصفين. ومنذ ذلك الحين يبحث كل نصف عن نصفه الآخر، وكلما سنحت لهما الفرصة طوقوا أذرعتهم حول بعضهم البعض، وهم في توق دائم إلى أن يعودوا جسدًا واحدًا مرة أخرى».

ثم قالت سيسيليا: «انتظر، أريد أن أقرأ هذا الجزء من هذه الفقرة حرفيًا، لأنه جميل جدًا». ثم أخرجت من حقيبتها نسخة من حوارات أفلاطون تجاوزت ثني أطراف الصفحات بمراحل، وفتحت بسرعة الصفحة التي تريد قراءتها. «وحين يلتقي أحدهم بنصفه الآخر، نصفه الحقيقي... يتوه الزوج في الذهول بالحب والصداقة والحميمية، ولن يخرج أيٌّ منهما عن مرأى الآخر حتى للحظة: هؤلاء هم الأشخاص الذين يقضون حياتهم كلها معًا». توقفت عن القراءة، مع أن الكلام لم ينته. أقفلت الكتاب ووضعته جانبًا. صارت تنظر إلى الأسفل وهي ترتب ثنايا ثوبها. ثم نظرت إليّ بابتسامة لا يمكنني بوصفها إلا بالغامضة والمقلقة.

أظن أنه في تلك اللحظة خطر ببالي أن أسألها: « كيف تعرفين أنك مغرمة؟»

ولكنني لم أسألها. ليس في تلك اللحظة. انتظرت ما يقارب السنتين، ثم سألتها. بعد أن تزوجتها.

***

الفصل الرابع

ماذا يعني كل ذلك؟

«كنت دومًا، ولم أزل، مخلوقًا لا بد أن يهتدي بالتساؤل التأملي»

سقراط

استحضار ماضي التفلسف

«هل لا زلنا نتفلسف بنفس القدر الذي كنا نقوم به سابقًا؟»

لم تتمكن باتريشيا، المرأة المفعمة بالحيوية في السبعينيات من عمرها، من الصبر حتى أجلس على مقعدي لتطرح هذا السؤال. كالمعتاد، كنّا في غرفة التواصل بالمجمع السكني الخاص بكبار السن من ذوي الدخل المحدود في شمال ولاية نيوجيرسي. كان المبنى مصنوعًا من الطوب الأحمر، وخاليًا من أي زينة أو زخارف. في هذا المكان، كنت أقيم مقهى سقراط مرة أو أكثر في الشهر، بعد الظهيرة من يوم الجمعة. والمقيمون هنا مجموعة متنوعة مثيرة للجدل وعميقة التفكير، ومتشبعة بالروح السقراطية. يتحدّون، ويلهمون، ويثيرون غضب بعضهم البعض، وكذلك أفعل أنا - لكننا نحب بعضنا البعض كثيرًا. غرفة التواصل مضيئة وبهيجة، يسطع بها ضوء الشمس بقدر كبير. يجلس المقيمون حول طاولات مستديرة صغيرة، مغطاة بمفارش منقوشة ومزينة بمزهريات تحوي زهورًا حريرية، يشربون القهوة ويأكلون الكعك. يبدو المكان كالمقهى.

سألت باتريشيا بعد أن استقريت على مقعدي الذي أحضرته إحدى المقيمات من شقتها لكي أستخدمه: «ماذا تعنين؟»

قالت باتريشيا بصوت مرح: «أتساءل ما إذا كنّا نتفلسف بنفس القدر الذي كان يتفلسف به أسلافنا في الماضي. على سبيل المثال، أعتقد أن القادة الذين كتبوا إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية كانوا يتفلسفون

كثيرًا. أما في هذه الأيام، فإن السياسيين لا يتفلسفون أبدًا. أو على الأقل، لا يتفلسفون بشكل جيد».

قلت: «قبل أن نتمكن من إجابة هذا السؤال، ربما يجب علينا أن نحدد ما هو التفلسف. ويليام جيمس كان يرى أن التفلسف هو نقد الحس العام. وأظن أن ما كان يقصده هو أنه يجب علينا النظر بجد نحو المفاهيم التي نستخدمها كل يوم ونظن أننا نستخدمها بوضوح - إلى الحد الذي يجعلنا نظن أننا نفهمها ونتفق حولها - لنرى ما إذا كانت حقًا بالوضوح والعقلانية التي نعتقدها، أو إن كان هناك ما هو أكثر، أو أقل، مما نراه على السطح».

لم يقل أحد أي كلمة للرد على ما قلت، فخشيت أنني لم أكن واضحًا. لكن باتريشيا جاءت للنجدة واقترحت: «لماذا لا نستخدم تعريف ويليام جيمس للتفلسف في محاولة للإجابة عن سؤالي؟ دعنا ننظر إلى بعض المفاهيم المذكورة في إعلان الاستقلال ولنرى إن كانت بالفعل تُستخدم بالوضوح والعقلانية التي فكر فيها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية.»

قلت وأنا أرى أغلب الموجودين يهزون رؤوسهم بالموافقة: «هذه فكرة رائعة، لنأخذ الجزء من نص الإعلان الذي يقول: «نحن نؤمن أن هذه الحقائق بديهية، وأن جميع الناس خلقوا متساويين». هل تعتقدون أن قدرًا كبيرًا من «التفلسف الجيد» كان وراء صياغة تلك الجملة؟»

جانيس، التي كانت ترتدي ثوبًا مزخرفًا بأزهار ملونة وقبعة مكسوة بالريش لو كانت ترتديها أي امرأة أخرى لبدت صارخة في البهرجة، قامت من كرسيها كما تفعل دومًا قبل البدء بالكلام. وقالت هي تسند نفسها بأطراف أصابعها على الطاولة أمامها: «لا أعلم مقدار التفلسف الذي أنتج تلك الجملة، لكن بغض النظر عن ذلك، فإنه لم يكن تفلسفًا جيدًا. لأنه من

غير الصحيح أننا جميعًا خلقنا متساوين. كل فرد منا يشغل حيزًا مختلفًا، كل فرد منا يمر بتجارب مختلفة، كل فرد منا لديه مهارات مختلفة. لا نحصل على نفس الفرص في تحقيق السعادة، ولا نحصل على نفس المقدار من الصحة، ولا نحصل على فرص متساوية. لذا، قد نكون بالفعل خلقنا بالتساوي - فكل فرد منا يُولد من رحم أمه - لكننا لم نخلق متساويين».

تحدثت بعد ذلك امرأة نحيلة مفعمة بالحيوية، ذات ملامح رزينة، كانت تجلس على نفس طاولة جانيس، فقالت: «لا أظن أننا جميعًا خلقنا بالتساوي حتى بالطريقة التي تصفها جانيس. بعض الأطفال يولدون لأمهات يعانين من سوء التغذية. بعضهم يولد لأمهات وآباء يدخنون أو يتعاطون المخدرات. بعض يتعرضون للكوكائين أثناء الحمل مما تتعاطاه أمهاتهم. بعضهم يولد بعد حمل عسير تشوبه المضاعفات الصحية قد يؤدي إلى أضرار بالأطفال لا يمكن علاجها».

ثم تحدث رجل لطيف المظهر، أنيق الملبس، ذو شارب كبير كان يقوم بشده وتحريكه باستمرار: «أعتقد أن جملة «أن جميع الناس خلقوا متساوين» هي جملة تهكمية. ما كانت تعنيه هو أن كل الرجال البيض الميسورين خلقوا متساوين. لم يكن لأحد غيرهم أي حقوق. لذا، نظرًا لعدم وجود تمثيل حقيقي لكافة الفئات التي عاشت في المستعمرات التي أسست الولايات المتحدة للمشاركة في صياغة إعلان الاستقلال، لقد تفلسفوا حول مفهوم «المساواة» بشكل سمح بالعبودية، ضمن أوجه صارخة أخرى من عدم المساواة. الآباء المؤسسون للولايات المتحدة الأمريكية كانوا سادة ما تعنيه المساواة، لذا كانوا السادة في تحديد من يكون متساويًا ومن لا يكون».

عندئذٍ قالت باتريشيا: «الآن بدأت أتساءل ما إذا كان الآباء المؤسسون جيدين في التفلسف مثلما كنت أظن. كلما استمعت إلى ما يقوله الآخرون

هنا، شعرت أنها كانوا يتفلسفون بنفس السوء الذي يتفلسف به الناس هذه الأيام».

قلت: «يجب ألا نصدر عليه حكمًا على عجل. أظن أننا نحتاج إلى النظر إلى إعلان الاستقلال ضمن سياق الزمن الذي عاشوا فيه. وأظن أن الغالبية يتفقون على أن ما كتبوه هي وثيقة تقدمية وجريئة بشكل استثنائي.»

لم يأتِ مبدأ تساوي كل الناس من إعلان الاستقلال. الفيلسوف المادي التجريبي الإنجليزي توماس هوبز، أحد مؤسسي الفلسفة السياسية الحديثة، طوّر في كتابه المعروف (اللفياثان) الذي نشر في عام ١٦٥١ مفهوم «فلسفة المساواة الطبيعية» والتي تقول بأن جميع الناس متساوون في قدراتهم الجسدية والعقلية. ليس بمعنى أنهم يمتلكون نفس الدرجة من القدرة العقلية والجسمانية من جميع الجوانب، ولكن - حسب رأي هوبز - فإن نواقص كل فرد في جهة ما يتم تعويضها من جهة أخرى. هذه الرؤية أثرت بشكل كبير فيما تبعها من فلسفات أخلاقية وسياسية. وقد كتب باروخ سبينوزا في كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة) والذي نشر في عام ١٦٧٠ أن الديموقراطية هي «أقرب أنواع الحكومات إلى الطبيعة وأكثرها انسجامًا مع الحرية الفردية» لأن «كل الناس يبقون متساوين، كما هم في حكومة الطبيعة». وفي عام ١٦٩٠ طرح الفيلسوف الإنجليزي جون لوك، والذي كان المؤسس الأكثر تأثيرًا في التجريبية البريطانية، نظريته السياسية في (رسالتان في الحكم) حيث كان يرى أن كل الناس «بالطبيعة، كلهم أحرار، متساوون، ومستقلون». كما أكد على تلك الآراء المفكر الفرنسي السويسري المولد، جان جاك روسو في كتابه (العقد الاجتماعي) الذي نشر في ١٧٦٢؛ وهذا الكتاب كان له أثر كبير في الفلسفة السياسية، ومثل ذلك في نظريات التعليم، والحركة الرومانسية. أشار روسو في النص الافتتاحي إلى أن كل الناس متساوون حيث يقول إن

«كل فرد يولد حرًا». وبعد نشر الكتاب بوقت قصير، أخذ كاتبو دستور ولاية ماساشوستس كلمات روسو وجعلوها واضحة في نص الدستور: «كل الناس يولدون أحرارًا ومتساوين، ولديهم حقوق مؤكدة، وطبيعية، ولازمة، وغير قابلة للتصرف». جعل إعلان الاستقلال فلسفة المساواة أكثر صراحة من خلال ذكره أن حالة الحرية والمساواة للفرد هي حقيقة «بديهية». ومن المهم التفلسف حول معنى المساواة، ولكن جعل هذا المفهوم حجر أساس للدولة، كما فعل الآباء المؤسسون، كان بلا شك أمرًا تقدميًا وجريئًا - حتى إن لم توافق الأفعال الكلمات. ففي حين كان توماس جيفرسون الذي كتب الإعلان هو نفسه مالكًا للعبيد وكان يؤمن بعقوبة الإعدام، إلا أن كلماته أعطت أجيال المستقبل الذخيرة اللازمة للسعي نحو تحقيق ما دعا إليه الإعلان.

بعد ذلك قلت للمشاركين في مقهى سقراط: «دعونا الآن نأخذ النصف الثاني من النص الذي اقتبسته من إعلان الاستقلال، حيث يرى الآباء المؤسسون أيضًا أنه من البديهي أن كل الناس «قد وهبهم خالقهم حقوقًا مؤكدة غير قابلة للتصرف، من ضمنها الحياة، والحرية، والسعي نحو السعادة». حتى وإن لم يكونوا منسجمين مع تطبيق المفاهيم في تلك النصوص، ألا تعد تلك خطوة كبيرة إلى الأمام في مجال حقوق الإنسان؟»

وقفت جانيس من جديد، وبتعبير مشاكس قالت: «أعتقد أن هذا النص هو مقطع تفلسف ذكي. إنه يشير إلى أنه مع أننا جميعًا نملك حقوقًا متساوية للسعي نحو السعادة، إلا أنه لا يوجد أي ضمانة على أن أي فرد منا سيصل إليها. لو كنا جميعًا خلقنا متساويين كما قالوا، فهذا يعني أن لو واحدًا منّا حقق السعادة، فإن بقيتنا يجب أن يحققوها أيضًا. ولكن في الواقع الأمر ليس كذلك.»

«الآن بدأت أتساءل ما إذا كانت السعادة مهمة في الأساس!» قالت باتريشيا. يبدو أنها متفاجئة أن فكرة كهذه خطرت لها، ثم قالت: «هناك أمور أهم من السعادة. في البداية يجب أن يكون لديك طعام كافٍ لك ولأسرتك. يجب أن تتمتع بصحة جيدة. أظن أن هذه الأمور أهم من السعادة».

قال رجل محدودب يظهر عليه الذبول، بدا حتى تلك اللحظة كأنه مشغول بأفكاره ولم يشارك بأي كلمة: «أظن أن السعادة مهمة، ولكن المهم أنك لا تتعدى على الآخرين بشكل سلبي وأنت تسعى نحو السعادة.»

سألت: «كيف نمنع الناس من التعدي على الآخرين بشكل سلبي؟»

قال: «هنالك قوانين مكتوبة الغرض منها إبقاء دوافعنا السيئة تحت السيطرة. أعتقد أن ذلك قيد ضروري على حرياتنا وضعه الآباء المؤسسون في الدستور. لذا فإن الآباء المؤسسين تفلسفوا جيدًا برأيي، عندما كتبوا هذا الجزء من النص».

نوع الحرية التي يتحدث عنها – الحرية لعمل أي شيء تريد من دون أية قيود – هي التي أسماها هوبز في (اللفياثان) «الحرية الطبيعية». كان هوبز يرى، مثلما يرى الآباء المؤسسون، أن هذه الحرية تستحق الاستغناء عنها. وكذلك كان هوبز يؤمن أن دولة الطبيعة، التي يمكن للفرد أن يفعل فيها أي شيء يريد دون أية موانع، هي دولة الشقاق الأبدي التي تدفع كل فرد إلى النزاع مع كل فرد آخر. يقول هوبز: «عندما لا يكون هناك سلطة عامة، لا يكون هناك قانون: حيث لا قانون، لا ظلم». كان هوبز يرى أن مثل هذه الحرية هي حرية سلبية تحتاج للاستبدال بـ «الحرية المدنية»، وهي نوع من الحرية تحصل عليها عندما تغادر دولة الطبيعة وتشكل الكومونويلث (الأمة). ولذلك عدّت كنيسة إنجلترا هوبز مهرطقًا لدفاعه عن استقلالية الحياة الدينية. كان يعتقد أن العقد الاجتماعي هو فقط ما يحمي ضد «حرب

كل فرد ضد كل فرد» والتي تشكل الدولة الطبيعية، حيث حياة الإنسان «قذرة، ومنعزلة، ووحشية، وقصيرة».

في النهاية قال مشارك آخر: «أتساءل أين نضع الخط الفاصل بين القوانين التي تحد من قدرتك على التصرف بناءً على دوافع معينة وبين القوانين شديدة التقييد التي تجعل من الحكومة شيئًا من قبيل (الأخ الأكبر)»[1].

قالت ريتشل، الشابة المفعمة بالحيوية ومديرة البرامج بدار كبار السن: «أنا لا أتناول اللحم لأنني أؤمن أن ذلك غير إنساني، ولكنني أحترم حق الآخرين في تناوله. لا أريد أن أكون الأخ الأكبر في هذا الموضوع وأجبرهم على أن يفعلوا مثلما أفعل».

قلت: «هممم. إذا كنتِ ضد أكل اللحم أخلاقيًا لأنك تؤمنين أنه فعل غير إنساني، فهل يمكنك القول بصدق أن تناول الآخرين للحم لا يضايقك؟»

قالت بتردد: «نعم».

سألتها: «إذًا ما رأيك في القوانين التي تفرض عليك الآن ربط حزام السلامة في السيارة؟»

قالت: «أرى أن كل شخص يجب أن يكون له الحق في أن يقرر هل يربط الحزام أم لا يربطه».

استدارت هيلينا ذات الخمسة والثمانين عامًا، والتي شاركت بفعالية في حركة الحقوق المدنية، نحو ريتشل وقالت وهي تضع يديها على خاصرتيها: «هل هذا صحيح؟»

حينها لم تبدو ريتشل متأكدة من كلامها، وقالت في النهاية: «أظن ذلك».

---

١ - الأخ الأكبر: مصطلح يعني تحكم ومراقبة شخص أو مؤسسة لحياة الأفراد من الشعب.

عندها قالت هيلينا وهي تشير بإصبعها نحو ريتشل: «إذا لم ترتدي حزام السلامة فأنت تعرضين حياتك إلى الخطر، أنت تهددين حياتك، وتظهرين لنا أنك لا تمتلكين حس المسؤولية تجاه الأشخاص الذي تحبينهم، وتجاه أولئك - أمثالنا - الذين يعتمدون عليك. إذا لم ترتدي حزام السلامة عندما تقودين السيارة، فأنت تقولين إنك تقبلين بوضع نفسك أمام خطر أكبر وأنك تقبلين بوضعنا جميعًا - نحن الذين نعتمد عليك - أمام خطر أكبر. ما الذي نفهمه من ذلك عن طريقة تفكيرك في حياتك؟ وما الذي نفهمه من ذلك حول تفكيرك فينا؟»

جعل ذلك ريتشل تتوقف للحظة، ثم قالت: «لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة من قبل، أظن أنك محقة». ثم أضافت مع الكثير من العاطفة: «أرجو أن لا تقلقي! أنا أربط حزام السلامة دائمًا».

فمضت هيلينا نحو ريتشل واحتضنتها، ثم قالت وهي تربت على ظهر ريتشل: «نحن نعلم أنك تحبيننا يا عزيزتي».

سألت في النهاية: «ماذا يحدث عندما تتفلسف؟ ما الذي عمله الذين كتبوا إعلان الاستقلال بحيث يعد تفلسفًا؟»

قالت كلارا، المرأة المبتهجة ذات الشعر الأبيض الجميل، والتي هاجرت منذ عقود إلى الولايات المتحدة الأمريكية من كوبا هروبًا من نظام كاسترو: «لقد شاركوا في تبادل الأفكار، ولكنهم لم يكتفوا بتبادل الأفكار، بل قاموا بتطبيقها عندما وصلوا إلى ما يشبه الاتفاق بينهم».

قالت هيلينا: «أعتقد أنه كان من الممكن أن يستفيدوا من مساعدتنا في كتابة إعلان الاستقلال»، وبدا أن الموجودين يتفقون معها.

عندها قالت جانيس: «يبدو لي أنهم كانوا يحتاجون إلى سقراط ليساعدهم في كتابة ذلك الإعلان».

سألت: «لماذا سقراط؟»

«لأنه كان من الممكن أن يجعلهم يتفحصوا المفاهيم الأساسية التي استخدموها في الإعلان بعناية أكبر. لكي يعرفوا إن كانت المفاهيم، كما يقول ويليام جيمس، واضحة ومنطقية مثلما كانوا يظنون - أو لو كان فيها أكثر مما تراه الأعين».

قالت باتريشيا: «لا أدري إن كانوا يحتاجون إلى سقراط، ولكنهم بلا شك كانوا يحتاجون إلينا!»

الروح الفلسفية

يعبر جون هيرمان راندال جونيور في كتابه (كيف تستخدم الفلسفة ماضيها) عن التفلسف بأنه «توصيف ونقد المعتقدات الأساسية المرتبطة بجميع المشاريع الكبرى للثقافة، والعلوم، والفنون، والأديان، والحياة الأخلاقية، والأنشطة الاجتماعية والسياسية للإنسان»، خصوصًا تلك المعتقدات التي تتعارض مع «المعرفة والحكمة الموروثة». ولم يتبنَّ أحد مهمة فحص ونقد الحكمة الموروثة في زمانه بشكل شامل ومستفيض مثلما فعل أفلاطون. فقد كتب حواراته في غمرة الفوضى بأثينا التي تبعت هزيمة ما تدعى بالـ «بوليس»، أو الدولة المدينية، في حرب بيلوبونيز التي استمرت ما يقارب الثلاثين عامًا. قبل الحرب، كانت أثينا قد مرت بفترة من الازدهار غير المحدود إلى جانب نهضة ثقافية كبرى، ولكن يبدو أنها صارت تشكك في مقوماتها وقدراتها. وتلك هي الظروف التي يُعتقد أن الشاب العشريني أفلاطون قد التقى خلالها بسقراط. وسريعًا ما أصبح أفلاطون مفتونًا بالشخصية الأخلاقية الفريدة لمرشده الجديد، وسعيه الفكري الشغوف نحو معرفة كيف يكون إنسانًا فاضلاً، وبعدها مباشرة، تعهد بالسير على خطى سقراط ونذر حياته للفلسفة.

ومع أن الديموقراطية قد عادت إلى أثينا بعد حقبة من حكم الأقلية، إلا أن سقراط صنع لنفسه الكثير من الأعداء في مناصب رفيعة بتساؤلاته الجريئة. ومحاكمته بتهمة الهرطقة، ومن ثم إدانته والحكم عليه بالإعدام،

جعلت أفلاطون يصاب بخيبة أمل إزاء سلطات أثينا، كما يتضح من كتاباته اللاحقة. ذكر جون هيرمان راندال أن أفلاطون «نظر، وجعل قراءه ينظرون، إلى المشاكل والشخصيات الرئيسية في فترة الازدهار الأثيني والثقة العمياء بالنفس في تلك الحقبة، بنظرات جمود وارتياب، مثل النظرات التي ينظر بها الإنجليزيون إلى عصر الأديب كبلينغ في وقت الإمبراطورية.»

إضافة إلى ذلك، تأثر أفلاطون كثيرًا بموت سقراط إلى الحد الذي جعله يشعر أن من واجبه أن يكون شاهدًا على حياته للأجيال القادمة، فصنع منه تلك الشخصية النموذجية، لا للفلسفة الغربية فحسب، بل نموذجًا لأرقى طموحات البشرية من وجوه عديدة. يقول والتر كوفمن إن حوارات أفلاطون في تصويرها الرائع لسقراط «رفضت بازدراء طمأنينة الخيال الذهني والأخلاقي الكسول» وعلمتنا «عدم قبول الالتباسات» وغرست فينا «شغف التفكر». الحوارات تتحدى وجهة نظرك عند كل مفترق. ومن الصعب أن تقرأها وتخرج سالمًا من دون تغيير.

***

اعرف ذاتك على مسؤوليتك الشخصية

لقد مضت أشهر منذ أن قمت بتأسيس مقهى سقراط. وكنت قد نقلت جلساتنا الفلسفية إلى أحد المقاهي بمدينة مونتكلير، في نيوجيرسي. كان المبنى الذي كنّا نجلس فيه بمساحة غرفة نوم كبيرة، وكان يقع على شارع رئيسي نشيط في الجزء القديم من مركز المدينة الصغيرة متعددة الأعراق. انتقلنا إلى هنا بسبب سهولة الوصول إليه للكثير من الناس، يأتون من مختلف توجهات الحياة. في هذا المقهى، تشعر أنك في عالم آخر. الأرفف مليئة بكتب ومجلات ليقرأها الزبائن. الجدران مغطاة بلوحات فنية عصرية. نسائم موسيقى الغيتار الكلاسيكية تصدح من جهاز الستيريو. إنه المكان المثالي لتفلسفنا حتى ساعات الصباح. وفي واقع الأمر، فإن مقهى سقراط أصبح ضرورة أسبوعية لما يقارب الخمسين من المقيمين في هذه المنطقة.

انتهى النقاش قبل قليل. سؤال هذه الليلة كان «كيف تعرف أنك قد عرفت نفسك؟»

«لا يمكنك معرفة نفسك إلا في الأزمات»، قال جيم تيلور قرب نهاية الحوار. جيم رئيس مؤسسة علاقات عامة ناجحة، وهذه هي المرة الثالثة خلال هذا النقاش التي يدلي فيها بنفس الفكرة، وفي كل مرة كان يبدو أقل إقناعًا واقتناعًا بها.

سألته: «ألا يمكن للناس الذي يعيشون حياة بسيطة أن يعرفوا أنفسهم أيضًا؟ ألا يمكنك أن تعرف نفسك بنفس القدر، إن لم يكن بقدر أفضل،

من خلال الظروف الاعتيادية في حياتك أكثر من الأزمات التي قد تحدث؟»

جيم، الأنيق كالمعتاد بطلعته الرصينة، أصلح ربطة عنقه مع أنها كانت مثالية وفي مكانها الصحيح. اعتاد على عمل ذلك قبل الإجابة، ليس فقط لكسب مزيد من الوقت للتفكير، ولكن لأن ذلك ما يفعله أثناء التفكير. قال أخيرًا: «لا أظن ذلك. أعتقد أنك تصبح واعيًا بالفعل بمن هو أنت، وكل ما يتعلق بك، وما يمكنك فعله وما لا يمكنك فعله، في وقت الأزمات. لأنك تضع نفسك على المحك أثناء الأزمة».

«ألا تضع نفسك على المحك في أوقات لا علاقة لها بالأزمة؟» ضغطت عليه أكثر. «ألا تعتبر طريقة قضائك لحياتك العادية اليومية أعظم مقياس لمن تكون؟ ألا تضعك على المحك بطريقتها الخاصة؟»

استنتج في النهاية: «أعتقد أن كليهما يفعل. أعتقد أن الأزمات تجعلك واعيًا بأجزاء من نفسك لم تكن لتعرفها بأي شكل آخر. ولكنني أتفق معك في أن الطريقة التي أعيش بها حياتي كل يوم تفصح عمّن أكون. ولكن، رغمًا عن ذلك، أظن أن بيت القصيد هو أن أغلبنا لا يفكر كثيرًا حول من نكون، ودراسة من نكون، إلا في الأزمات.»

قلت: «ربما، ولكن قد نكون تسرعنا قليلاً. أعتقد أن علينا فهم ما هي الأزمة. يبدو لي أن عيش حياة عادية من الممكن أن يكون أزمة، أزمة طويلة المدى. لذا لست متأكدًا أننا في الأساس نتحدث عن أمرين مختلفين. أو على الأقل، أعتقد أن جزءًا من معرفتنا لأنفسنا هو معرفة نوع الأزمة التي نعيشها أو نواجهها في هذه اللحظة، إن وجدت».

وصولي إلى هذا الإدراك، أو الاكتشاف، حول تفكيري في مفهوم الأزمة بهذه الطريقة ما كان ليحدث لو لا نقاشي مع جيم.

حينها سألت مارثا: «عندما قال سقراط: «اعرف ذاتك»، هل تعتقدون أنه كان يعرف ما هي الذات وما هي المعرفة؟» مارثا دومًا تدفع نظارتها الذهبية الغريبة على طرف أنفها. لا أتذكر أنها طرحت يومًا جوابًا على موضوع نناقشه - ما عدا هذه الليلة، عندما طرحت جوابًا على صيغة سؤال استفزازي.

قالت ريكي، الشاعرة التي بدت حتى تلك اللحظة إما ضائعة في الفكرة أو كأنها قد قررت أن هذه المحادثة لم تكن تعنيها: «لا أظن أنه قام بتعريف أي من الكلمتين بشكل صريح، ولكنني أظن أنه قد عرف نفسه من خلال مشاركة الآخرين في نقاشات مثل هذه».

ثم أكملت: «لا أظن أن الذات شيء يمكن تعريفه، ولكن يمكن الإفصاح عنه. ذاتنا هي نحن، ما نقول، ما نفعل. ذاتنا هي وجهة نظر، أسلوب، تصرف، وليست شيئًا. إنها عمل متواصل».

أتمنى لو أستطيع أن أقول إننا عرفنا الذات بدقة بنهاية هذا النقاش، ولكن بالطبع لم نفعل، مع أننا كنا في بعض الأحيان نصل إلى أجوبة مبدئية. أعتقد أن كثيرين يتركون النقاش وهم يشعرون أنهم في حيرة أكثر من أي وقت مضى حول مدى معرفتهم لأنفسهم. جاء إلي في نهاية تلك الجلسة تيم، مقاول الطلاء، وقال: «لقد بدأت أتساءل الآن إن كان هناك في الأساس شيء اسمه الذات.»

قلت: «في حوار (غورغياس) لأفلاطون، يقول سقراط: «إني أفضّل أن تكون قيثارتي أو جوقة ما غير متناغمة وعالية الصوت بشكل مزعج، وأن يكون أكثر الناس غير متفقين معي، على أن أكون أنا، فردًا، غير متناغم مع نفسي أو متناقضًا مع نفسي». أظن أن الشيء الذي كان يعنيه بقوله فردًا هو أنه كان يعتقد أنه على صلة بذات، وتلك الذات لم تكن فقط وهمًا أو ضربًا

من الخيال بالنسبة له. وما أفهمه من ذلك هو أنه سقراط كان يشعر أن لديه القدرة على الهروب من مرافقة الآخرين عندما أراد ذلك، فإن ذاته كانت شيئًا لا يمكنه الهروب منه، حتى لو أراد ذلك».

لا يبدو أن هذا الكلام قد أراح تيم، فقال: «أتساءل ما إذا كان يريد أن يشعر بذلك فحسب، لأن من المزعج جدًا التفكير في أنه قد لا توجد ذات للهروب منها». وبهذه الفكرة الصارخة، ترك المقهى.

ألاحظ حينها شابًا طويلاً جدًا ذا ملامح حادة بارزة، وبشرة شاحبة، وعينين زرقاوين قويتين، يقف خلفي ويستمع لمحادثتي القصيرة مع تيم.

كانت الساعة ١٠:٣٠ مساءً، وعلى خلاف العادة، لا أشعر بالرغبة في البقاء أكثر والحديث مع أحد آخر. ولأسباب لا أفهمها جيدًا، أشعر أنني منهك جدًا. رأيت أنه يريد التحدث معي على انفراد، لذا أحاول جاهدًا أن أخفي امتعاضي من الكمين الذي نصبه لي. ومن دون أن ينبس ببنت شفة، صافحني. لم يقل أي كلمة خلال النقاش. في النهاية، وكان ما يزال ممسكًا بيدي، قال: «لو كنّا نقوم بحوارات مثل هذه في جامعتنا، لحصلت على درجة الدكتوراة في الفلسفة».

ومن دون تشجيع من جهتي، أخبرني أنه حتى الشهر الماضي كان طالب دكتوراة في الفلسفة في إحدى جامعات ولايات الغرب الأوسط الأمريكية. قال: «كنت على وشك الانتهاء من كتابة رسالة الدكتوراة. ولكنها لم تكن إلا هراءً. سأرمي بها في القمامة». سرح ببصره إلى شيء بعيد. ثم نظر إلي وقال: «إن من سخرية القدر أن يكون موضوعك هذه الليلة حول الذات، حيث إني كنت أكتب رسالتي حول الفرق بين الذات الحقيقية والذات المتخيلة. ولكنها كانت مكتوبة باستخدام الخزعبلات الأكاديمية. أنا متأكد أن أساتذتي كانوا سيعجبون بها، ولكنني كرهت نفسي وأنا أكتبها. لقد وصلت إلى فهم

ذاتي الحقيقية إلى الحد الذي عرفت فيه أن بروفيسور الفلسفة الأكاديمي ليس هو نوع الفيلسوف الذي أريد أن أكونه. في الحقيقة، وصلت إلى استنتاج أن أكثرهم ليسوا فلاسفة على الإطلاق. هم يتخيلون أنفسهم على أنهم فلاسفة، ولكنهم ليسوا فلاسفة حقيقيين. أظن أن ما يفعله بعضهم تحت قناع الفلسفة جريمة».

فكرت ما إذا كان ينبغي علي أن أثنيه عن قراره برمي رسالته في القمامة، ولكن قبل أن تسنح لي الفرصة لقول كلمة واحدة، قال: «لقد مضى وقت طويل وأنا أفكر بالتخلص من رسالتي للدكتوراة، ولكن نقاش الليلة أعطاني العزيمة لأتخلص فعلاً منها نهائيًا. أريد أن أكون مثل سقراط».

«ماذا تعني؟» سألته، وأنا أفكر في أن سقراط لم يكتب رسالة طيلة حياته، ولم ينشر شيئًا قط، لأنه لم يسعَ إلى أن يكون مدرسًا ملتزمًا بطرح فرضيات معينة.

أجاب: «ليس فقط لأن الأكاديميين يكتبون باستخدام رطانة خاصة بهم. بل إن أسوأ ما في الأمر هو أن أغلب الذين أعرفهم ممتثلون بشكل مخجل للأعراف والتقاليد. أنا أعتقد أن ذلك تدنيس. إن لديهم حصانة نادرة لامتلاكهم أمانًا وظيفيًا لا مثيل له، يسمح لهم بأن يكونوا مستقلين بشكل كامل تقريبًا. لذا قد تظن أنه لو كان لفئة ما أن يصبحوا نماذج للصرامة السقراطية، فإن تلك الفئة يجب أن تكون أساتذة الجامعات. ولكن على العكس، أغلبهم أكاديميون أعداء للسقراطية، ممن يكتبون مجلدات ضخمة حول موضوعات صغيرة. ومن النادر جدًا أن يعارضوا الحكمة المسلم بصحتها في زمنهم».

سألته: «ألا يمكنك أن تبقى في العالم الأكاديمي وتصبح مثل سقراط؟ ألا ترى أن أسهل شيء في العالم هو أن تهجر السفينة؟ ولكن إن كانت لديك

حقًا رؤية حول ما يمكن أن تتحول إليه الجامعات، إن كنت تطمح حقًا إلى أن تكون معلمًا سقراطيًا، لِمَ لا تبقى داخل أسوار الجامعة وتستمر في القتال من أجل الخير؟»

ذلك جعله يتوقف لحظات. «لا أدري...»

قلت له: «لِمَ تتخلص من كل السنوات التي قضيتها في التعلم؟ أفهم لماذا تريد التخلص من رسالة الدكتوراة، ولكن بدلاً من التخلص من حياتك المهنية، لم لا تبدأ من جديد؟ لم لا تكتب رسالة دكتوراة تجعل من سقراط فخورًا بك؟ هذا يتطلب جرأة أكبر من مجرد الانسحاب».

أخبرته بعد ذلك أنني بالإضافة إلى كل أنشطتي في نشر الفلسفة، أستفيد من العالم الأكاديمي بطريقة إبداعية تمكنني من استغلال قوته وتساعدني كي أصبح باحثًا فلسفيًا أكثر براعة، مثل سقراط. (في الحقيقة، حصلت على ثلاث شهادات ماجستير: في الإنسانيات، وفي العلوم الطبيعية، وفي التعليم).

يبدو أن ذلك جعله يتأنى أكثر. وبعد طول انتظار قال: «أظن أن لدي الكثير من الأمور التي أحتاج إلى أن أفكر فيها». استدار نحو الباب وغادر من دون أي كلمة توديع.

ليس لدي أي أدنى فكرة أين انتهى به المطاف. لقد كان موجودًا بالمدينة في تلك الليلة فقط زائرًا صديقًا له، ولم يعد بعد ذلك اليوم إلى مقهى سقراط. أفكر فيه كثيرًا. يبدو أنه مثلي، اكتشف من يكون بعد أن اكتشف بكل تأكيد من يجب ألا يكون.

***



أرواح سقراطية

بدأت بقراءة الفلسفة بنفسي في سن الثانية عشرة، عندما أصبحت مفتونًا بسقراط الذي عرفته في حوارات أفلاطون. سقراط لم يبد لي قط على أنه شخصية مبالغ فيها، بل على العكس كان شخصًا يمكنه دومًا أن يكون أكثر مما هو في أي وقت. بدا أنه يسعى دائمًا إلى أن يكون أكبر، وأكثر شمولية، ولديه الجرأة على تجاوز الحدود في خصوص قدرته في أن يصبح إنسانًا «أكثر تميزًا». وبعد اكتشافي لسقراط بفترة وجيزة، عهدت على نفسي عهدًا صادقًا لكنه ناقصًا لأن «أكون مثل سقراط». ولكن لم أحسن قط ترجمة تلك الكلمات إلى أفعال.

وحين كنت في مرحلة البكالوريوس في الجامعة، أخذت عدة مقررات في الفلسفة. أصبت بالإحباط إلى درجة كبيرة لأن أساتذتي لم يشجعوا طلابهم لكي ينظروا إلى أنفسهم كمشاركين في البحث والتحقيق جاءوا لمشاركة أساتذتهم في مثل الحوارات الحماسية التي عقدها سقراط وعصبته. لقد كانوا في الغالب يتعاملون مع الفلسفة كأنها قطعة أثرية، لا يملك صلاحية نقاشها إلا هم، الخبراء. كانوا دومًا يستخدمون المصطلحات الصعبة التي تترك الطلاب متخوفين ومحتارين، يتعهدون بألا يأخذوا مادة فلسفة مرة أخرى، بمجرد استيفاء متطلبات التخرج.

كتب الروائي والكاتب الكندي جون رالستن سول، الذي حصل على درجة الدكتوراة من كلية كينغز بلندن، في كتابه الثاقب اللاذع (أوغاد فولتير:

دكتاتورية المنطق في الغرب) أن واحدًا من «أكثر الاكتشافات نجاحًا» للأكاديمي في عصرنا هذا هو أن «بإمكانه بسهولة أن يدافع عن حدود تخصصه ببساطة من خلال تطوير لغة خاصة لا يفهمها غير المتخصصين».

مثال الفلسفة حقيقةً يقترب من الكوميديا. سقراط وديكارت وبيكون ولوكي وفولتير لم يكتبوا بلهجة خاصة. لقد كتبوا للقارئ العام في وقتهم. لغتهم كانت واضحة، فصيحة، وفي الغالب مؤثرة ومسلية. وكان هذا يعني أن أي شخص يحمل تعليمًا مقبولاً، بمستوى تعليم ما قبل الجامعي، يستطيع فهم ما كتبه بيكون أو ديكارت، أو فولتير أو لوكي ويقرأ كتبهم بسهولة واستمتاع. في المقابل فإن خريج الجامعة الآن يجد أنه من الصعوبة الشديدة أن يتمكن من فهم ترجمة المثقفين المعاصرين البارزين لأعمال أولئك المفكرين أنفسهم. لماذا إذًا يجرؤ أي أحد في محاولة أن يقرأ هذه التعاتيم الحديثة للوضوح الأصلي؟ الجواب هو أن الجامعات المعاصرة تستخدم هذه الترجمات كطريق الخبراء نحو الأصل. لذا، يتم التعامل مع الفلاسفة الأموات كأنهم هواة، بحاجة لشرح الخبراء وحمايتهم.

وفي حين أن نخبة الأكاديميين في عصرنا هذا يثيرون الضجة في الدعاية لـ «إرثهم السقراطي» كلما أتيحت لهم الفرصة، فإن سول يتمسك برأيه في أن «الطريقة التي يعلّمون بها» هي نقيض الطريقة السقراطية. «في أثينا كل جوابٍ يثير سؤالاً. أما عند النخبة المعاصرة، فإن كل سؤالٍ ينتج جوابًا».

تعليقات سول في الغالب تعبر عن تجربتي في مرحلة البكالوريوس مع الفلسفة الأكاديمية، ومن خلال ما عرفته خلال السنوات، هو نفس الحال في جامعات كثيرة. على أي حال، التقيت أيضًا بالكثير من الأشخاص الذين غُرس فيهم حب دائم للفلسفة بعد أن كان أساتذتهم الجامعيين سببًا

في إلهامهم، لأنهم انخرطوا معهم في الطريقة السقراطية بالفعل. وحتى بالاعتماد على تجربتي الجامعية فقط، أنا أعتقد أن سول يفرط في التعميم. في قسم الإدارة الحكومية بجامعتنا، اكتشفت عددًا من الأساتذة من ذوي العقليات الحريصة الذين كانت نقطة قوتهم الفلسفة السياسية، وكانوا يتكلمون بلغة بسيطة لكنها لم تكن بأي شكل من الأشكال لغة تبسيطية ساذجة حول الفلاسفة السياسيين العظام في الماضي والحاضر. لقد كانوا يتعاملون مع الفلسفة على أنها مادة حيوية وذات صلة هامة بدرجة فائقة. والأفضل من كل ذلك، فقد قاموا بالفعل بتوظيف نسخة من الطريقة السقراطية لإشراكنا في الحوار. وبدلاً من محاولتهم التنقيب عن «الجواب الصحيح»، حاولوا مساعدتنا للتعلم بأنفسنا أنه قد يكون هناك العديد من «الإجابات الصحيحة»، ولكن علينا أن ندعم وجهات نظرنا بأسباب مقنعة ومنطقية ومدعومة بشكل جيد. مع ذلك، أرتور شوبنهاور، الفيلسوف الألماني وكاتب النثر الكبير الذي عاش في القرن التاسع عشر وعمل خارج النطاق الأكاديمي، كان بلا شك مصيبًا في تقييمه بأن «قلائل جدًا من الفلاسفة كانوا أساتذة في الفلسفة، وأقل أيضًا من ذلك أساتذة الفلاسفة الذي كانوا فلاسفة».

خلال سنواتي العديدة التالية في الصحافة، واصلت قراءة الفلسفة بنهم. كان أحد «اكتشافاتي» المبهجة خلال تلك السنوات هو والتر كوفمن. فعلى خلاف أغلب الفلاسفة الأكاديميين، كان كوفمن فيلسوفًا صادف أن تكون وظيفته تعليم الفلسفة في جامعة. لم يكن فقط محافظًا على حبه الطفولي لطرح الأسئلة، بل قام بتنميته وتطويره خلال حياته. يُعرف كوفمن أكثر شيء بين الأكاديميين لترجمته بشكل بارع العديد من كتب الفيلسوف فريدريك نيتشه من الألمانية إلى الإنجليزية. ولكنه أيضًا كتب عددًا من الأعمال الفلسفية البارزة، نحت من خلالها نظامه الفلسفي الشامل للتعامل

مع المشاكل المحورية في حياة الناس. كانت كتابته بعين ناقدة، وبشغف، وبسقراطية.

في كتابه (إيمان المهرطق) كتب كوفمن هذا النص المثير:

دع الناس الذين لا يعلمون ما يفعلون في حياتهم، بل يبددون أوقاتهم من دون فائدة، يتمنون الحياة الأبدية. إذا عاش المرء بشدة، يأتي وقت يبدو فيه النوم نعمة. إذا أحب المرء بشدة، يأتي وقت يكون فيه الموت نعمة... الحياة التي أريدها هي حياة لا يمكنني تحملها في الخلود. إنها حياة حب وشدة، ومعاناة وخَلْق... كما يستحق الفرد نومًا هنيئًا، يستحق الفرد أيضًا أن يموت. لِمَ أتمنى أن أستيقظ مجددًا؟ لأفعل ما لم أفعله في الوقت الذي كنت أمتلكه؟ جميعنا نملك أوقاتًا أكثر بكثير من الوقت الذي نستغله جيدًا... إن الحياة تفسد وتتعفن بالإحساس أن الموت بعيد وغير مهم... ولكن الحياة تصبح أفضل إذا كان للمرء موعدًا مع الموت... لا سقم في التفكير والحديث عن الموت. أولئك الذين يحتقرون الصدق لا يعرفون متعته.

شعرت عندما قرأت هذا النص للمرة الأولى، عندما كان عمري ثلاثين سنة، أنني أهدرت جزءًا كبيرًا من حياتي بشكل غير معقول. كلمات كوفمن لم تجعلني أدرك كيف أن الحياة قصيرة وثمينة فحسب، بل كيف أن الشطر الأعظم من حياتي طويل وعديم المعنى بشكل لا يطاق. كما جعلتني أدرك أن لا عذر لي لأنني سمحت لحياتي أن تأخذ أبعادًا مخدرة بالابتعاد عن بحثي عن معنى. لا يمكنني القول إن كلمات كوفمن أيقظتني مباشرة من سباتي، ولكن كادت أن تبكيني قراءة هذه الكلمات من فيلسوف معاصر، وبقيت كلماته مرافقة لي. كان كوفمن يملك قدرة مدهشة في جعلي أشعر بالخجل من عاداتي الذهنية وطريقة حياتي الفوضوية ولكن في نفس الوقت يلهمني

لعمل تغييرات حياتية كبيرة - حتى وإن احتجت إلى عدة سنوات حتى أحوّل أقوالي إلى أفعال.

بالنسبة لكوفمن، الفلسفة ليست فرعًا صعب المنال من فروع المعرفة، بل هي شيء شخصي. هي شيء يحاك ضمن نسيج كينونة الفرد. هاجر كوفمن إلى الولايات المتحدة الأمريكية من ألمانيا النازية بأمر من والديه، وحصل على درجة الدكتوراة من جامعة هارفارد وعمره أربع وعشرون سنة. كان من ذويه من تم إعدامهم أو من ماتوا في معسكرات الاعتقال. لقد رأى بعينه في ألمانيا كيف أن تقاعس المواطنين العاديين عن مساءلة السلطة الحاكمة - وهذا في مجتمع يتفاخر بأعلى درجات التعليم والإنجازات الفنية والعلمية - كان السبب في تعجيل سقوط بلاده إلى الهاوية. بالنسبة لكوفمن، فإن استعادة الروح السقراطية لم تكن نزوة عابرة؛ ولم تكن مشروعًا شخصيًا يهدر به حياته المهنية. إنما كانت مهمة تحمل مغزى جوهريًا.

أعتقد أن القراءة المستفيضة لأعمال كوفمن تظهر أنه كان يؤمن أن الحضارة قد لا يكون لها مستقبل إن لم تقم بإحياء إرثها السقراطي. وقد ساعد في غرس قناعة في داخلي وهي أن الإنسانية إذا أرادت أن تدافع عن نفسها في المرة القادمة التي يحاول فيها رجل مجنون تضليل الناس ببروباغاندا ساحرة، فيخدعهم ليرتكبوا أفعالاً غير إنسانية وغير عقلانية، فإن من الواجب أن يكون من طبيعة «الجماهير» أن تسعى نحو سقراط.

في النعي القصير لكوفمن الذي ظهر على صفحات جريدة النيويورك تايمز في اليوم التالي لوفاته، لا يوجد ذكر للكثير غير ترجمته لأعمال نيتشه - ما عدا أنه كان معروفًا بطرحه أسئلة «مزعجة» في لقاءات قسم الفلسفة بجامعة برينستن.

صراحة كوفمن بلا شك عرقلت ترقيته وظيفيًا في الفلسفة الأكاديمية.

لقد أعرب عن أسفه بأن الإرادة الشائعة بين الفلاسفة الأكاديميين المعاصرين هي إرادة الحذلقة. لقد كان يقول إن الحذلقة الفلسفية «هي الأسلوب الذي من خلاله يتحول غير المبدع نسبيًا إلى مبدع بلا نهاية». لقد اختلف مع إمانويل كانط وعباقرة مبدعين آخرين، مثل توما الأكويني المعروف بعمله على المواءمة بين فلسفة أرسطو مع العقيدة المسيحية ليؤسس بذلك الفلسفة الكاثوليكية الأرثوذكسية، وجورج فيلهلم فريدريش هيغل الفيلسوف الألماني الذي استمرت منظومته المثالية في الميتافيزيقيا في ممارسة التأثير الكبير في الفلسفة. كان كوفمن يجادل أن حتى هؤلاء الفلاسفة العظام عولوا على عكازات الحذلقة المكتوبة بلغة المصطلحات والرطانة، «وعبقريتهم تضاءلت بذلك». والأسوأ من ذلك، كما يقول: «أن من يحتذون بحذلقتهم في يومنا هذا لا يملكون شيئًا من عبقريتهم». لم يكن كوفمن يدعو بأي طريقة إلى أن كل فيلسوف يجب أن يعمل نفس الشيء. ولم يكن يقول إن كل فيلسوف يجب أن يكون «ناقد العصر الذي نصّب نفسه». ولكنه كان يقول إنه عندما يهجر كل فيلسوف دور الذبابة السقراطية المزعجة، فإن الفلسفة في مأزق. «سيكون من المخجل لو أن كل شخص انتظر حتى يتم تعيينه قبل أن يبدأ بالنقد... وكأن الشخص يصبح ذبابة بالتعيين». كوفمن رأى هذا على أنه المشكلة المحورية التي تعصف بالفلسفة الأكاديمية، وكان مما كتب: «إن من المغري الوصول إلى هذه الاستنتاج: ما يهم ليس إحداث ثورة في الفلسفة، بل جعل الفلسفة ثورية من جديد».

وباستخدام خطاب أقل حدة، كان جون ديوي يصرح بأن هناك حاجة صارخة لـ «إعادة بناء» الفلسفة. «لا يوجد الكثيرون اليوم ممن يظهرون ثقة في قدرة الفلسفة على التعامل بكفاءة مع القضايا الخطيرة في هذا العصر»، هذا ما كتبه ديوي، الذي كان يركز كثيرًا على أهمية تقصي الحقائق الفاعل في اكتساب المعرفة، كما كان مولعًا بالقول إن مادة الفلسفة ليست الفلسفة

ذاتها، بل مادتها هي «مشاكل الناس». الممارسة المنتشرة بين الفلاسفة في عهده خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهي أكثر انتشارًا في يومنا هذا، «تعطي اهتمامًا للظاهر على حساب الجوهر». ديوي، الذي اعترض بشدة على الفلاسفة الذين جعلوا مادة دراستهم أقل وضوحًا بدلاً من أن يجعلوها مفهومة أكثر، عبّر عن هذا «الانسحاب» من قبل الفلاسفة إلى عالم الظاهر الخالص على أنه «علامة على مدى الاضطراب والزعزعة التي تميز» وتفسد الحياة المعاصرة.

تلك الانتقادات ترددت من قبل «استثناءات ساطعة»، أرواح سقراطية كانت تتواجد بين أكاديميي الفلسفة. جستس بكلر، بروفيسور الفلسفة السابق في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية الذي تخصص في الميتافيزيقيات، يطرح هذا الانتقاد لزملائه في كتابه (الطبيعة والقضاء): «بسبب الغرور، أو نفاد الصبر، أو ضيق المخيلة، فإن الفلاسفة يفضلون استهجان كل واحد منهم للآخر على إيجاد وتوضيح المقاصد في مباني فلاسفة الآخرين. الانشغال بقواعد اللغة، وهو أمر بريء في حد ذاته، أعاق اكتشاف المعاني، وشجع في الفلسفة على الخلط بين الحَرْفية والدقة.»

ومثل ذلك، في كتاب (صور من الذاكرة) لبرتراند راسل، المناصر السياسي الراديكالي الإنجليزي المعروف بكتاباته في منطق وفلسفة الرياضيات، الحاصل على جائزة نوبل، والذي انتقد هؤلاء الفلاسفة بشكل كاسح على أنهم مشتركون في «سعي تافه وغير مثير للاهتمام. ليناقشوا بلا نهاية ما يعنيه أشخاص سخيفون عندما يقولون أشياء سخيفة قد تبدو ممتعة لكن لا تكاد تكون مهمة...» يقول إن مثل هؤلاء الفلاسفة يذكّرونه بـ «صاحب المتجر الذي سألته ذات مرة عن أقصر طريق إلى وينشيستر. فنادى على رجل خلف المتجر وقال: السيد يريد أن يعرف أقصر طريق إلى وينشستر. فأجاب صوت

لشخص لا أراه: وينشستر؟ قال: نعم. قال: الطريق إلى ونشستر؟ قال: نعم. قال: أقصر طريق؟ قال: نعم. قال: لا أدري. لقد أراد معرفة طبيعة السؤال بشكل واضح، ولكن لم يكن لديه أي اهتمام في الإجابة عنه». بالنسبة لراسل «هذا بالضبط ما تفعله الفلسفة الحديثة في الباحث الجاد عن الحقيقة. هل من المستغرب إذًا أن الشباب يتجهون إلى فروع الدراسة الأخرى؟»

كتب والتر كوفمن عن «التراث المزدوج» للفلسفة. وهذا يتجلى من جهة في أولئك الذين يحملون ميولاً وجودية، الذين «حاولوا أن يحضروا الفلسفة إلى جميع الناس مثل سقراط» والذين «أخذوا على عاتقهم الاهتمام الشغوف بالأسئلة التي تنشأ من الحياة، والشفقة الأخلاقية، والإيمان الراسخ بأنه إذا أردنا أن نكون جادين في الحياة، فلا بد للفلسفة أن تحيا». وفي الجانب الآخر هناك الفلاسفة التحليليون الذين يؤمنون بنفس القدر من اليقين أن «لا شفقة أخلاقية، ولا تراث، ولا وجهات نظر، مهما علا شأنها، تبرر الأفكار من دون تحليل، أو الحجج الغامضة، أو شيئًا من اللبس». يقول كوفمن إنه عند كل فيلسوف عظيم تكون الفلسفة قد «حدثت في حالة الشد بين هذين الاتجاهين الخالدين، في حين تميل أكثر نحو إحدى الجهتين، ثم تميل في وقت آخر نحو الجهة الأخرى». ولكن «الوجودي والفيلسوف التحليلي ليسا إلا نصف سقراط.»

أعتقد أن كوفمن يبالغ عندما يصف الفيلسوف الذي يحمل بصفة رئيسية إما نزعة وجودية أو تحليلية على أنه «نصف سقراط». فقد تبنّى عدد من الفلاسفة على مر العصور نسخة من الطريقة السقراطية في أعمالهم الفلسفية. ولكن إذا لم يسعَ الفلاسفة إلى أن يجعلوا تخصصهم المفضل جزءًا حيويًا وملائمًا في حياة الناس من جميع الأعمار وفي جميع مجالات الحياة، فإنهم عندئذٍ لم يعتنقوا الروح السقراطية التي ضحى سقراط بحياته من أجلها.

توقع كوفمن عودة ظهور الفلسفة السقراطية، أو ما أسميها «الميول السقراطية». كتب قبل ثلاثين سنة أنه «إذا كان بالفعل سيتم إعادة إنجاز سقراط وأن يكون للفلسفة مستقبلاً خارج العالم الأكاديمي، فلا بد أن يكون هناك فلاسفة يفكرون بين التحليل والوجودية». قبل عدد من السنوات، عندما قرأت هذا النص لكوفمن لأول مرة، أتذكر أنني فكرت: هل بمكنني أنا أو أي شخص آخر أن نحقق ذلك الإنجاز ببعث الحوار السقراطي من جديد إلى الحياة؟ إن كان كذلك، فمن أين نبدأ؟

اشتهر ألفرد نورث وايتهيد، عالم الرياضيات والفيلسوف البريطاني الذي حاول إدراج الفيزياء الحديثة في ميتافزيقيا الطبيعة، قوله إن تاريخ الفلسفة ليس إلا سلسلة من الهوامش على أفلاطون. ولكنني قد أقول إن تاريخ الفلسفة في غالبه سلسلة من التحريفات والاختلاسات والإفسادات لأفلاطون. فكثير من الفلاسفة فيما تدعى بكتب التاريخ، وكذلك الكثير من الفلاسفة الأكاديميين في يومنا هذا، تخلوا عن أو تجاهلوا النزعة السقراطية الغنية والسائدة في حوارات أفلاطون. لقد قاموا بإعادة صياغة أجزاء صغيرة من هنا وهناك من أعمال أفلاطون، ثم خلطوها بوجهات نظرهم الخاصة (والتي عادة ما تكون شبه روحانية في أفضل حال).

جون هيرمان راندال جونيور، إلى جانب زميله لوقت طويل جستس بكلر، هو أحد القلائل من الأكاديميين الذين مروا عليّ ممن أخذوا التراث السقراطي وقاموا بتوظيفه بطرق عجيبة. راندال - الذي كان مفسرًا للإنسانية الإغريقية والأخلاق المسيحية، كما كان مؤرخًا للفلسفة والتراث الفكري الغربي - كان يرى أن «أفلاطون... هو من ابتكر سقراط الحوارات، ومن صنع التراث الفلسفي» للبحث السقراطي من خلال ذلك. يضيف راندال أن ذلك قد يفهم منه أن أفلاطون «يمكنه أن يرى كل ما يحيط بسقراط

بموضوعية تامة، إن صحّ التعبير» بل كان يجادل أنه بذلك الإنجاز يعتبر «أكثر عظمة» من سقراط. ولكنني أظن أنه لا طائل من وراء محاولة تحديد أي منهما «أعظم» من الآخر. والأجدر بالاهتمام الإشارة إلى أن سقراط لم يكن ليعجبه شيء أكثر من أن طالبه المشهور يتفوق عليه في إتقانه للمنهج الذي أنشأه، وأن يوصل إلينا الإرث العظيم من خلال ما كتب.

كان راندال يعتقد أن مخزون الرؤى الهائل، من الماضي والحاضر، الذي نعرض أنفسنا إليها تزيد من مخزوننا الخاص من «وجهات نظرنا التخيلية للعالم».

ليس المهم هنا الممارسة، بقدر ما هي جمالية الأفكار. تلك الرؤى هي وجهات نظر، من نقاط مختلفة، لأنشطة الناس ومشاريعهم المثالية، على مدى بقاء خبرات الإنسان في هذا العالم. ومن خلال البحث عن التركيبة الكونية لذلك العالم وخبرات الإنسان المتنوعة فيه ومن حوله، فإن النظر من خلال أكبر عدد ممكن من العيون يصبح تحررًا إبداعيًا.

نصيحة راندال بـ «النظر من خلال أكبر عدد ممكن من العيون» هي مبرر جيد مثل أي مبرر آخر لإحضار الفلسفة «إلى الناس»، كما فعل سقراط، في الأسواق. عالم الكتب والمعرفة هو عالم لا يمكن لراندال أو لي أنا أن نعيش من دونه. ولكن هناك خبرات لا يمكن الحصول عليها من قراءة ما كتبه الآخرون. في بعض الأحيان على المرء أن يقفز إلى شجارات يضرب بها المثل ويشارك وجهًا لوجه مع «الإنسان العادي» غير العادي، مثلما فعل سقراط. بكلر وراندال كانا يؤمنان أن الحياة الفلسفية ليست مجرد حياة عقلية، أو حياة في برج عاجي، بل دخلوا في نقاشات فلسفية إلى درجة غير مألوفة مع عامة الناس. وأقاموا حوارات فلسفية مفتوحة على الراديو وأمام جماهير من العامة والمتخصصين في مجالات أخرى. كان بكلر يُعد القائد الأخلاقي

والفكري للبرنامج التعليمي ذائع الصيت في الحضارات المعاصرة بجامعة كولومبيا بنيويورك، وهو برنامج تجرأ على أن يطمس الحدود المفتعلة التي تم تشييدها بين التخصصات الأكاديمية وسعى للوصول إلى عامة الناس. وفي أوقات مختلفة، كان راندال الناشط الذي يضع حياته المهنية على المحك من أجل معتقداته. في عام ١٩٣٣، وقّع على بيان لأعضاء هيئة التدريس يستنكر فيه «القومية الاقتصادية والنزعة الفردية المتفشية والتي تهدد بانحدار العالم إلى حرب أخرى». بعد سنتين من ذلك، قدّم هو وعدد من زملائه في الاتحاد الأمريكي للمعلمين استقالتهم احتجاجًا على التحريض اليساري الذي شعروا أنه يستغل النقابات العمالية من خلال تحويلها إلى حركات سياسية لتمرير أجنداتهم. في عام ١٩٤٠، قاد مجموعة من المعلمين لتحدي المنع الصادر ضد تعيين برتراند راسل عضوًا في هيئة التدريس بكلية سيتي كوليدج بنيويورك - وهذا المنع كان قد تم إصداره بناء على آراء راسل «المتطرفة» حول الدين والأخلاق. كان كلاً من راندال وبكلر «ناشطين عالمين» يسعيان لجعل البحث الفلسفي جزءًا أساسيًا من حياة الناس من جميع توجهات الحياة، وبناء جسور بين الأبراج العاجية و«العالم الحقيقي». بعد ما يقارب الأربعة عقود بجامعة كولومبيا، انتهى المطاف ببكلر بالمغادرة، وبدا أن ذلك كان - جزئيًا على أقل تقدير - بسبب أنه لم يعد يشعر أن الجامعة كانت تدعم بقوة التفكير الفلسفي. اتجه بعد ذلك إلى جامعة ولاية نيويورك بمدينة ستوني بروك، حيث أسس برنامجًا جامعيًا (لم يعد له وجود الآن) في الرؤى الفلسفية.

إلى جانب ما قدّمه والتر كوفمن، فإن الإسهامات البارزة لأمثال بكلر وراندال لا يمكن العثور عليها حتى في أحدث قواميس وموسوعات الفلسفة. من المؤكد أن طريقتهم «المهرطقة» نحو التفلسف كانت، على

الرغم من دورهم الحيوي في تخصصهم، سببًا في شعورهم بالعزلة عن الكثير من زملائهم الأكاديميين - وسببًا في إغفالهم، وعدم حصولهم على الاحترام الذي يستحقونه.

***

من خارج هذا العالم

دخلت إلى أحد المطاعم الصغيرة حيث تقرر عقد مقهى سقراط، بمدينة جامعية معزولة بمكان بعيد في إحدى ولايات الغرب الأوسط الأمريكي. أحاول بقدر المستطاع أن أخفي ذهولي من زحام المكان، حيث لم يبق مجال للحضور إلا وقوفًا. كل الكراسي الدوارة المصفوفة على امتداد الطاولة العرضية مشغولة، وكذا كل الكراسي القابلة للطي التي تم تحضيرها على شكل شبه دائرة في جهة تناول الطعام بمواجهة الطاولة العرضية. والناس ما زالوا مستمرين في القدوم.

دعاني بروفيسور فلسفة لعقد مقهى سقراط. كان هذا البروفيسور يومًا من الأيام طالبًا لدى جستس بكلر ثم قرر أن يحصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة بتشجيع من بكلر، وقد أخبرني في رسالة مؤثرة كتب فيها أنه بعد تدريس الفلسفة لأربعين سنة قد «أصبح منهكًا نوعًا ما». كان يقول لي أنه قد دخل التخصص «بأمل مثالي في أن تصنع الفلسفة بعض الفرق في العالم وتؤثر في تطوير ثقافتنا». كان واضحًا أنه دخل الفلسفة أيضًا، مثلما دخلت أنا، سعيًا نحو سقراط، ولكنه لم يتمكن من العثور على ذلك «المخرب لعقول الشباب» كما يصفه في العالم الأكاديمي. كتب لي: «لم أسمع أنه قد تمت محاكمة أي فيلسوف من الذين أعرفهم في هذه البلاد لأي سبب على الإطلاق»، ناهيك بتهمة إفساد الشباب بتعليمهم التفكير النقدي التي وجّهت ضد سقراط. يقول البروفيسور إن ذلك «دلالة على أن

الفلسفة الأكاديمية (على الأقل) إما أنه يتم تجاهلها بالكامل أو أنها منسجمة بشكل تام مع النظرة الرأسمالية للعالم إلى الحد الذي يجعلها تكاد تكون مختفية».

كان يقول إن الجهد الذهني الذي كرّسه لـ «محاولة معرفة الفرق الذي حققه تدريسي في هذا العالم» هو «مجهود محبط». وما يجعل مهنته تبدو منتقصة للثقة بالنفس أكثر من ذلك، كما أشار إلى ذلك في رسالته، هو أن الفلاسفة الأكاديميين لم يعد لهم أي تقدير أبدًا، حتى من قبل زملائهم الأكاديميين. بل إنه يخشى، كما يقول، أن معظم الجامعات الكبيرة والكليات العمومية ستتخلص من أقسام الفلسفة برمتها. كتب يقول: «أعلم أن جامعتي ذاهبة في هذا التوجه، وأن قسمنا تحت هجوم من إدارة ترغب في إغلاق القسم بالكامل، حيث إن سقراط ليس في حاجة إلى أخذ مساحة كبيرة في مبنى بحرم جامعي».

هذا أحد الأساتذة الذين رأوا أملاً للفلسفة - خارج الوسط الأكاديمي، حيث هناك فرصة لخطاب سقراط أن يزدهر، إن تمت رعايته بالشكل الصحيح. «إن فكرتك بإقامة مقاهي الفلسفة فكرة جيدة وقد تنجح»، كما قال في نهاية رسالته.

رددت على رسالته وذكرت له بطريقة عفوية أنه قد يأتي يوم يمكنني فيه مساعدته بتأسيس مقهى سقراط في مدينته النائية. تفاجأت بعدها عندما تواصل معي مباشرة ليخبرني أنه مستعد لعمل الترتيبات لإيجاد مطعم أو مقهى حيث يقطن لاستضافة جلسة مقهى سقراط لو جئت إلى هناك لتأسيسه.

قبلت على الفور.

بعد شهرين، وجدت نفسي في بلدته، في مقهى مفتوح حديثًا بالقرب من الحرم الجامعي حيث يدرّس البروفيسور. كان من ضمن المشاركين في مقهى سقراط كامل كتيبة أساتذة الفلسفة - كانوا ستة، حسبما أتذكر - من قسم الفلسفة بالجامعة القريبة. أخبرني مستضيفي أن القسم كان يضم في أيام ذروته ما يزيد على عشرين أو خمسة وعشرين من أساتذة الفلسفة. وكان جميع الأساتذة كهولاً، ما عدا واحدًا، بل إن أغلبهم تعدى مرحلة الكهولة بأشواط. قبل أن يبدأ النقاش، كان أحدهم يشتكي لي أن في كل مرة يتقاعد فيها أحد أعضاء القسم، ترفض إدارة الجامعة توظيف أستاذ جديد في القسم، ليستمر تضاؤل القسم شيئًا فشيئًا.

كالمعتاد، في مستهل مقهى سقراط، أطلب من الحاضرين طرح سؤالٍ للنقاش. سألت الطالبة الجامعية، وهي تضع عددًا من الكتب على حجرها، وقلمًا ومذكرة في يدها: «ألا يوجد عالم غير العالم المحسوس أم هل هناك عالم ذو واقعية مطلقة؟»

أتساءل مع نفسي، كيف يمكننا أن نكون منصفين مع هذا السؤال؟ كيف يمكننا الإحاطة به خلال ساعتين فقط؟

لقد عانى الفلاسفة مع تحديد ماهية العالم منذ فجر الفلسفة نفسها. على سبيل المثال، كتب توماس هوبز في كتاب (اللفياثان) أن «العالم» هو «الكتلة الإجمالية لكل الأشياء الموجودة». لكنه لا يشرح بالضبط ما الذي يعنيه بـ «كل الأشياء». إيمانويل كانط كان أحد الفلاسفة الذي يؤمنون بوجود عالمين اثنين. في فلسفة كانط «للعالمين»، كان يفرق بين العالم الظاهري، وهو قابل للمعرفة من خلال الحواس ويمكن استيعابه بالعقل، والعالم الحدسي، الذي يقع وراء عالم الزمان والمكان والعلة والمعلول، وهو عالم مجهول لا يمكن معرفته. وعلى النقيض من ذلك، يصرح لودفيغ فتغنشتاين في

كتاب (مقالات في المنطق والفلسفة) بأن من «غير المنطقي» الحديث عن عالم لا يمكن معرفته. بالنسبة لفتغنشتاين، فإن العالم هو «إجمالي الحقائق» الذي يحوي بناءً منطقيًا ويرسم حدودًا لعالمنا. وفي حين أن الحقائق بطبيعتها قابلة للمعرفة، فإن فتغنشتاين يقول «يجب أن نلتزم الصمت» حيال ما يدعى المجهول، غير القابل للمعرفة، لأننا يجب ألا نتحدث عن أمورٍ لا نعرفها ولا يمكننا معرفتها.

«ما هو العالم؟» تساءلت بصوت عالٍ، متحدثًا إلى نفسي أكثر من الآخرين. «ما هو العالم؟»

أجابت امرأة ترتدي بدلة رياضية ذات ألوان صاخبة كانت متجهة للجلوس على كرسيها وأنا أطرح السؤال: «أعتقد أن الكليشيه الذي يقول إن «العالم هو ما تصنعه أنت» يحمل الكثير من الصحة. إذا كان هنا كاثوليكيون، وملحدون، وهندوس، وأفلاطونيون، ومشككون، وأتباع العصر الجديد، وباحثون، ووثنيون، ومؤمنون بالغيبيات والسحر، والبقية الآخرون في هذه الغرفة، فإن كل شخص منا - على نحو ما - في عالمه الخاص. المسيحي يعتقد بيقين أن هذا العالم ليس إلا نقطة انطلاق إلى عالم آخر. المسيحي يتصور أن الإله معه في كل لحظة. آخرون يحملون أيضًا قناعة بوجود العالم الآخر، سواء كان في هذا المكان والزمان، أو لاحقًا في الآخرة. ولكن إذا لم يكن عندي ذلك المعتقد، فإن عالمي هنا الآن، وكامل حكمي على العالم الذي نشترك فيه، سيكون من عدة جوانب مختلفًا تمامًا عن عوالمهم».

تحدث شاب حليق الرأس على وجهه تعابير لا مبالاة مصطنعة وقال بتعجرف: «لا يوجد شيء اسمه عالم، هناك عوالم فقط. نحن جميعًا نعيش في عوالمنا الخاصة. نحن مجموعة من الجزر.»

أشرت إليه: «يبدو أننا نتواصل مع بعضنا البعض في هذه اللحظة. يبدو أن هذا يشير إلى أننا إلى حد ما نتشارك العوالم».

أجاب بوجه خالٍ من التعابير: «التواصل لا معنى له، نحن لا نفهم بعضنا البعض أبدًا».

قلت له: «إذًا أنا وأنت لا نتواصل ولا نفهم بعضنا البعض في هذه اللحظة؟ ما نقوله لبعض ليس إلا تمتمة غير مفهومة؟»

صار يحدق بعينيه إليّ فقط. ولا يهز رأسه حتى بالموافقة أو الرفض. يحدق فقط. وبعد قليل قام من كرسيه وانسحب من عالمنا المباشر.

قال أحد الأساتذة حينها: «ألا يوجد عالم من منظور اللا مكان؟ أظن أن أرسطو أثبت بشكل مقنع أن مثل هذا العالم موجود».

بادرت الطالبة التي طرحت السؤال بثقة، ويبدو أنها جاءت وهي مستعدة للنقاش: «أرسطو لم يكن قط يدعم فكرة منظور اللا مكان. كل ما قاله هو أننا في أي حين نتحدث عن منظور ما، فإننا نتحدث عنه من خلال علاقته بأنفسنا». توقفت لحظة لتجمع أفكارها ثم أكملت: «أرسطو كان يؤمن بوجود شيء اسمه اللا مكان - ألا وهو الكون بالمجمل - ولكنه لم يكن يؤمن أن هناك منظور من اللا مكان».

أرى في طرف عيني ذلك الأستاذ «الأرسطي» وهو ينظر إليها بنظرة تحمل مزيجًا من الحسد والانبهار والعداوة.

قال طالب آخر مشارك في الجلسة بعد لحظات: «إذا كان هذا المنظور من اللامكان مطروحًا من قبل إنسان، فهو ليس منظورًا من اللامكان على الإطلاق. إنما هو منظور من مكان ما».

وقفت فجأةً امرأة أنيقة متوسطة العمر ذات ملامح ناعمة وقالت:

«الطريقة الوحيدة التي يمكن بها معرفة ما إذا كان هناك منظور من اللامكان هي بالإجابة عن هذا السؤال: لو وقعت شجرة على الأرض ولم يكن هناك أحد يسمع سقوطها، فهل سيحدث سقوطها صوتًا؟» ثم عادت للجلوس، وعليها علامات السرور من نفسها.

أجاب طالب جاد يدرس الفيزياء: «السؤال عما إذا كان سقوط الشجرة بعيدًا عن مسامع البشر يحدث صوتًا لا صلة له أبدًا. إنها مجرد نقطة جدلية. بل أنها لن تكون حتى سؤالاً لو لم يكن هناك شخص ما، على نحو ما، في وقت ما، ليقر أن الحدث قد حصل أو ربما حصل».

تابع قائلاً: «شخص ما، في وقت ما، يجب أن يعلم أو يخمن من الأدلة، أن شجرة وقعت على الأرض. إذا استنتج أحد أن الشجرة وقعت على الأرض، فإن بإمكانه أيضًا أن يخمن بشكل منطقي أنها لا بد قد أحدثت صوتًا عندما سقطت على الأرض. ولا يمكنه الوصول إلى هذا الاستنتاج في هذا المثال إلا إذا رأى فعلاً، في حالة أخرى، شجرة تقع على الأرض وتحدث صوتًا من أثر الاصطدام، أو إذا كانت لديه أدلة دامغة تقول إن الأشجار إذا وقعت على الأرض فإنها دائمًا أو غالبًا ما تحدث صوتًا. يجب التحقق والتثبت من الشجرة المزعوم سقوطها، والصوت الصدر منها. إحدى الطرق لفعل ذلك هي إعادة بناء ما حدث أثناء الوقوع، لتخمين ما أسفر عنه ذلك، من خلال الاستقراء من حالات حقيقية، ومن دلائل حقيقية، مألوفة لدينا ومشابهة أو مطابقة لهذه الحالة. ومن أجل التخمين هكذا بصورة معقولة، ناهيك بالوصول إلى استنتاجات صحيحة، يجب أن يكون لديك ذخيرة من المعرفة لتبني عليها».

نظرت إلى المرأة التي طرحت السؤال حول الشجرة لأرى إن كانت تريد أن تجيب، فهزت رأسها بالنفي.

عندها اتهم أحد الأساتذة بعض المشاركين بأنهم في الواقع يطرحون وجهة نظر نسبية. قال: «يبدو أن البعض يلمح إلى أنه لا يوجد شيء اسمه مسلمات. ولكن رموز الرياضيات هي الإثبات الجوهري على أن هناك مسلمات، ولذا يلخصون المنظور من اللامكان».

فقلت: «ولكن ألا توجد ما يطلق عليها المسلمات فقط من خلال علاقتها بالأشخاص الذين فكروا بها، أو اخترعوها، أو تخيلوها لتأتي إلى الوجود؟ وإذا كان الأمر كذلك، أليس اللامكان هو في الواقع مكان ما محدد تمامًا، ألا وهو عقولنا، ذواتنا؟»

لم يقبل بذلك. قال بنبرة رافضة: «أنت فقط لا تريد القبول بوجود مسلمات بشكل مستقل عن البشر».

حينها حاول أستاذ آخر أن يلقي نكتة، مقاطعًا طالبًا آخر كان للتو بدأ بالحديث، فقال بابتسامة ساخرة: «لو وقع أستاذ على الأرض، هل سيسمع عنه أحد؟» لم يضحك أحد.

من ناحية أخرى، استجمع الطلاب الثقة والشجاعة ليتحدوني أنا وأساتذتهم. كان أحد الطلاب يقول إنه قرأ مؤخرًا رواية (المانتيكور) للكاتب روبرتسن ديفيس. قال: «تحدث ديفيس عن المنظور من مكان آخر في كتابه. ربما هذا هو أفضل شيء يمكننا أن نفعله، البحث لاعتناق وجهات نظر من أماكن أخرى، وجهات نظر إضافة إلى وجهات نظرنا. ربما هذه هي الطريقة التي يمكننا من خلالها توسيع نظرتنا للعالم. أما وجهة نظر من اللامكان يبدو لي أنها ستؤدي بنا إلى اللامكان، لن تأخذنا إلى أي مكان. إنه مفهوم مسلٍ للطرح، ولكن في النهاية، هو منظور اللامكان».

سألته: «ولكن أليست وجهة النظر من اللامكان، لكونها مطروحة هنا من قبل أشخاص معينين، هي إحدى وجهات النظر الأخرى؟ بهذا المعنى،

ألا تستحق وجهة النظر هذه الاعتبار والفحص بصورة مستفيضة وبأكبر قدر ممكن، حتى إن وصل بعضكم إلى استنتاج أنها وجهة نظر لا يمكنك الموافقة عليها؟»

ثم أكملت: «والأكثر من ذلك، أليست وجهة النظر من اللامكان هي وجهة النظر ذات الموضوعية المطلقة، وهي وجهة نظر لا يمكننا الوصول إليها أبدًا ولكن يمكننا السعي للاقتراب منها أكثر فأكثر؟»

لم يجب الطالب. كان يفكر مليًا فيما قلت، ولم يكن لديه أي جواب مباشر. تنبهت إلى أن اثنين من الأساتذة يبدوان راضيين، كأنني أثلجت صدرهما لأنني جئت «أدافع» عن وجهات نظرهم المفضلة من دون سابق إنذار. بل إنني سمعت أحدهم يتمتم قائلاً «بالضبط» بعد مداخلتي. ولكن للمحافظة على الروح السقراطية، أنا لم أكن أقدم دفاعًا عن أي وجهة نظر بقدر ما كنت أؤكد أن علينا أن نقوم بفحص كل وجهات النظر، من أكبر عدد من الزوايا، ومؤكدًا كذلك على ضرورة أخذ كل الاعتراضات والبدائل المقنعة بعين الاعتبار.

في النهاية، بدأت بتحريض المشاركين الصامتين، الذين يحضرون في كل مقهى سقراط للمشاركة بالرد على المداخلات. هؤلاء ينصتون بانتباه شديد إلى الحوار ولكن إما أنهم لا يشعرون أنهم مضطرون لطرح مداخلاتهم، أو لا يشعرون بالارتياح في المشاركة في الحديث إلا إذا طلب أحد منهم ذلك. وعندما أسألهم إن كانوا يريدون قول شيء ما، ففي معظم الحالات يكون لديهم تعليقات ثاقبة. قال أحد الطلاب الذي كان يجلس بجانبي على الكاونتر: «بالنسبة لي، يجب أن يكون العالم شيئًا يمكنني رؤيته وإحساسه ولمسه ماديًا. هذا المنظور من اللامكان لا يعني لي أي شيء. لقد حاولت أن أفكر في هذا المنظور بشكل جدي، ولكنه يبدو لي خاويًا، لا معنى له. يمكنك

القول إنها وجهة نظر تتجه نحو المزيد والمزيد من الموضوعية، ولكن لا أظن أن هذا ما كان يعنيه». وأومأ برأسه نحو البروفيسور. «أظن أنه يراها مثل المنظور من الجنة، أو مثل المنظور من عين الإله».

قالت امرأة خجولة كانت تجلس في نهاية الكاونتر، تبدو على نحو ما متضايقة ومسرورة في نفس الوقت لأنني طلبت منها الحديث: «أظن أن الشخص الذي قال في بداية النقاش إن هناك عوالم فقط، وليس عالمًا واحدًا، كان مصيبًا نوعًا ما. أعتقد أننا جميعًا جزر، على نحو ما. على سبيل المثال، طالب يدرس الآداب، وطالب يدرس نظرية الألعاب، وطالب يدرس الفيزياء النووية، وطالب يدرس علم الأنثروبولوجيا: كل واحد منهم يدرس جزيرته من المعرفة واهتمامه بجزر المعرفة الأخرى التي يهتم بها الآخرون قليل جدًا. إنهم جميعًا مقتنعون بأن جزرهم هي الأجدر بالاهتمام. ولا يفهمون جزر بعضهم البعض بشكل جيد، هذا إن لم يكونوا يجهلونها تمامًا».

«ولكن كما كتب جون دون: «لا يمكن للإنسان أن يكون جزيرة» - ليس تمامًا. الناس وتخصصاتهم المعرفية ليسوا جزرًا في حد ذاتهم، حتى إن أرادوا أن يعتقدوا أنهم كذلك. جزرهم تتداخل وتتقاطع على الدوام لأن كل واحد منهم يبحث، بطريقته الخاصة، عمّا يجعل هذا العالم على هذا النحو، ولماذا العالم على هذا النحو. لذا فإن مسعاهم مشترك، مهما اختلفت تلك المساعي في ظاهرها».

أصغينا إليها بإنصات وهي تكمل حديثها، فحينها لم تعد مترددة في الكلام: «نعم، قد يسعى بعضهم في دراسته منعزلاً. ولكن كل ما يعنيه ذلك هو أن كل فرد منهم قد كرّس نفسه لواحد من الآفاق التي لا تعد ولا تحصى والتي يحتويها عالمنا. وفي الواقع فإن كل فرد بطريقته الخاصة يحاول أن

يوحد عالمه من خلال مجال دراسته التخصصي. سواءً كان فيزيائيًا أو شاعرًا أو أنثروبولوجيًا أو اقتصاديًا أو عالم لاهوت، فإن كل واحد منهم يستخدم لغة تخصصه وحكاياتها ليحاول أن يصنع صورة كبرى، أو رؤية موحدة، للعالم».

«أتفق معها تمامًا»، دخل في الحوار أستاذ من قسم الأديان بالجامعة. إنه الأستاذ الوحيد من الحاضرين الذي لا يجلس مع مجموعة الفلاسفة الأكاديميين، وحتى تلك اللحظة كان يحمل نظرة ذهول على وجهه.

سألته: «وماذا تنبؤنا وجهة نظرها حول العالم الذي نعيش فيه؟»

فأجاب: «إنها تنبؤنا أن عالمنا يلهمنا إلى أن ننظر إليه كوحدة واحدة. إن الطرق والوسائل التي نمضي فيها لمحاولة طرح رؤية موحدة للعالم تظهر كيف أن العالم متعدد الأوجه. كما قال ويليام جيمس منذ وقت طويل، عالمنا يتسم بالتعددية من دون أدنى شك». يؤكد ويليام جيمس في كتابيه (أنواع التجربة الدينية) و(الكون التعددي) على أنه سيكون من التضليل والسذاجة عقلاً أن نحاول اختزال الطيف الواسع للمناهج والتصورات الفردية، والثقافية، والدينية التي يتبعها الناس وإدخالها في بعضها البعض. عوضًا عن ذلك، بالنسبة لجيمس، فإن جميع «الخصائص الحقيقية للعالم» تظهر بما لا يبقي مجالاً للشك أن عالمنا مفتوح، تعددي، ومتطور على الدوام.

استمر الأستاذ في حديثه: «وما قالته بصورة بليغة، يتفق بشكل كامل مع رأي جيمس وكذلك رأي إتيان جيلسون، الفيلسوف الكاثوليكي الفرنسي الذي كان يعد عالم أديان متطرف، والذي يقول مثل جيمس إن عالمنا جديد وإبداعي بشكل غير محدود ويسمح بالاستكشاف الذي لا نهاية له من نواحٍ لا حصر لها».

قال طالب آخر لم يكن قد تحدث حتى تلك اللحظة: «وما أظن أن ذلك يعنيه هو أنه ليس فقط هناك العديد من الأنماط والطرق للتفكير في العالم، بل هناك أشكال مختلفة من الفهم - ديني، فلسفي، علمي، أدبي، وما إلى ذلك».

حدّد هاورد جاردنر، بروفيسور التعليم وعلم النفس في هارفارد، في نظريته المشهورة حول تعددية الذكاءات سبعة أنواع مختلفة من الذكاء: الذكاء اللغوي، الذكاء المنطقي - الرياضي، والذكاء الجسدي - الحركي، والذكاء المكاني، والذكاء الموسيقي، وذكاء معرفة الآخرين، وذكاء معرفة الذات. ومع أنها تعتبر نظرية رائدة ومثيرة، إلا أنني لا أظن أنه قد حدد أنواع الذكاء أبدًا، بل أشار إلى بعض الطرق - الفلسفية، والجمالية، والعلمية، والحدسية، وما إلى ذلك - التي يمكن من خلالها التعبير عن الذكاء.

مشارك آخر قال حينها: «استنادًا إلى ما قاله عدد من الأشخاص هنا، أعتقد أن عالمنا يحتوي في داخله عددًا لا ينتهي من العوالم، عالم لكل فرد، لأننا جميعًا نملك تصورات حول العالم مختلفة قليلاً».

كان يؤكد غوتفريد فيلهيلم لايبنتز، الفيلسوف البارز من أتباع المذهب العقلي، والذي أسس جنبًا إلى جنب السير إسحاق نيوتن علم التفاضل والتكامل، وكان يعد أبو المنطق الرياضي الحديث، على أن هناك عددًا لانهائيًا من العوالم الممكنة الحدوث، والتي أخذها جميعًا الإله بعين الاعتبار قبل خلق العالم الفعلي، وهو «أفضل عالم من العوالم الممكنة الحدوث». لايبنتز كان يعتقد أن المنطق يملي علينا أن كل شيء يحدث في عالمنا هو في النهاية خير، لأن الإله كان عليه أن يخلق كونًا أفضل من أي كون آخر يمكن خلقه. وكان يفسر أن سبب وجود الشر في هذا العالم لأنه يجب أن يكون جزءًا أساسيًا من كمال العالم. لكن الفيلسوف والكاتب والروائي والناقد الاجتماعي الفرنسي فولتير، الذي لم يكن يعتقد أن الشر يمكن تفسيره بهذه السهولة، سخر من

لايبنتز من خلال شخصية الدكتور بانجلوس في روايته الساخرة كانديد. كان يستهزأ من وجهة النظر البانجلوسية التي تقول إن «كل شيء يحصل لأفضل الأسباب، في أفضل عالم من العوالم»، بغض النظر عن مقدار الشر في الفعل أو الحدث، فولتير كان يعتقد أن علينا اتخاذ إجراءات ملموسة لمحاربة وإحباط الشر في هذا العالم. وكان مما كتب «يجب أن نحرث حدائقنا».

أدلى المشاركون بدلائهم واحدًا تلو الآخر. أصبحت وجهات النظر أكثر تنوعًا كلما شعر المزيد والمزيد من المشاركين بالراحة والثقة للمشاركة في الحوار، فاتضح من هم المفكرون الجريئون ومن هم ليسوا كذلك.

عندئذٍ، أثار استيائي أحد الأساتذة حين وقف قبل الوقت المحدد لنهاية للحوار وقال: «دعونا نتوقف هنا. شكرًا لحضوركم». عندما بدأ النقاش يكتسب زخمًا، ينهيه هكذا بشكل مفاجئ. لم يسألنا أحد إن كنّا نريد أن نتوقف في تلك اللحظة. ولكن يبدو أن تصرف الأستاذ يقول: «انتهى الدرس».

***

أسئلة غير متوقعة

من نواحٍ كثيرة، لم نتطرق بعد للأسئلة العميقة التي كنّا نخوض فيها. لا زلنا بحاجة للتفريق بين الحقيقة الموضوعية والحقيقة الشخصية، فضلاً عن محاولة تحديد «الحقيقة المطلقة» (ناهيك بتعريف «الحقيقة» ذاتها!). ولم نبدأ بعد بتحديد خصائص كل نوع من العوالم المختلفة ممكنة الوجود وغير ممكنة الوجود. ورغم ذلك، لم تثبطني تلك النهاية القاطعة للحوار. لأنني كنت أعلم أن فرصًا أخرى ستأتي في مقاهي سقراط قادمة لتناول أشكالٍ مختلفة من هذه الأسئلة حول العوالم والحقائق المتباينة. تمامًا كما أعلم أن مثل هذه النقاشات يمكن أن تستثار من خلال الأسئلة غير المتوقعة.

***

قبول «ماذا الضمنية»

«لماذا ماذا؟»

كنت أدير مقهى سقراط في مقهى بأحد متاجر الكتب المطلة على شاطئ شمال كاليفورنيا. طلبت من المتواجدين طرح أسئلة للنقاش وهذا ما اقترحه أحد الأشخاص لي. «لماذا ماذا؟» أغلب المشاركين الذين يقترب عددهم من الثلاثين نظروا إليه بنظرة غريبة. أظن أنني أنا أيضًا كنت أنظر إليه بنظرة استهجان إلى حد ما.

أردت أن أعرف. يجب أن أعرف. اخترت ذلك السؤال، ثم سألته: «ما الذي تعنيه بحق الجحيم؟»

كان أنيق المظهر ويبدو في أوائل العشرينيات من العمر، مع أنه شبه أصلع. أجاب بلهجة روسية واضحة: «أنا طالب هندسة، وفي العادة أدرس تشكيلة من أصناف «الماذا» - الجسيمات دون الذرية، المجالات الكهرومغناطيسية، البوليمرات الكيميائية، الجسور، وغيرها. وكثيرًا ما أسأل نفسي لماذا هذه الأنواع من الماذا، أو الماهيات، موجودة، أو لماذا هي قادرة على أن تكون موجودة. لذا خطر لي أنه لولا وجود الماذا أولاً، لما كان هناك لماذا».

أخذ نفسًا عميقًا ثم قال: «إذًا، لماذا ماذا؟»

إحدى الموجودات بدت متحيرة من الموضوع وقالت: «هذا مجرد ترف عقلي.»

سألتها: «لماذا؟»

قالت: «لأن الأمر غير معقول. أظن أن كل ما في الأمر أنه يتلاعب بالكلمات. لا أظن أنه يمكن الحديث عن ذلك فلسفيًا».

فقلت لها: «ولكنه شرح للتو ما يعنيه، بل ذهب إلى أبعد من ذلك وشرح لنا ما يعنيه بـ «ماذا». لقد أجاب على سؤال «ما هو الماذا؟» من وجهة نظره والآن يريدنا أن نساعده على إجابة سؤال: لماذا ماذا؟»

قالت: «أظن أن التفكير السريع عاجله، ليس إلا. لا أظن أنه كان يعي ما يسأل».

ساند راؤول رأي المرأة، وراؤول من المشاركين المواظبين على حضور مقهى سقراط، وكان حتى تلك اللحظة متقبلاً ومتحمسًا لنقاش كل سؤال طرحناه فيما سبق، لكنه قال بصوت قاطع: «لا يمكنك أن تسأل لماذا ماذا».

قلت: «لا يمكنك حتى طرح السؤال؟ ذلك يبدو... قرارًا دكتاتوريًا. من نحن حتى نقول إن هذا السؤال لا يمكن حتى أن يُسأل؟»

أجاب دون أن يبدو مستعدًا: «أنا متأكد أن سقراط لم يكن ليناقش سؤالاً مثل لماذا ماذا؟»

ذلك دفع بالمزيد من المشاركين ليدافعوا عن طالب الهندسة. قال رجل كانت تسريحة شعره تشبه شعر إلفيس بريسلي المطبوع صورته على التيشيرت الذي يلبسه: «سقراط لم يتمكن من نقاش كل شيء. إلى جانب ذلك، لا أعتقد أن سقراط كان سيرفض أي سؤال يطرحه أي شخص يريد بصدق أن يناقشه معه. لم يكن سقراط ليسأل: لماذا ماذا؟ فقط، بل أظن أنه كان سيسأل أيضًا: «ما هو الماذا»، «هل البشر من أصناف ماذا أو الماهيات؟»، «هل كل شيء موجود، ماديًا أو روحيًا، هو نوع من أنواع الماذا؟»

«إنه محق». قالت امرأة تجلس إلى جانب راؤول، وهي صديقة له دائمًا ما تحضر إلى هذه النقاشات بصحبته لكنها نادرًا ما تقول أي شيء. وأردفت لصديقها: «دعنا نلقي نظرة على سؤال هذا الشاب. دعنا نستكشف السؤال، ولنترك آراءنا المسبقة جانبًا لبعض الوقت».

فصار يتمتم على مضض: «لماذا ماذا... لماذا ماذا...»

حينها أومأت زوجتي سيسيليا ناحية طالب الهندسة وقالت: «عندما طرحت السؤال في بادئ الأمر، لم أكن أظن أنه سؤال معقول أنا أيضًا. لكن بلغتي الأم «لماذا ماذا؟» تترجم إلى «بوركيه إس كيه؟» ولاحظت أن الكلمة الأولى من السؤال - بوركيه - تتضمن في ذاتها الكلمة الثانية - كيه -. لذا في اللغة الإسبانية عندما نسأل عن السبب - عندما نسأل لماذا؟ - نحن نسأل في نفس الوقت عن موضوع السؤال، أي تحديدًا «ماذا؟» في لغتي الأم. لماذا وماذا لا يمكن الفصل بينهما»[1].

أحد الأشخاص الذي كان معاندًا لطرح السؤال صار ينظر إلى سيسيليا بنظرة ذهول. ثم قال في النهاية: «لقد غيرتِ وجهة نظري ١٨٠ درجة. لم يمكنني أن أسمح لمخيلتي أن تخترق حاجز اللغة وأن تحرر نفسها للبحث في السؤال». بدا خجولاً بعض الشيء وهو يعترف بذلك، ولكن مبتهج في نفس الوقت.

حينها قال طالب الهندسة له: « أنا سعيد أنك اعترضت على السؤال. لأنني كنت أتساءل إن كنت حقاً أعرف ما أريد السؤال عنه. يبدو لي أنه من خلال استجواب سؤالي، وصلنا إلى إجابات لم نكن سنصل إليها لو حاولنا

---

١ - الطريف أن ذلك أيضًا صحيح في اللغة العربية، فكلمة لماذا تتضمن داخلها كلمة ماذا. المترجم

الإجابة على السؤال بشكل مباشر. أخيرًا، أنا مستعد لقبول ماذا الضمنية».
ثم ضحك في خجل.

قلت للمجموعة: «قبل أن نقبلها بقوة، دعونا نتفحص بحرص أكبر ماهية هذه الماذا وما يمكن أن تكون».

أدرت نظري ناحية طالب الهندسة وقلت: «لقد ساويت بين الماذا وبين الجسيمات دون الذرية، والمجالات الكهرومغناطيسية، والبوليمرات الكيميائية، والجسور. لذا أفهم من كلامك أنه كي يصبح الشيء «ماذا» فإنه يجب أن يكون ماديًا».

فأومأ برأسه عن استحسان وقال: «بالضبط. كل شيء موجود هو شيء مادي، مصنوع من جسيمات أولية».

ومع أن فيالق من الفلاسفة والعلماء يتفقون معه، إلا أن أرسطو، الذي كان تلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، رفض مبدأ الجسيمات الأساسية، لأنه وجده أقرب إلى محض الأمنيات من أن يكون فرضية قابلة للإثبات. في كتابه (الفيزياء)، يقول أرسطو إن المادة «أولية بالنسبة لنا، نستطيع من خلالها أن نفرق بين المبادئ، والأسباب، والعناصر». جوهر المادة لا يشكل المادة فحسب، بل هو مصدر كل شيء، روحي أو مادي، محسوس أو غير محسوس. كما أشار أيضًا إلى أن المادة لا يمكن أن تفهم أو تعرف منفصلة عن خصائصها وقواها ومظاهرها، ولذا لا يمكن اختزالها إلى شيء مجرد غير قابل للاختزال.

ورغم أن أرسطو وأفلاطون كانا أكثر الفلاسفة تأثيرًا في التقاليد الغربية، إلا أن جميع من جاء بعد أرسطو تجاهل وجهات نظره في هذا الموضوع، لأنهم على ما يبدو وجدوها غريبة. ولكن الفيلسوف التجريبي البريطاني

الذي عاش في القرن الثامن عشر ديفيد هيوم، والمشهور بمجادلاته ضد دلائل وجود الإله، وكان من القلائل الذي استخدموا الاتجاه الفكري الغني لأرسطو منطلقًا إلى وضع التصور المفاهيمي الخاص به حول المادة، يقول في كتابه (رسالة في الطبيعة البشرية) إننا «لا نملك أدنى فكرة عن المادة الخارجية، بشكل مستقل عن الأفكار التي نملكها لخصائصها المعنية». ويقول أيضًا إن هذا يقتضي أننا لا نملك مفهومًا عن العقل، «بشكل مستقل عن المفاهيم المحددة» التي يملكها العقل لأشياء محددة. واعتمد هيوم على هذين المعطيين ليصل إلى مبدأ أن للطبيعة عدة أبعاد - بعد مادي، وبعد اجتماعي، وبعد نفسي، وبعد جمالي، إلى جانب أبعاد أخرى - وكل بعد منها هو بعد «أساسي» و«ضروري» في ذاته عندما ننظر إليها من خلال المنظور الكبير لكل شيء. ولا يتواجد أي من هذه الأبعاد في عزلة عن البقية، فهم يتداخلون ويندمجون ويتأثرون ببعضهم البعض عند كل منعطف.

بينما أرسطو، الذي تبنى الفهم الكوني الشائع في وقته، كان يرى أن بعض المواد مثل «الأجسام السماوية» ثابتة لا تقبل التغيير وبالتالي تعد «كاملة»، ولكنه كان يتفق مع هيوم في أن لا وجود للبساطة في تكوين أي نوع من أنواع المادة. وبناءً على هذا التوجه الفلسفي، فإن مادة ما، أو الماذا، هي مادة بكل جزء بسبب ما تعمله، وما يمكنها عمله، وما قد تعمله، وما يمكن أن يتم عمله بها، لأنها مادة بسبب ما هي مصنوعة منه. حقائقها وقواتها وطاقاتها وقدراتها الكامنة وتاريخها: كلها جزء من تركيبتها «المطلقة» أو «الجوهرية». كان هيوم يرى أن كل هذه المظاهر للمادة هي ضرورية ومطلقة وجوهرية بنفس القدر. عزلُ أي واحد منها لن يجعل المادة أقل بكثير من حقيقتها فحسب، بل سيشوّه المادة إلى الحد الذي لا يمكن إصلاحه.

سألت المهندس: «هل يمكن أن يكون الخير ماذا؟»

زالت نظرة الرضا من وجهه، وسأل: «ماذا؟»

«هل يمكن أن يكون الخير ماذا؟ على سبيل المثال، لو أنني أنقذت شخصًا من الغرق، فوُصف فعلي بأنه «عمل خير»، فهل هذا الخير ماذا؟ لو أكلت هامبرجر وقلت: إن طعمه جيد، فهل وصفي لذلك الهامبرجر على أنه جيد يعد ماذا؟»

بدا المهندس محتارًا. فجاء راؤول للنجدة، وقال: «العمل ذاته هو ماذا، مثل ما الهامبرجر هو ماذا. ولكن الجودة ليست ماذا. الجودة هي مجرد صفة للمادة».

قلت: «مجرد صفة؟ أليست الصفة هي ماذا؟ أليست صفة الهامبرجر أو صفة فعل إنقاذ شخص من الغرق تعد هي أيضًا ماذا؟»

قالت المرأة التي وصفت النقاش في البداية على أنه مجرد ترف عقلي: «إنها بلا شك ماذا». ونظرت إلى المهندس، وقالت: «أنت مادي، ولكن الأشياء غير المادية هي أنواع من الماذا أيضًا. إن الصفة هي ماذا مثل أي شيء آخر يوجد في هذا الكون. كل شيء موجود هو ماذا. في الواقع، الصفات والخصائص هي ما تجعل الماذا يكون ماذا. كل ماذا لديها صفات، وكل صفة لديها عدد من الماذا».

توقفت لحظة لتجمع أفكارها ثم قالت: «إذا نظرت إليك وقلت: أنت وسيم، فإنني أقول إن الوسامة هي ماذا بقدر ما أقول إنك ماذا. لو لم تكن الوسامة ماذا، لما كنت قادرًا على استخدامها. الوسامة هي كلمة تصفك. الكلمة كيان، ماذا، تستخدم لسبب محدد، للتواصل. لذا فإن هذه الكلمات التي نستخدمها، كلمات مثل جيد أو وسيم، هي أيضًا تعد ماذا. أنا معلمة لغة إنجليزية، وأنا أعلّم الناس كيف يتعاملون مع الكلمات. كل كلمة يعملون

معها هي ماذا. إن الكلمات يتم التلاعب بها لتشكيل أشياء، لصياغة أعمال أدبية أو رسائل أو غيرها، مثلما يتم استخدام المواد الكيميائية لتركيب مواد معينة».

سألت: «أليست الكلمات أيضًا ما يمكننا من الحديث عن، والتعريف بالماذا؟»

فاعتلت وجهها نظرة تملؤها الحيرة.

قال حينها المهندس وهو ينظر إلي: «ما تقوله، كما أظن، هو أن الكلمات هي ما نستخدم للإشارة إلى أو توضيح أو وصف المواد الحقيقية التي يتكون منها الكون. ولكنني ما زلت لا أعتقد أن الكلمات هي ماذا. الماذا هي واقع، الكون مصنوع من الماذا. والكلمات من ضمن أدواتنا التي نستخدمها لنفهم الماذا التي تشكل الواقع.»

وقبل أن يتمكن أي أحد من أخذ دوره في الكلام، تنهد ثم قال: «ولكنني أظن أن الكلمات هي ماذا أيضًا. وإلا لما كنّا نستطيع الحديث حول الكلمات وتعريف ما هي أو ما تفعل».

استدار ناحية مدرسة اللغة الإنجليزية وقال: «يبدو أنك تعتقدين أن الكلمات والصفات ليست مادية. واكتشفت الآن أنني وقعت في الخطأ عندما قلت إن الأشياء الملموسة، مثل الهامبرجر والبوليمرات، هي فقط الحقيقية أو المادية. فالكلمات حقيقية، والكلمات مادية أيضًا. لو كانت كلمة ما مكتوبة على ورقة، فإنها لم تكن لتكون كلمة إلا لأنها مصنوعة من شيء، مثلما الورقة المكتوب عليها هي شيء، أو ماذا. ولو تمثلت الكلمة في ذهنك كفكرة، فهي لم تكن لتتمثل لو لم يكن ذهنك مصنوع من مادة محسوسة، ألا وهي دماغك». توقف عن الحديث لبرهة ثم قال، وهو يوجه نظره من جديد

نحو المعلمة: «ما أظن أنني أحاول قوله هنا هو أنك تقومين بالتفريق بين الأشياء المادية والأشياء غير المادية، وأظنك تقولين إنهما نوعان مختلفان تمامًا من الماذا. وما أقوله أنا الآن هو أنه لا يوجد شيء غير مادي، وأن كل الأشياء مادية، حتى إن بدت أنها أنواع مختلفة جدًا من الأشياء المادية».

سألت: «إذًا الكلمات هي الماذا، أو الأفكار الملفوظة التي نستخدمها للإشارة إلى الماذا الموجودة من حولنا؟»

فقال: «شيء من هذا القبيل». إن وجهات نظره قريبة جدًا من وجهات نظر فرانسيس هربرت برادلي، الفيلسوف البريطاني البارز الذي يتبنى المذهب المثالي، والذي تحدث في كتابه المهم (المظهر والواقع) عن الواقع على أنه اتحاد بين «ماذا» و«ذلك»، حيث إن أفكارنا - الماذا - تعطي الهيئة أو الكلية للمادة في الواقع «ذلك».

سمعنا صوت ضحكة قوية جذبت انتباه الجميع. جاءت من راؤول. قال وهو ينظر إلى المهندس: «ما حيرني عندما طرحت السؤال في بادئ الأمر هو الطريقة التي طرحت بها السؤال. لقد طرحته بطريقة لم أفهمها. أظن أن الطريقة التي سيسأل بها طفل هذا السؤال ستكون هكذا: لماذا هناك شيء بدلاً من أن لا يكون هناك أي شيء؟ أو لماذا هناك ماذا؟»

قلت: «بالنسبة لهيدجر، الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يتساءل عن الوجود ذاته، الذي يتساءل لماذا هناك شيء بدلاً من أن لا يكون هناك أي شيء. يبدو أننا دليل على أن كلامه صحيح».

«وجود!» قال راؤول بصوت عالٍ أفزعنا. «الآن لدينا مفردة أخرى». أعاد نظره ناحية المهندس وسأل: «هل الماذا هو كل شيء موجود؟ هل الماذا، بتعبير آخر، هو ما عنده وجود؟»

هذه المرة جاء رد المهندس سريعًا: «نعم، بكل تأكيد».

قالت سيسيليا: «لا أوافق. ماذا عن الأشياء التي لا توجد بعد، أو الأشياء التي قد يقول عنها فيلسوف إنها في «حالة الصيرورة»؟ هي ماذا أيضًا».

قال المهندس: «أعتقد أنني لا أفهم قصدك». وبالحكم على نظرات بعض المشاركين، فإنه كان يتحدث نيابة عنهم أيضًا.

قالت: «أنا في طور نضجي في السن، فإذا بقيت حية لسنوات كافية، فإنني في النهاية سأصبح عجوزًا. ما أقصده هو أن هذه الإمكانية التي أمتلكها، هذا الشخص الذي لدي الإمكانية لأن أتحول إليه ولكن لم أتحول إليه بعد، هو ماذا مثلما أنا ماذا في هذه اللحظة».

حينها تحدثت امرأة كبيرة في السن، ذات عينين كبيرتين مفعمتين بالحيوية، وقالت لسيسيليا: «أنا تلك الكبيرة في السن التي ستتحولين إليها». ثم أدارت نظرها إلى بقيتنا وقالت باللاتينية: «أنا ما ستتحولون إليه، وأنتم ما كنت، أرجو أن تصلوا لروحي».

قال المهندس: «هذا كلام جميل، لكن أخشى أنني لا أتفق معك. لا أعتقد أن الممكن هو ماذا. حتى يتحقق الممكن، فإنه يبقى... لا شيء».

قالت سيسيليا: «ولكن عندما يتحقق الممكن، تدرك أنه كان موجودًا بداخلك طوال تلك المدة. عندما كنت طفلة، كنت أحلم دومًا أن أصبح راقصة. وعندما أصبحت مراهقة، بدأت بأخذ دروس في الرقص في مدرسة مارثا غراهام للرقص الحديث. وها أنا ذا أرقص منذ ذلك اليوم. أنا راقصة. أنا أشياء أخرى كثيرة أيضًا، ولدي الإمكانية لأصبح أشياء أخرى أكثر. ولا أتفق معك في أن وجود الإمكانية لأن أصبح راقصة هو لا شيء حتى أصبح بالفعل راقصة. الصيرورة هي ماذا مثلما الكينونة هي ماذا».

عادت معلمة الإنجليزية إلى الحوار: «فهمت ما تقصدين. على سبيل المثال، ثمرة البلوط هي شجرة بلوط كامنة. وخبرتنا تقول لنا إنه إذا تم زراعتها ورعايتها بشكل جيد، فإنها ستصبح شجرة بلوط». ثم أكملت قائلة، وهي تومئ إلى المهندس: « قد تقول الآن إنها ليست إلا ثمرة بلوط، ولا يمكننا أن نقول عنها أكثر من ذلك حتى تصبح شيئًا آخر. ولكن حتى إن لم تصبح أبدًا شجرة بلوط، فإنه لا زال بإمكاننا القول إنه عند الظروف الملائمة، فإن الثمرة تملك إمكانية أن تصبح شجرة. لذا أتفق مع سيسيليا أن تلك الإمكانية هي ماذا أيضًا».

سألتها: «هل يعني ذلك أن التغير هو ماذا؟»

أجابت: «نعم، بلا شك. التغير هو عملية، والعملية هي ماذا».

حينا قلت: «إذًا... التغير هو عملية حقيقية، وكل شيء حقيقي هو ماذا».

«ترددت للحظة قبل أن تقول: «نعم، بالضبط.»

قلت: «ولكن ثمرة البلوط، عند الظروف الملائمة، لا تملك خيارًا سوى أن تصبح شجرة بلوط. مثلما سيسيليا، عند الظروف الملائمة، ستصبح كبيرة في السن. هذه أمور لا يبدو أنها قابلة للتحكم أو التغيير – على الأقل، حتى الآن. لكن مع أنها كانت تحمل إمكانية أن تصبح راقصة، كان بإمكانها بسهولة أن تختار ألا تحقق تلك الإمكانية أبدًا.»

قالت معلمة الإنجليزية: «في كلا الحالتين، الإمكانية موجودة. بعض الإمكانيات فطرية أو غريزية، وهي خارجة عن سيطرة أي أحد. ولكن بعض أنواع الإمكانيات، لدى البشر على أقل تقدير، تستلزم الاختيار».

سألت: «وفي كلا الحالتين تعد الإمكانية حقيقية؟»

أجابت: «نعم، بالتأكيد. هي حقيقية سواء اكتشفتها أو لم أكتشفها،

استفدت منها أو لم أستفد. وبالطبع هناك الكثير من مجالات الإمكانية التي لا أريد أبدًا أن أستفيد منها. على سبيل المثال، أنا مثل أي شخص آخر أملك إمكانية إلحاق الأذى بالآخرين، ولكن بسبب منظومة القيم التي ألتزم بها، تلك إمكانية لا أريد أبدًا أن تصبح حقيقة».

حلّ هدوء مريح في المحادثة.

في النهاية سألت: «هل - اليونيكورن - الحصان أحادي القرن ماذا؟»

قال الرجل الذي وصل متأخرًا للنقاش: «نعم، ولا. وجوده ليس مثل وجود حيوان حقيقي كالحصان أو الزرافة. ولكنه موجود في مخيلتنا، موجود في الرسومات، موجود في بعض الكتب، إنه ماذا تخيلية».

قال المهندس: «هذا ما لا أتفق فيه معك. أوافق على أن الخيال حقيقي، لأن الخيال جزء من عقل الإنسان الحقيقي. وأوافق على أن رسمًا للحصان أحادي القرن حقيقي، وأن كتابًا حول الحصان أحادي القرن حقيقي، لأن الرسومات والكتب حقيقية؛ إنها أنواع من الماذا. ولكن الحصان أحادي القرن في حد ذاته ليس حقيقيًا. إنه ليس ماذا، لأنه لا يوجد حصان أحادي القرن حقيقي». تبسم ثم أكمل قائلاً: «على الأقل، لا أظن أنه حقيقي». تنهد بعمق، كما فعل عدة مرات، ثم قال: «ولكنني الآن صرت أشك في كل افتراضاتي؛ لا أدري أيًا منها حقيقي وما هو غير حقيقي».

صارت ابتسامته العريضة متناقضة مع جبينه المقطب. في النهاية قال: «لقد صرت أتساءل ما إذا كانت لدي أدنى فكرة حول ما هو الماذا؟»

***

ما هو الماذا؟

لم يكن لوحده يتساءل. هذه المسألة حيرت سقراط كثيرًا. أحد حوارات أفلاطون السقراطية (فيدو) يتمحور حول سبب «إيجاد» المواد و«انعدامها»، أو «الماذا»، وما تتكون منه هذه «الماذا». والواقع أنه قبل سقراط بوقت طويل، التحق الكثير من الفلاسفة وغير الفلاسفة بركب البحث عن الكأس المقدسة للمادة – الماذا المطلقة، أبسط شكل من أشكال المادة – التي لا يمكن أن تختزل أو تقسم أكثر مما هي عليه.

في حقيقة الأمر، يزعم كثير من علماء الكونيات الآن أنهم قد بحثوا في أعماق كل الخصائص المعروفة، وأنهم قد اكتشفوا المادة خالصةً وفي أنقى صورها، وفي الهيئة التي لا تقبل أي مزيد من الاختزال. يسمون ذلك الشكل من المادة... الأوتار. وهي خيوط أحادية البعد ومتذبذبة وحلقية. ويدّعون أنه يمكن تفسير كل شيء في أدق مستوى مجهري للمادة على أنها عبارة عن توليفات من هذه الأوتار المتذبذبة – وهذا اكتشاف يوحّد كل نظريات العالم المادي من خلال سد الفجوات بين نظرية النسبية العامة ونظرية ميكانيكية الكم، وهي فجوات كانت فيما سبق تبدو غير قابلة للرأب.

بريان غرين، عالم الفيزياء بجامعة كولومبيا الأمريكية، هو أحد الأنصار المتحمسين لنظرية الأوتار، وهي نظرية المادة البسيطة المطلقة. يذكر في كتابه (الكون الأنيق): «من أحد المبادئ – أن كل شيء، في أدنى مستوياته الميكروسكوبية، يتكون من تركيبات من الأوتار – تقدم نظرية الأوتار إطارًا

تفسيريًا واحدًا قادرًا على أن يشمل كل المادة وكل القوى». يؤمن غرين وأغلب زملائه في علوم الكونيات أن كل شيء تتم ملاحظته في الكون يمكن اختزاله إلى هذه الحلقات الضئيلة أحادية البعد، وهذا كما يدّعون يقدم «إطارًا له القدرة على تفسير كل الخصائص الجوهرية التي يقوم عليها الكون». كما يؤمن غرين أن نظرية الأوتار تبشّر بأن تكون «ركيزة راسخة لتحقيق الانسجام، تضمن لنا أن الكون مكان قابل للفهم إلى الأبد». ويثني على إمكانياتها على أنها «أكثر نظريات الفيزياء عمقًا»، أو «(نظرية كل شيء) - التفسير المطلق للكون في أدق درجاته الميكروسكوبية».

ولكن هل تعد حقًا هذه المحاولة الأخيرة لتحديد «ماذا» مطلقة «القفزة المفاهيمية» التي يدعيها غرين؟ هل هي حقًا «نقطة التحول التاريخية» التي «أعطتنا أملاً حقيقيًا على أننا على المسار الصحيح، وربما المسار الأخير» تجاه توحيد كل المعارف العلمية؟ أو هل هي في الحقيقة ليست شيئًا جديدًا على الإطلاق، بل مجرد عرض مفاهيم قديمة في منظور جديد؟ الفيلسوفان اللذان كانا يتبنيان المذهب الاختزالي وعاشا في حقبة ما قبل سقراط في القرن السادس قبل الميلاد، ديموقريطوس وليوكيبوس، كانا يريان أن الكون مصنوع من جزيئات أساسية تتحرك في الفضاء. ومن بعدهم، رينيه ديكارت، وإسحاق نيوتن، ولايبنتس، وجون لوك كلهم كانوا يؤمنون أن أبسط المواد هي «أساسية»، و«مطلقة» و«كاملة».

وفي المقابل، كان جستس بكلر الفيلسوف في جامعة كولومبيا يؤمن أنه لا يوجد شيء من قبيل الأشياء المجردة، بل إن كل شيء هو عبارة عن مركب معقد. يقول بكلر في كتابه (ميتافيزيقيا المركبات الطبيعية): «كل شيء، مهما كان، هو مركب طبيعي». لا شيء، حسب كلام بكلر، «أكثر حقيقة، أو أكثر طبيعة، أو أكثر أصالة، أو أكثر أساسية من شيء آخر». كل شيء وضعنا له

تصورًا ووصفًا وتخطيطًا بشكل أو بآخر - سواء كان يعتبر بالدرجة الأولى نتيجة التخيل البشري أو جسمًا ماديًا جوهريًا - هو مركب طبيعي على طريقته الخاصة وله مكانة متكافئة مع كل المركبات الطبيعية الأخرى. سواء كنت تتحدث عن الكوارك، أو الفراغ، أو الحصان أحادي القرن، أو المادة المضادة، أو تنينًا ينفث نارًا، أو سيمفونية، فإن بكلر يقول إنك تتحدث عن مركب طبيعي، يملك كل واحد منها تكاملاً فريدًا، ووظائفه وخصائصه وقدراته المحددة والمميزة، والتي تجعله على نحو ما وإلى درجة ما مختلفًا عن كل شيء آخر. فكان المقصود من مصطلح «المركبات الطبيعية» لبكلر أن يحل محل المفاهيم الغامضة للـ «شيء» أو الـ «كائن» والتي ترتبط عادة بالأشياء «المادية». ومع أن بكلر يعتقد أن المركبات الطبيعية لا تكون أكثر أو أقل حقيقة من بعضها البعض، إلا أنني أظن أن موقفه سيكون أكثر ثباتًا لو أنه كرس المزيد من الوقت للإشارة إلى أن هناك أنواعًا مختلفة من «الحقيقة» - حقيقة جوهرية، حقيقية تخيلية، حقيقة روحانية، حقيقة أخلاقية، حقيقة فوق الوصف. وكل هذه الأنواع في ذاتها هي مركبات طبيعية، ينبئ كل منها ويصف ويترابط مع المركب الآخر.

وعندما يقول بكلر إن كل شيء هو مركب طبيعي، فهو يعني كل شيء بالفعل: «العلاقات، التنظيمات، العمليات، المجتمعات، أفراد البشر، منتجات البشر، الأجسام المادية، الكلمات والمقالات، الأفكار، الخصائص، التناقضات، المعاني، الاحتمالات، الخرافات، القوانين، الواجبات، المشاعر، الأوهام، التعليلات، الأحلام - كلها مركبات طبيعية». هذا لا يعني أن كل مركب طبيعي يحمل نفس الاستخدام أو القيمة في تمييز الكون المادي واكتشافه. ولكنه يعني أن في جميع الحالات لا يوجد أمر مجرد غير قابل للاختزال - وأن كل مركب طبيعي تحت الشمس، وفوقها ومن خلالها، مكوّن من تشكيلة من الخصائص والوظائف المميزة والحيوية. بناءً على هذا

المبدأ، ومن خلال التحقق عن كثب، فإنه حتى الوتر بالغ الصغر، والمدعو بـ «المادة المطلقة» لدى علماء الكونيات الذين يتبنون نظرية الأوتار، هو الآخر عبارة عن مركب معقد من الصفات والخصائص والقدرات المنفردة المتشابكة، التي تعطيه كمالاً فريدًا لا يزيد في بساطته وعدم قابليته للاختزال عن المركب الطبيعي الذي نسميه الكون.

لي سمولين، عالم الكونيات بجامعة ولاية بنسيلفانيا، يقول، على خلاف ما يقول به أنصار نظرية الأوتار، إن الكون الذي نعيش فيه بعيد كل البعد من أن يكون مكونًا من عناصر مجردة ثابتة وغير قابلة للتغيير، ويحوي «الكثير من التنوع إلى الدرجة التي لا يمكن لمراقبين اثنين أن يشهدا نفس الشيء، ولا يمكن لأي لحظة أن تتكرر». بكلر يتفق مع سمولين على أن «البحث القديم عن المطلق»، والمعتقد القديم بوجود «وجهة نهائية» هو «حمل ثقيل» وقد «أثقل كاهلنا ما يكفي من الزمن».

ولكن يبدو أن أسلوب بكلر المبتكر في الميتافيزيقيا فتح الباب لما يسميه سمولين بـ «خفة البحث الحديث عن المعرفة». هذا البحث، كما يقول، مبني على فلسفة أساسية تؤكد على أن «الكون هو شبكة من العلاقات، وأن ما كنّا نعتقد يومًا أنه المطلق معرض للتغير وإعادة النظر؛ وأن الحقيقة الكاملة عن العالم غير قابلة للإدراك من وجهة نظر واحدة، بل تكمن في مجمل العديد من وجهات النظر المختلفة» وهذا يفسر حقيقة أن الكون يملك «الولادة الأزلية للتجديد».

لربما تختلف مع وجهة نظر سمولين أو بكلر، أو تلك التي يتبناها غرين، لكن عبر تدارس وجهات نظر مختلفة جذريًا حول ما يجعل الكون على النحو الذي هو عليه، فإن بإمكانك أن تصبح أكثر قدرةً على التصدي بقوة لأسئلة على غرار: ما هو المجرد؟ ما هو المطلق؟ ما هو الأساسي؟ أي نظرية من

نظريات الكون يمكنها أن توحّد كل الأدلة التي في متناول أيدينا؟ أي نظرية يمكنها أن تساعدنا أن نتصور بشكل أفضل إمكانيات واحتمالات ماهية الكون وما يمكن أن يكون - أي نوع من الأكوان يعد أكثر أناقة - الكون ذو المجردات غير القابلة للاختزال، أم الكون ذو المركبات دائمة التغير؟

***

العقول المتسائلة تريد أن تعلم

حتى إن نجح العلم في الوصول إلى «نظرية الحقل الموحد»، فهل ستكون تلك النظرية فعلاً قاعدة أساسية، أو «مثوى أخير»، لتوحيد كل المعرفة؟

دائمًا ما نغفل عن أن هناك العديد من أنواع المعارف العلمية. وهنالك العديد من أنواع المعارف إلى جانب المعرفة العلمية، مثلما هنالك الكثير من الأنواع المنطقية والمجدية في البحث إلى جانب البحث العلمي. فهناك البحث الديني، والبحث النفسي، والبحث الجمالي، والبحث الإنساني، والبحث الفلسفي، إلى جانب العديد غيرها - كما لا توجد فواصل محددة وواضحة بين عوالم الاستكشاف هذه. والأكثر من ذلك، لا يوجد شيء اسمه الطريقة العلمية في البحث. بل هناك العديد من صيغ وأنواع البحث العلمي، مثلما هو الحال في جميع أنواع البحث.

وإدراكًا لذلك، يسأل جون هيرمان راندال جونيور: «هل هناك مشروع موحد للبحث تساهم فيه كل فنوننا وعلومنا ودراساتنا الإنسانية؟» إجابته على السؤال كانت: «عندما نطرح سؤالنا بحثًا عن رؤية متناسقة وملائمة للعالم، فإننا جميعًا في النهاية إنسانيون وفلاسفة أيًا كانت معارفنا الخاصة».

لست واثقًا من أننا «جميعًا إنسانيون وفلاسفة»، والسبب هو أن كل فرد منّا قد يحاول أن يصل إلى رؤية «متناسقة وملائمة» للعالم. رجل مجنون يسعى للسلطة قد يتلاعب بالأسئلة من أجل أن يروّج لرؤية «متناسقة وملائمة» للعالم تقتضي إبادة شعوب من عرق معين أو إثنية معينة. ومرشد روحي

يؤمن بنهاية العالم قد يسأل فقط الأسئلة التي تؤدي إلى إجاباتٍ تنسجم مع فلسفته الأخروية «الملائمة والمتناسقة»، لكي يتمكن من إقناع أتباعه بالإقدام على الانتحار الجماعي. أمثال هؤلاء ليسوا فلاسفة ولا إنسانيين.

من الواضح أن كثيرًا من الرؤى الكونية قد تبدو لأنصارها «ملائمة ومتناسقة» - ولكن مثل هذه الرؤى لن تؤدي إلى الخلاص في أحسن حالاتها، وقد تكون عديمة الإنسانية في أسوأها.

إلى أي رؤية كونية يجب أن نسعى؟

الروائي والناقد والكاتب الفرنسي أندريه جايد أشار إلى أن قيمة كل رؤية كونية ليست فقط في ملائمتها وتناسقها «بل أيضًا، والأهم من كل ذلك... في الحافز الذي تعطيه للعقل لكي يصل إلى اكتشافات ودلائل جديدة... الآفاق الجديدة التي تفتحها، والحواجز التي تكسرها... الأسلحة التي تصنعها». الرؤى الكونية عديمة الإنسانية التي تتسم بالتعصب وعدم التسامح لا تسمح بالوصول إلى مثل تلك النهايات.

***

الفصل الخامس

لماذا نسأل لماذا؟

«؟»

مجهول



لقد عانى السؤال منّا كثيرًا على مر الزمن. ليس لأن كثيرًا منّا يخشى الأسئلة، بل لأن كثيرًا منّا لا يملك إلا أوهى الأفكار حول قوة السؤال وإمكانياته. وكثير منا لم يعد يملك أدنى فكرة حول كيفية استخدام السؤال.

فكر في هذا السؤال: هل الكأس نصف فارغة أم نصف ممتلئة؟ هناك مشكلة في هذا السؤال، حيث إنه لا يسمح إلا بإجابتين محتملتين. والمشكلة المذكورة في هذا السؤال هي مرآة لمشكلة أكبر في المجتمع. فطالما تم تلقيننا للتفكير بطريقة «إما - أو». هل هذا الإنسان صالح أم فاسد؟ هل هذا الطفل موهوب أم لا؟

ولا يخطر ببال الكثير منّا أن الطفل يمكن أن يكون موهوبًا في أمور عدة، ولا يكون كذلك في أمورٍ أخرى، وأن الإنسان من الممكن أن يحمل الخير في عدة جوانب، لكنه في نفس الوقت يحمل الشر في جوانب أخرى. يجب أن نبدأ بطرح سؤال: هل هذه حقًا أفضل طريقة لطرح هذا السؤال؟ أم هل هناك طرق أخرى يمكن أن تقود إلى إجابات ذات قيمة أكبر؟

نحتاج إلى جيل جديد من الفلاسفة ليعيدوا صياغة كل الأسئلة القديمة. يقول الفيلسوف الإنجليزي والمتخصص في الكلاسيكيات غلبرت رايل إننا إذا قمنا بذلك، فإن هذا الجيل الجديد سوف «يعطي الإنسانية هواءً جديدًا تتنفسه».

في أحد لقاءاتنا في نادي الفلاسفة بمدرسة سيزار تشافيز الابتدائية بسان فرانسيسكو، طلبت من أفراد العصبة السقراطية أن يطرحوا أفكارًا لأسئلة نناقشها، فجاءوا بعددٍ من الاقتراحات الجيدة: هل يمكن للكذبة أن تكون خيرًا؟ ما هو العمر؟ ما هو التسامح؟ هؤلاء الأطفال يعشقون طرح الأسئلة.

بعد ذلك قال رافي: «بإمكاننا المرور على جميع المشاركين في هذه الدائرة بطرح سؤال بعد سؤال. سنتعلم الكثير بمجرد عمل ذلك». وقد كان مصيبًا. سألتُ حينها جينيفر: «ما هو السؤال؟» ما هو السؤال! هذا منجم ذهب فلسفي. أجاب بيلار: «السؤال هو شيء تحاول الإجابة عنه». سألت: «لماذا نطرح الأسئلة أصلاً؟» فقال ويسلون: «لأننا نتساءل ونندهش بما نعرف». ثم قال أرتورو: «لأننا نريد أن نكتسب المعرفة».

قالت ماريا: «لأننا فضوليون محبون للاستطلاع». قال إدواردو: «لأننا لاحظنا أمرًا لم نفهمه». سألتُ: «كيف ستكون الحياة من دون أسئلة؟» قالت ستيفانيا: «مملة». قالت جينيفر: «لا شيء». قال رافي: «مستحيلة». أما روزا فبدت محتارة من كل تلك الإجابات. سألتها: «ما رأيك فيما يقولون؟» أجابت بتردد: «قد يكونون مصيبين»، مع أن وجهها كان يوحي أنها تشعر خلاف ذلك. ثم قالت: «ولكن ماذا عن المثل: «قتل الفضولُ القطة»؟» فسألتُ بصوت عالٍ: «هل من الممكن أن تكون فضوليًا أكثر من اللازم؟»

***

فضولي أكثر من اللازم؟

بينما كنت أنتظر الإجابات، صرت أتساءل مع نفسي، إن كانت هناك فعلاً ظروف معينة يكون فيها حب الاستطلاع زائدًا عن الحد المطلوب، مع أنني كنت أريد أن أعتقد أن ذلك غير صحيح. لقد ناقش المفكرون على مر العصور سؤال ما إذا كنّا بالفعل فضوليين أكثر مما يجب - وما إذا كان من الحكمة، أو على الأقل من الحصافة، أن نضع حدودًا على مقدار ما نسعى إلى معرفته. يقول الكاتب والناقد الأدبي المعاصر جورج ستاينر في كتابه (في قلعة بلوبيرد) إن حضارتنا «تتسم بالميل نحو خيار عدم القبول بتحمل المخاطر المترتبة على التفكير بدلاً من خيار كبح تلك المخاطر».

وعلى الرغم من أن ستاينر كان يرى أن الطبيعة المحبة للاستطلاع - من دون حدود - التي يمتلكها بعضنا قد يتضح في يوم ما أنها سبب انهيارنا الجماعي، إلا إنه منبهر أننا مستمرون في البحث والتحقيق على أي حال. «أن نكون قادرين على تصور إمكانية القضاء على أنفسنا، ومع ذلك نستمر في الجدال مع المجهول، هو أمر لا يستهان به أبدًا».

كان ستاينر يرى أن بعض أنواع التساؤل تعد نعمة على البشر من عدة جوانب (إلا أنه لا يحدد أية أنواع يقصدها)، لأنها تمكننا من «وضع تعقيدات محددة تحت المجهر». ويقول إن «الأمل يكمن في تلك الممارسة الصغيرة». ومع أني أتفق معه في أنه من الضروري وضع التعقيدات تحت المجهر، إلا أنني لا أعتقد أن ذلك كافٍ. فبعد أن نضعها تحت المجهر، فإن المجهود

الأكبر يكون حينها تحديد المنهج الذي يجب أن نتخذه فيما بعد.

ومثلما كان الأمر في أثينا في عصر سقراط، فإننا في هذا اليوم نجد أنفسنا فيما يصفه باحث الكلاسيكيات الإغريقية إي آر دودز بأنه «عصر عظيم للعقلانية، يتسم بالتقدم العلمي الذي يتجاوز ما كان يتصوره الأقدمون ممكنًا، ومواجهة البشرية باحتمالية الوصول إلى مجتمع مفتوح أكثر من أي وقت عرفه الإنسان». ولكن، كما هو الأمر في اليونان القديمة، نحن نرى في وقتنا الحاضر «العلامات الجلية للارتداد عن تلك الاحتمالية».

ربما، كما كان يعتقد دودز، أن أفضل شيء يمكن لمتفحص الطبيعة البشرية أن يفعله هو «تذكير قرائه أنه في يوم ما وصل شعب متحضر إلى هذا الحاجز – وصلوا إليه ورفضوا القفز من فوقه». بالنسبة لدودز، إن كان لنا نصيب في القيام بهذه القفزة في هذا الوقت، فإن علينا أولاً أن نتفحص أسباب سقوط أثينا القديمة، لنصل إلى جواب هذا السؤال: «من الذي رفض القفز، الحصان أم الفارس؟» كان تخمينه «الحصان هو من رفض. بعبارة أخرى، تلك العناصر اللاعقلانية في الطبيعة البشرية التي تحكم من دون معرفتنا الكثير من سلوكياتنا والكثير مما نظن أنه تفكيرنا».

وبما أن مجتمعنا اليوم يمضي على مسار يشابه بشكل لافت مسار أثينا القديمة، يبدو أننا نقترب إلى ذات الهاوية، حيث يجب علينا إما القفز أو التراجع. دودز يرى، مثل ستاينر، أن هناك ما يدعو إلى التفاؤل بأننا سنكون أفضل حالاً هذه المرة. يبدو أننا بالمجمل نملك تحت تصرفنا أدوات أكثر تمكننا من فهم طبيعتنا بشكل أفضل، وبالتالي يمكننا أن نتغلب على جوانبها اللاعقلانية. ويؤكد دودز أن قدرتنا التصاعدية في هذا المجال «تبعث الأمل في أننا لو استخدمناها بصورة حكيمة فإننا في النهاية سنتمكن من فهم حصاننا بشكل أفضل؛ وإذا فهمناه بشكل أفضل، فسيكون بإمكاننا

تدريبه بشكل أفضل ليتغلب على مخاوفه، ومن خلال التغلب على تلك المخاوف سيتمكن الفارس والحصان من القيام بتلك القفزة الحاسمة بنجاح».

لن يكون مستغربًا أنني أعتقد أن واحدة من أجدى الطرق لتقويتنا على القيام بتلك القفزة هي الطريقة السقراطية. إنها تمكننا من التركيز على تعقيداتنا ومن ثم تسويتها بشكل أفضل. بالطبع لا يعني ذلك أن تعقيداتنا ستختفي نهائيًا، فهناك تعقيدات جديدة ستظهر باستمرار. ولكن بطريقة تجعلنا أكثر معرفة وفي نفس الوقت أكثر تعاطفًا وبصيرة - أو أكثر فضيلة، كما سيقول سقراط.

لم أجد فيلسوفًا معاصرًا قام بصياغة الأزمة التي نعيشها، والتحديات التي تواجهنا في التعامل معها، بمثل النظرة المتعمقة والفصاحة البالغة التي عبرت عنها سوزان لانغر، أستاذة الفلسفة بجامعة كونيكتيكت كولدج، والتي استحدثت نظرية أساسية للرمزية حاولت من خلالها تفسير المعنى والمفهوم المعرفي للفن.

في كتاب (سكيتشات فلسفية)، تشرح لانجر الأمر بهذه الطريقة: «معضلة إعادة التوازن العقلي التي فشلت الإنسانية بشكل واضح في هذا العصر في حلها ليست معضلة نفسية ولا دينية ولا تربوية، بل هي معضلة فلسفية... ما نحتاج إليه اليوم هو... جيل من المفكرين الحازمين، الذين يكرسون حياتهم للفلسفة... مستعدون لتعلم أي مهارة أو معرفة خاصة يجدون أنهم بحاجة إليها - تم تدريبهم بشكل كامل كالعلماء، من دون التهرب من المواد الجافة أو الأساليب التدريجية - أشخاص يمكنهم مجابهة الأسئلة الفظيعة ومحاربة كل المفاهيم الخاطئة والتقاليد المربكة التي تخلط بين أفكارنا وحياتنا».

باختصار، نحن بحاجة إلى جيل من الفلاسفة المنغمس في الطريقة والروح السقراطية. ولكنني لا أفهم لِمَ تصف لانجر الأسئلة التي سوف يعالجها أولئك الفلاسفة على أنها «فظيعة». لا أعتقد أن أي سؤال يمكن أن يكون فظيعًا في ذات نفسه. قرأت ذات مرة في إحدى الجرائد قصة زوج مخلص وأب لخمسة أطفال قتله أحد أفراد عصابة وهو يغسل سيارته. ذكر الصحفي في الخبر أن الأطفال صاروا الآن «يسألون أسئلة فظيعة مثل: إن كان والدي رجلاً صالحًا، فلماذا قتلوه؟ وأين والدي الآن؟» المأساة نفسها كانت فظيعة، ولكن الأسئلة ليست فظيعة. لذا ما نحتاج إليه، كما أعتقد، هو فلاسفة يقومون في نفس الوقت بـ «محاربة المفاهيم الخاطئة» التي قادتنا إلى أن نصف تلك الأسئلة الجوهرية على أنها «فظيعة» مع أنها تستصرخنا لنقوم بنقاشها بشكل جاد.

«هل من الممكن أن تكون محبًا للاستطلاع أكثر من اللازم؟» سألتُ مجددًا أعضاء نادي الفلاسفة. وبينما كنت أنظر إلى وجوههم الطفولية الفضولية، التي يعلوها الكثير من الحكمة، صرت أتخيل أنني في تلك اللحظة أناقش الجيل الجديد من الباحثين الفلسفيين الذين سيتحدث عنهم المؤرخون يومًا ويذكرون أمجادهم.

فقد حان الوقت لمثل تلك التطورات. وكما تقول سوزان لانغر: «المراحل العظيمة للفلسفة» كانت تأتي دومًا على أعقاب «مراحل النمو الثقافي السريع أو التجارب المستحدثة»، ونحن نعيش كلا الأمرين إلى حد كبير. وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الدلائل التي تقول بعكس ذلك، فإنني أؤمن مثل لانجر أنه على نحو ما يمكن للخير أن يسود، وأن جيلاً جديدًا من الفلاسفة سيقوم بـ «شد» العقل البشري ليقدم لنا «بشكل أو آخر، إعادة توجيه عامة لبوصلة العالم»، و«ارتقاء جديد» في «مشاعرنا نحو الطبيعة وبعضنا البعض».

هل يمكن أن نكون محبين للاستطلاع أكثر من اللازم؟

«ربما يكون هذا سؤالاً يجب علينا ألا نحاول الإجابة عنه»، أجابت أخيرًا كارمن، إحدى أعضاء نادي الفلاسفة، عن سؤالي بعد قدر كبير من التفكير. ولكنها أضافت قائلة وعلى وجه السرعة: «لكن لا يمكنني التحكم في ذلك. لو سألني أحدهم سؤالاً، أو فكرت أنا في سؤال، فإنني أشعر أن علي محاولة الإجابة عنه. أنا فضولية ومحبة للاطلاع أكثر مما يجب!»

محب للاطلاع أكثر مما يجب.

صرت أفكر في سقراط. في كتاب (الاعتذار) لأفلاطون، كان سقراط يقول لمحاكميه دفاعًا عن نفسه: «كل ما أقوم به هو محاولة إقناعكم، صغارًا وكبارًا، أن تجعلوا تهذيب أرواحكم أول وأعظم اهتماماتكم...»

لقد أحب سقراط السؤال إلى الحد الذي جعله يفضل أن يموت على أن يعيش من دونه. لقد كان يعرف قدرة السؤال، وكان يعلم أنه يحمل معه خطورة كبيرة، بمقدار ما يحمل من بشرى وأمل. كان يعلم أنه يمكن أن يؤدي إلى الدمار لو وقع في الأيدي الخاطئة، وإلى النجاة عندما يكون في الأيدي الصحيحة. ولكن كان يعلم أيضًا أنه لا توجد أية ضمانات، وأن حتى التساؤل بنية حسنة يمكن أن يؤدي إلى تبعات لم تكن في الحسبان - قد تكون تلك التبعات رائعة، وقد تكون مأساوية، وربما تكون الاثنتين في آن واحد.

ورغماً عن ذلك، فإن سقراط كان يعلم أن أعظم خطر يكمن في محاولة الاستغناء عن السؤال بالكامل. محاكموه كان يشعرون أن طريقته في طرح الأسئلة كانت هدامة. وقد كانوا مصيبين في ذلك. فإنهم لو سمحوا لأنفسهم أن يفتتنوا بتلك التساؤلات، فإن حياتهم ستنقلب رأسًا على عقب. ولربما اتخذت حضارتهم منعطفًا أكثر إصلاحًا وجدوى من السقوط الحر الذي اتجهت نحوه.

كان محاكمو سقراط يفضلون نوعية الأسئلة التي يكون لديهم السلطة في تحديد الإجابة عنها. لقد خدعوا أنفسهم لكي يظنوا أنهم يعرفون الحقيقة، ولذا فإنهم لن يدعوا أحدًا يجعلهم يظهرون بصورة أخرى غير صورة الحكماء العارفين بكل شيء. أوضح سقراط للجميع أن حكمتهم التي كانت على طراز «ملابس الإمبراطور الجديدة» بدأت تضعف. على خلاف المتنبئين المزيفين، لم يكن بإمكانه أن يصرخ «سلام! سلام!» في حين لم يكن هناك سلام.

محب للاستطلاع أكثر مما يجب؟

سقراط لم يكن يسأل من أجل السؤال فقط. لقد كان يسأل عن قناعة. لقد كان يسأل من أجل أن يصبح أفضل إنسان يمكن أن يكون. لكن كان يُعدّ مهرطقًا، متمردًا، مخربًا. وقد كان فعلاً كل تلك الأشياء، مذنبًا بالتهم الموجهة إليه. ويا ليتنا شاركنا جميعًا في ذنوبه تلك وتحملناها عنه.

يقول لاسلو فيرسيني إن سقراط بسبب سعيه إلى الكمال - «الشخصية والبصيرة الأعظم» له - فقد صار «عاجزًا أمام جهالة وأخطاء الآخرين فكان الوقوع مصيره».

وكتب أيضًا: «إن كان ذلك صحيحًا، فإن الحكمة والفضيلة تكتسبان بعدًا مأساويًا، حيث إن مصير سقراط يشير إلى أن عالمنا قد تم بناؤه بالشكل الذي يصبح فيه شخص يسعى للكمال مشردًا فيه، بل ويهلك فيه على أيدي أولئك الذين يتحكمون فيه، وإن كانوا الأدنى قدرًا، بما يؤدي بالضرر بنا جميعًا».

***

السعي نحو الجهل

«هل يحق لأي فرد أن يكون جاهلاً؟»

جاء هذا التساؤل من طالب مستريح على أريكة قديمة بعض الشيء. هبّ السؤال علي وأنا أحاول الثبات على كرسي غير متوازن. جون السائل لديه شعر أحمر طويل متجعد، يبدو أنه كان ممنوعًا على المشط أن يمر عليه. وجهه البيضاوي الشاحب يغطيه الكثير من النمش. وعيناه شديدتا السواد بارزتان بشكل واضح. كان على رقبته طوق جلدي مرصع وسميك، من النوعية التي كنت أراها على الكثير من كلاب البولدوغ على مر السنوات.

كنت متواجدًا لإدارة أول مقهى سقراط لي، في غرفة صغيرة شبه مغلقة، في نهاية مقهى واسع يقع في إحدى كليات المجتمع بشمال كاليفورنيا. وصلت مبكرًا، كما أفعل عادة إذا ما كنت أشارك في مكان جديد؛ دائمًا ما أكون قلقًا من أنني سأتوه طريقي وأصل متأخرًا. وعندما أصل، أجد أن عددًا من الآخرين قد وصلوا قبلي. وبدلاً من كرسي دائري متحرك، تم إعطائي كرسي «مخرج سينمائي» غير متوازن إلى حد ما. تبسمت بشجاعة نحو الغرباء حولنا وأنا أحاول الاستقرار على ذلك الكرسي، والذي يميل بشكل مخيف نحو اليمين.

لم يحن الوقت بعد لنبدأ النقاش، ولكن لسبب ما سأشعر بالسخافة لو قلت له: «لننتظر عشر دقائق حتى يبدأ المقهى رسميًا ثم نناقش سؤالك».

إلى جانب أنه في تلك اللحظة وصل عدد الحضور إلى اثني عشر مشاركٍ ومشاركة. كان واضحًا أن سؤال جون قد أثار اهتمامهم.

في الواقع، قبل أن تسنح لي الفرصة للإجابة، بدأت امرأة لم يكن صوتها الجهوري يتوافق مع بنيتها الضئيلة بالحديث وقالت: «لا أظن أن من حقنا أن نكون جهالاً. أعتقد أن علينا مسؤولية تثقيف أنفسنا على الدوام، لكي نجعل أنفسنا أقل جهلاً».

ثم تحدثت امرأة أخرى، وكانت معلمة في المرحلة الابتدائية: «بقدر ما أتمنى أننا لا نملك الحق في أن نكون جهالاً، إلا أنني أظن أننا نملك ذلك الحق. لا أرى أي شيء مكتوب في إعلان الاستقلال، أو الدستور، أو ميثاق الحقوق يأمرنا: «لا يحق لك أن تكون جاهلاً». ولكن مع أني أقول ذلك، أعتقد أن في أي مجتمع ديموقراطي مثل مجتمعنا، فإنه من أجل أن تكون مشاركًا فيه بشكل كامل، فإن علينا أن نشعر بأننا ملزمين بأن نصبح أقل جهلاً. وهذا يعني، على الأقل بالنسبة لي، كما قالت، أن من واجبنا أن نثقف أنفسنا باستمرار».

قالت طالبة جامعية تعمل بدوام جزئي في حضانة الأطفال الخاصة بموظفي الجامعة وطلابها: «أحب نظرة الإثارة على وجوه الأطفال، حينما تتسع أعينهم، وهم يكتشفون بهجة التعلم، وبالنتيجة يصبحون أقل جهلاً، وعلى الرغم من ذلك يحافظون على براءتهم. التعليم هو الوسيلة التي تجعلنا أقل جهلاً من دون أن نشعر بالضجر. بل إنه يمنحنا شعورًا أكبر بالدهشة. والدهشة في رأيي هي شكل من أشكال البراءة».

سألتها: «هل يقتصر التعليم على كونه وسيلة لجعل شخص ما أقل جهلاً؟ يبدو أن من الممكن «تعليمك» لتؤمن أن أبناء العرق الأبيض متفوقون على غيرهم من البشر، على سبيل المثال، أو يمكن «تعليمك» لتؤمن

أن الأشخاص الذي يؤمنون بمعتقدات معينة هم فقط من يذهبون إلى الجنة - ومثل هذا «التعليم» لا يفعل سوى تغذية الجهل ونشره».

فكرت المعلمة في الأمر قليلاً قبل الإجابة: «نعم ذلك صحيح. لذا أظن أن عليّ أن أعدل على ما قلت قبل قليل، لأقول إن التعليم في أفضل حالاته هو وسيلة تجعلنا أقل جهلاً. وفي أسوأ حالاته، هو استهزاء بما يجب أن يكون عليه التعليم ويمكن بالفعل أن يجعلك «أقل تعليمًا»، وذلك لا يختلف عن أنه يجعلك «أكثر جهلاً». أظن أن هذا النوع الثاني من التعليم ليس في الواقع تعليمًا أصلاً، بل هو تلقين أو غسل أدمغة».

سألت: «وتعليم الناس ليصبحوا متفتحي الأذهان، وليكونوا مفكرين منتقدين طوال حياتهم، لا يعتبر تلقينًا؟»

«نعم، هو كذلك»، أجاب رجل متوسط العمر. وقبل أن يشرح أكثر، أخبرنا أن هذه هي أول زيارة له للحرم الجامعي، وأنه كان يفكر في إكمال الدراسة في علم الاجتماع بعد أن توقف عن الدراسة قبل ثلاثين عامًا، وأنها مجرد صدفة أنه كان عابرًا بالمقهى، حيث كان نقاشنا على وشك البدء، وكان في طريقه إلى سيارته بالمواقف. «إنه نوع جيد من التلقين، لأنه يقودك لتدرك أنه لا يوجد شيء اسمه جواب في أي مجال من مجالات المعرفة. إنه يقودك لتدرك أنك ستجهل دائمًا أكثر مما تعرف. وعندما يسلب منك براءة معرفتك لهذه الحقيقة، فإنه يلهمك لتستمر بالتعلم طيلة حياتك».

سألت المجموعة: «ما الفرق بين الجهل والسذاجة؟»

«بإمكانك أن تكون جاهلاً وساذجًا في نفس الوقت. بل أنني أظن أنهما متلازمان أكثر مما نتصور - ولكنهما ليسا شيئًا واحدًا»، قال ذلك رجل نحيل ذو عينين زرقاوين صغيرتين وشارب كثيف يبدو كأنه يغطي الجزء الأسفل من وجهه. وقد التحق مؤخرًا في الجامعة هذا الفصل الدراسي بعد أن أمضى

حياته وهو يعلم نفسه بنفسه. أكمل قائلاً: «أظن أنه من الجيد أن تكون جاهلاً ببعض الأمور. لقد عرضت نفسي للكثير من المخاطر في حياتي. وعندما أراجع القرارات التي اتخذتها، أدرك أنني لو كنت أعلم في ذلك الوقت ما أعلمه الآن، فإنه على الأغلب لن يكون لدي الشجاعة لأعرض نفسي لتلك المخاطر، مع أنها مكنتني لأعيش حياة مثيرة سافرت خلالها إلى جميع أنحاء العالم. لذا، كان من الجيد أنني كنت جاهلاً وساذجًا».

قال له مشارك آخر: «أظن أنك تخلط بين مفهومي الجهل والسذاجة، لم تكن جاهلاً عندما عرضت نفسك لتلك المخاطر، لأنك لم تتعمد أن تضع غمامة على عينيك لتمنع نفسك من معرفة أمور كان من الممكن أن تجعلك تعيد التفكير في الإقدام على ما قمت به. لكنك كنت ساذجًا عن معرفة العثرات المحتملة. لذا، بإمكانك أن تختار أن تكون جاهلاً، ولكنك بريء بطبيعتك. البراءة ليست شيئًا تختاره. على سبيل المثال، قبل أن تجرب لوعة الحزن على فقدان شخص عزيز، أنت بريء من تصور كيف تكون تلك التجربة. ولكن لو حاول أحدهم أن يشرح لك كيف تكون لوعة الحزن تلك ثم اكتفيت بما قاله لك وعزلت نفسك عن أي شيء آخر، فأنت قد تعمدت اختيار أن تكون جاهلاً».

قالت امرأة مسنة تجلس إلى جانب المعلمة الشابة: «لا أظن أن هناك شخص يختار أن يكون جاهلاً، أظن أن من طبيعتنا الرغبة في معرفة كل شيء يمكننا معرفته، لأن المعرفة جميلة».

قال رجل عرّف نفسه على أنه بروفيسور في التاريخ: «أختلف معك في الرأي، لا أعتقد أننا جميعًا نملك الرغبة في المعرفة. بعض الثقافات كانت تبتهج بسذاجتها. والكثير من مفكري الغرب كانوا يعتقدون أن السذاجة أمر عظيم. على سبيل المثال، روسو كان ينظر بشيء من التقدير والتعظيم لسذاجة

الثقافات البدائية. ولكن لو كانت تلك الثقافات أقل سذاجة وجهلاً، لما كانوا لقمة سائغة للغزو والاستغلال من قبل قوى أكبر، ولما كانوا يعيشون في الظروف التعيسة التي ما زال كثير منهم يعيش فيها إلى يومنا هذا. الكثير من هذه الثقافات بدت وكأنها تريد أن تبقى في الظلام حيال تلك الأمور».

ثم أكمل قائلاً: «ومع أني قلت ما قلت، إلا أنني لا أظن أن كل المعرفة جميلة. بعض الأحيان يكون الجهل أمر جيد جدًا». توقف للحظة، كأنه يفكر إن كان عليه أن يشرح مقصده أكثر. ثم قطب جبينه وقال: «أنا لم أخبر والدتي أن والدي، زوجها، قد توفي. لأنني شعرت أن ذلك سيكون مفجع جدًا بالنسبة لها. والدي توفي منذ عدة أشهر الآن، ووالدتي قريبة جدًا من الخرف. وحتى هذه اللحظة لا تدري عن وفاته. أعتقد أن من الأفضل لها أن تبقى جاهلة بذلك».

حلّ سكون طويل. يبدو أن لا أحد يدري ما يجب قوله بعد ذلك.

قال جون في النهاية: «أظن أن الأسوأ من ذلك ألا يكون الناس جاهلين بأمر ما، لكنهم يتصرفون كأنهم جاهلين بالفعل. على سبيل المثال، عندما يستمر شخص عنصري في عنصريته، مع أنه يعرف الأسباب التي تجعله عنصريًا - بل ربما يكون عارفًا أن عنصريته غير منطقية لأنه يعلم جيدًا أننا جميعًا متطابقون في جيناتنا بنسبة ٩٩,٩ بالمائة - وهذا يكون مخيفًا أكثر من أن يكون شخص ما عنصريًا لمجرد الجهل».

قال طالب يجلس في جزء ضيق من الأريكة التي يتمدد عليها جون: «يبدو أننا نفرق بين الجهل المتعمد والجهل غير المتعمد، ما أشار له أحدهم قبل قليل بالقصد، يبدو أنه في أي لحظة من لحظات حياتنا نكون جاهلين بالكثير من الأمور. لكي نعمل (أ) علينا أن نغمض أعيننا عن (ب) و(ج) و(د)...»

«أنت محق»، قالها رجل يستند على الجدار في زاوية بعيدة من المقهى، وصار يقترب أكثر من المجموعة. عرف بنفسه على أنه عميد شؤون الطلاب. أكمل قائلاً: «في الحقيقة لو حاولت أن أفعل كل شيء أرغب في فعله، فإنني على الأغلب لن أتمكن من الانتهاء من أي شيء لأنني سأشتت جهودي. لذا، ربما يكون أفضل شيء نعمله هو أن نكون واعين لجهلنا، ولكن لا نقبل أن نبقى دومًا على ما نحن عليه الآن من جهل».

قال أستاذ التاريخ: «أظن أن تلك هي فلسفة سقراط، وأظن أن السبب في أنه كان أكثر الناس حكمةً على مر الزمان هو أنه عرف إلى أي مدى كان جاهلاً. في كل مرة كان يستجوب سفسطائيًا، حتى إن كان يقول إنه يسعى للوصول إلى المعرفة من خلالهم، إلا أنه في الواقع كان يسعى وراء جهلهم - لأن في كل مرة، يتضح أن السفسطائيين لم يكونوا يعرفون ما كانوا يدّعون معرفته. لذا استنتج سقراط أنه يكاد لا يكون هناك أي معرفة على الإطلاق، ولكن هناك الكثير من الجهل».

ثم حوّل نظره نحوي لفترة طويلة وبشكل غير مريح. في النهاية قال بابتسامة ساخرة: « أظن أنك تبحث عن الجهل، مثلما كان يفعل سقراط.»

***

الإدراك السقراطي

انتهى وقت المقهى، لذا لم يتم نقاش هذا التعليق الأخير ولم يعترض عليه أحد. لكنه بقي معي طويلاً حتى بعد أن انتهى حوارنا ذلك اليوم. لقد سمعت كثيرين يقولون كلامًا مشابهًا لما قاله أستاذ التاريخ على مر السنوات، وتحديدًا أن سقراط كان يسعى نحو الجهل لأنه ادّعى أنه لا يعرف شيئًا بشكل موثوق. ولكنني لا أرى ذلك صحيحًا. هناك فرق كبير بين ادعاء معرفة شيء وادعاء معرفة شيء بشكل موثوق. سقراط ينتمي للمعسكر الأول. فهو لن يقول قط: «أنا أعلم لأنني لا أعلم»، بل أعتقد أنه كان سيرى مثل هذه العبارة مخادعة في أفضل حال. سقراط كان ملتزمًا التزامًا شديدًا بمهمة اكتشاف ماهية مثالية الإنسان، وقد علّم الناس منهجًا محددًا يصبحون من خلاله أكثر استنارة بالسبيل الذي يؤدي بهم إلى أن يكونوا أكثر فضيلة. الكثير من الفلاسفة منذ ذلك الوقت، من هيوم إلى ديكارت إلى ويتجينستين إلى راسل، استخدموا نفس هذا «السلوك التشكيكي» – أو ما أسميه الإدراك السقراطي – كمنصة الانطلاق الخاصة بهم لاكتساب البصيرة حول الكثير من معضلات الحياة المحيرة. ولطالما كان هذا الإدراك مترافقًا مع أكثر التحليلات تنقيبًا ونفاذًا لعظماء الفلاسفة.

كل من تبنى هذا النوع من الإدراك يصبح غير راغبٍ في تقبل الاستنتاجات إلا إذا كان لها أسباب مقنعة جدًا. معلم «الزِن» قد يقول لك: «لا تفكر، انظر!» لأنك عندما تفكر فإنك تحاول أن تفهم بدلاً من الانغماس في التجربة

بشكل مباشر. ولكن سقراط سيقول لك: «انظر. وفكّر. ثم انظر مرة أخرى. ثم فكر مرة أخرى. لا تتوقف أبدًا عن النظر أو التفكير». لقد كان يرى أن التفكير هو شكل من أشكال النظر، ونوع من التجربة المباشرة. إذا كنت تنظر من دون التفكير، فإن ذلك سيكون جهلاً متعمدًا، وهو شكل من أشكال العمى. ولكن إذا نظرت وفكرت، وإذا لاحظت وفكرت، وأيضًا استمعت إلى وجهات نظر الآخرين حول ما يلاحظون ويفكرون، فإنك ستبقى جاهلاً، لكن ليس بنفس القدر من الجهل. ستتقدم أكثر قليلاً على مسار التنوير بنسخته السقراطية.

وبتقدمك البطيء بهذه الطريقة، من خلال السعي نحو الحقيقة، فإنك تصبح أقل جهلاً. وتكتسب نوعًا من الحكمة يمكننا أن نطلق عليها «الحكمة السقراطية»، والتي ترقى إلى التعبير عنها بالتالي: أنت قادر على أن تحدد ما تعرف - وهي تلك الأمور التي تصمد أمام التمحيص الصارم - وما لا تعرف. ستصبح واعيًا بحدود معرفتك، لكن بطريقة تلهمك إلى أن تدفع تلك الحدود إلى الخارج أكثر فأكثر. وكما يقول ريتشارد تارناس، بالنسبة لسقراط «اكتشاف الجهل كان مجرد خطوة البداية في المهمة الفلسفية»، لا النهاية. بعد أن يكتشف الفرد جهله، فإن بإمكانه بعد ذلك أن «يبدأ بالتغلب على افتراضاته التي أعاقت الطبيعة الحقيقية لما يعنيه أن يكون الإنسان إنسانًا».

كان سقراط مكروهًا لدى الكثير من الأثينيين لأنه أظهر لهم كيف أن استخدامهم لمبادئ مختلفة مثل الشجاعة والعدالة والخير والفضيلة كان استخدامًا فوضويًا ومربكًا. لقد استاءوا من إصراره على تحليل المعنى الدقيق لكل الافتراضات، والتحديد بدقة شديدة إلى أي مدى تكون تلك الافتراضات صحيحة. ولكن الفحص التأملي، ضمن عدة أمور أخرى،

يمكنه أن يرينا أن بعض الأخطاء تنشأ من المعرفة غير الدقيقة، وبعضها الآخر ينشأ من الاستنتاج الخاطئ، ويبقى بعضها ناشئًا من الاستخدام غير المبالي للمفردات اللغوية.

إلى هذا اليوم، يستمر نموذج سقراط في تعليمنا كيف نوسع آفاقنا الذهنية والتخيلية. لقد كان منتقدًا بشدة لأولئك الذين يدعون أشخاصًا آخرين يفكرون عنهم. كان يرى أن دوره قريب من دور القابلة؛ حيث كان يساعد الناس على توليد أفكارهم هم، والعمل من خلال المعتقدات الخاصة التي يمكنهم أن يختاروا العيش بها.

***

تعليم حقيقي

أورثنا سقراط - بالمقام الأول - قناعة أننا يجب أن نكون مستعدين لوضع معتقداتنا بشكل جذري ومستمر أمام المجابهة تلو المجابهة، من الخارج ومن الداخل. كان سقراط يمارس ما كان يصفه لاسلو فيرسيني بـ «التعليم الحقيقي»، والذي كان محوره الأساسي «التشكيك في الآراء المقبولة، وفحص المعتقدات، ودحض الدوغمائية، واختبار المعرفة، وإدانة الجهل».

إنه مما يدعو إلى التواضع أن يكتشف الشخص أن كثيرًا مما كان يظن أنه يعرفه كان قائمًا على أرضية غير ثابتة. ولكن كما يقول سقراط في حوار (الثيتتس) لأفلاطون: «إن اقتنعت مرة أخرى بعد ذلك... فإن أفكارك الوليدة ستكون أفضل نتيجة لذلك التمحيص...» وفي حوار (مينو) لأفلاطون، علّم سقراط أحد العبيد الصغار بطريقة السؤال والجواب حتى جعله يصل إلى إدراك أنه لم يكن يعلم ما كان يظن أنه يعلم. سقراط لم يكن يعمل ذلك ليجعل الصبي يشعر أنه أحمق، ناهيك بأن يحاول تثبيطه عن التعلم. بل على العكس، كما يشرح سقراط ذاته في حوار (مينو): «لم نؤدِ إلى أي ضرر به عندما جعلناه حائرًا مصدومًا... بل ساعدناه للوصول إلى الحقيقة، لأنه الآن سيبحث عنها وبكل سرور... هل تظنون أنه كان سيبحث عن المعرفة ويكتسبها إن كان يعتقد أنه يعرف ما لم يكن يعرف، وقبل أن يقع في الحيرة بإدراكه أنه لم يكن في الواقع يعلم وقبل أن يقع في هذه اللهفة للمعرفة؟ بسبب ما فقده الآن، سيبحث ويكتشف، من خلال بحثه معي...»

كتب سبينوزا في نهاية رسالة (الأخلاقيات): «كل شيء مميز صعب بقدر ما هو نادر». ومع ذلك فإن رؤيتنا للتميز في الوقت الراهن ترتبط في الغالب باكتساب الثروة المادية، وهذا التميز ليس صعبًا للغاية وليس نادر الحدوث، لا سيما للمستثمرين المحنكين الذين يملكون أموالاً كافية للاستثمار، يجمعون بواسطتها المزيد من الأموال في أي اقتصاد صاعد. وليس صعبًا ولا نادرًا على فلاسفة السفسطة في هذه الأيام - كما كان الوضع في زمن سقراط - أن يقوموا بـ «نصح» أولئك الأثرياء الذين يمكن اعتبار أي هدف تقريبًا يضعونه لأنفسهم ومن ثم يحققونه أمرًا «مميزًا». وينأون بأنفسهم جاهدين بعيدًا عن رأي سقراط بأن «الفضيلة لا تأتي من الثروة، بل... الثروة وكل جميل يملكه الإنسان... يأتي من الفضيلة».

خلال ترحالي، التقيت ببعض الفلاسفة الأكاديميين الذين يتفلسفون مع «عملاء» خاصين بأسعار مرتفعة للساعة الواحدة. البعض يبدو قلقًا من أنني لا أهدف إلى الربح من التفلسف مع العامة؛ ويستاؤون من أنني أعلّم الناس - وكثير منهم لم ولن يأخذوا في حياتهم دروسًا أو مقررات أكاديمية في الفلسفة - كيف يديرون نقاشات لأنفسهم عبر استخدام الطريقة السقراطية. إنهم يريدون أن يحصل كل «فلاسفة العموم» على درجات أكاديمية في الفلسفة، وأن يكونوا «معتمدين» وأن يطلبوا مقابلاً ماليًا لذلك الاعتماد. بالنسبة لهم، من الضروري أن يتفلسف أي أحد من العامة فقط مع متخصص، وبمقابل.

لقد قابلت بعضهم ممن كانوا يجتهدون في انتقاص سقراط ذاته، مثل ما كان يفعل قبلهم السفسطائيون الذين يتقاضون رسومًا. ويزعمون أن سقراط إذا لم يكن يتكسب من خلال التفلسف، فلا بد أن كانت لديه أموالاً من قبل، أو أنه كان مدعومًا بواسطة أصدقائه الأثرياء، وهذه الفكرة ذاتها مثال نموذجي

للسفسطة. من السهل القول إن الأغنياء وزمرتهم فقط من كان يمكنهم تحمل الابتعاد قليلاً عن صنع المال؛ ولكن ذلك إهانة للأشخاص الذين لا يُحصون ممن تخلوا عن الكسب المادي من أجل تكريس حياتهم لأهداف عليا. و(اعتذار) أفلاطون يجعل من الواضح جدًا أن سقراط اختار أن يعيش في الفقر المدقع بمحض إرادته ليبقى مخلصًا لمثله العليا.

انخرط سقراط طوال حياته في السعي نحو نوع من المثالية التي لا يمكن لأي مبلغ من المال أن يشتريها. وأما بخصوص الأثرياء الذين يمكن أن يحفزهم أن يكونوا رعاة له، فإنني أفضل التفكير في أنه سيسأل: هل يمكن تصور مجتمع يكون فيه الفجوة بين الأغنياء والفقراء أقل سوءًا مما هي عليه الآن؟ هل أنت مسؤول عن رفاهية إخوانك من بني البشر؟ ما الأهم: الطريقة التي تكتسب بها أموالك أم حقيقة أنك ناجح في ذلك الاكتساب؟ ما هو «النجاح»؟ هل يعد «تميزًا» إذا ما كانت الشركات المسؤولة عن مكاسبك مسؤولة أيضًا عن تدمير البيئة واستغلال العمال؟

***

مثالية البشر

بالنسبة لسقراط، الإنسان المثالي هو ذلك الفرد الذي يسعى لاكتساب فضائل محددة، مثل ضبط النفس والشجاعة والحكمة. لماذا؟ لأن اكتساب تلك الفضائل يصنع ثروة من نوع آخر - ثروة من التعاطف، وثروة من الرؤية التخيلية، وثروة من اكتشاف الذات.

تشمل (القيم السقراطية) ضمنيًا هذه الوصية: يمكنك اكتساب المثالية البشرية فقط إذا سعيت في نفس الوقت لتمكين أشقائك من بني البشر للوصول إلى المثالية أيضًا. ولتبني هذه الوصية فإن الأمر يتطلب وعيًا اجتماعيًا ورؤية تخيلية لطالما كانت صعبة ونادرة.

في (الاعتذار)، وبينما كان مصير سقراط متأرجحًا، قال التالي للأثينيين:

طالما كنت أتنفس، وكانت لدي القوة لأستمر، فإنني لن أتوقف عن التفلسف، ولن أتوقف عن حثكم وحث أي شخص أقابله، بطريقتي المعتادة: صديقي الموقر، مواطن أثينا، أعظم مدينة في العالم، تتميز في الذكاء والقوة، ألست تخجل من اهتمامك الزائد بجمع كل المال الذي يمكنك جمعه، وتعزيز سمعتك وإعلاء شأنك - وأنت لا تعطي أي اهتمام للحقيقة والحكمة والارتقاء بروحك؟

بالنسبة لسقراط، فإن على الشخص «أن يفكر فقط إن كان يفعل الصواب أو الخطأ، حينما يفعل أي شيء - وإن كان يمثل دور الإنسان الصالح أو

السيء.»

في نهاية (فيدو) أفلاطون، الحوار المؤثر الذي يصف آخر اللحظات في حياة سقراط، حيث يزوره أصدقاؤه المخلصون في زنزانته بالسجن. وقبل أن يتجرع سم الشوكران بلحظات، يسألونه ما الذي يمكنهم عمله لـ «يقدموا أكبر خدمة» له. كان لدى سقراط طلب واحد فقط: طلب منهم أن يستمروا بـ «اتباع ذلك المسار في الحياة» الذي اكتشفوا من خلال الحوارات الثرية الكثيرة التي شاركوا بها أن ما يجعل الحياة تستحق العيش.

***

إبكتيتوس (حوالي ٥٠ - ١٣٨): فيلسوف رواقي أخلاقي، أسس مدرسة للفلسفة بعد تحريره من عبوديته. كان يعتقد أن الغرض من الفلسفة ليس اكتساب الأوسمة والجوائز بل لكي يصبح الفرد مواطنًا أفضل في هذا العالم.

إتيان جيلسون (١٨٨٤-١٩٧٨): فيلسوف فرنسي كاثوليكي، مؤرخ لفلسفة العصور الوسطى، وعالم أديان أصولي. حاول أن يعيد إلى الحياة تفريق توماس أكويناس ما بين الجوهر والوجود في الكائن المخلوق، ليؤكد على أسبقية الوجود في أي موجود.

أرتور شوبنهاور (١٧٨٨-١٨٦٠): فيلسوف ألماني وكاتب نثر كان يؤمن بأن كل ما في الواقع هو إرادة - سعي مستمر، غير واعٍ في الأغلب، يظهر نفسه في أشكال متعددة وذلك يقود بثبات إلى المعاناة. كان يعتقد أن عدم الوجود من الأساس أفضل من المعاناة، وكان يعد متشائمًا بسبب آرائه حول المعاناة. شوبنهاور الذي عمل خارج التيار الأكاديمي، شرح نظامه في الميتافيزيقيا في كتاب «العالم إرادة وتمثل».

أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ قبل الميلاد): تلميذ أفلاطون، ومعلم الإسكندر الأكبر، ومؤسس الليقيون (أو ما يعرف بـ«ليسيوم» وهو معبد ارتبط بالمدرسة المشائية للفلسفة التي أسسها أرسطو) في أثينا. كان فيلسوفًا ذا اهتمامات واسعة النطاق، ويعتبر أول من جمع الجوانب الضمنية لفروع المعرفة. أدرك الدور المهم للتعريف والاستقراء والاستدلال في تطور العلوم، وقام بتمييز

العلوم في ثلاثة أقسام: النظرية، وهي التي تسعى إلى الحقيقة؛ والعملية، وهي ذات الطبيعة العملية؛ والمنتجة، وهي المعنية بالتكوين.

إرنست ناغل (١٩٠١-١٩٨٥): فيلسوف أمريكي ولد في النمسا - المجر، معروف بأعماله حول آثار العلوم. كان ناغل عضوًا في قسم الفلسفة بجامعة كولومبيا لما يزيد على أربعين عامًا، نال في نهايتها لقب بروفيسور جامعي، وهو أعلى مستوى بالجامعة. عُرِف بـ «تركيب العلم» الخاص به، الذي أوضح من خلاله منطق التفسير العلمي كما تطور في جميع العلوم.

أفلاطون (حوالي ٤٢٨-٣٤٨ قبل الميلاد): فيلسوف من أثينا، وتلميذ سقراط. الكثير من حواراته تظهر سقراط على أنه ذلك السائل الذي لا يعرف الكلل والذي كانت طريقته «المفندة» في الاستجواب أو التحقيق الشامل تظهر في الغالب الادعاءات الكاذبة بالمعرفة التي كان يحملها أغلب السفسطائيين الموقرين في اليونان القديمة. أفلاطون يعتبر على نطاق واسع المؤسس والممارس الذي لا نظير له للحوار الفلسفي كما نعرفه اليوم.

ألفرد نورث وايتهيد (١٨٦١-١٩٧٤): عالم رياضيات وفيلسوف بريطاني. كان يسعى إلى تطوير منهجية ميتافيزيقية للطبيعة مبنية على الفيزياء الحديثة والمنطق. كان وايتهيد معلم برتراند راسل في كامبريدج، حيث نال الزمالة في كلية ترينيتي من عام ١٨٨٤م إلى ١٩١٠م. ثم عمل بروفيسورًا للفلسفة بجامعة هارفارد من عام ١٩٢٤م إلى ١٩٣٧م.

أناكساغوراس (حوالي ٥٠٠ - ٤٢٨ قبل الميلاد): أول الفلاسفة الإغريق الذين انتقلوا إلى أثينا وأول من حُوكم رسميًّا بتهمة الهرطقة أو عدم التقوى. أناكساغوراس كان يعتقد أن كل شيء يتكون من عدد لا ينتهي من الجزيئات أو البذور أو «الأشياء» الكونية، وأن في كل شيء جزءًا من كل شيء.

إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤): فيلسوف ألماني، أكدّت «فلسفته

النقدية» المؤثرة على أن الأفكار لا تتوافق بالضرورة مع العالم الخارجي، بل إن العالم يعرف فقط إلى الحد الذي يتوافق فيه مع تركيبة العقل البشري. في صياغته الأمرية القاطعة الشهيرة، يستحث كانط الناس، بصفتهم وكلاء أخلاقيين، ليتصرفوا كما لو كانوا مأمورين بالقيام بأفعالهم لذاتها - كما لو كانت قانونًا كونيًا من قوانين الطبيعة - من دون النظر إلى نهاية ما يفترض أن تؤدي إليها. كان كانط يعتقد أن الفرد الأخلاقي يجب أن يؤمن بالإله، والحرية، والفناء، حتى وإن لم يكن هناك أساس علمي أو ميتافيزيقي يمكنه برهنة تلك المعتقدات. قام كانط كذلك ببناء نظرية شاملة للمعرفة، والجمال، والأخلاق أثّرت تقريبًا على كل الفلسفات اللاحقة.

باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧): الفيلسوف الهولندي المولد المعروف باقتصاده ومواقفه الشجاعة. في عام ١٦٥٦م، طرد سبينوزا لفترة وجيزة من مجتمعه اليهودي في أمستردام على أنه مهرطق. وفي عام ١٦٧٣م، قامت الكنيسة الإصلاحية بإدانة سبينوزا، ونبذه بالتالي، لتبنيه التسامح والسلام في كتابه (رسالة في اللاهوت والسياسة). وخلافًا لديكارت، طوّر سبينوزا في كتابه (الأخلاق) فلسفة الوحدانية التي أكد من خلالها أن الجسد والعقل هما مظاهر لشيء واحد يدعى الإله أو الطبيعة. استخدم نظامًا رياضيًا من التفكير الاستنتاجي ليثبت وجهات نظره.

برتراند راسل (١٨٧٢-١٩٧٠): إنجليزي، مناصر للأصولية (الراديكالية) السياسية، وكاتب محب للسلام، وفيلسوف عرف بأعماله في المنطق وفلسفة الرياضيات (كان يرى أن كل الرياضيات يمكن أن تشتق من مسلمات منطقية). أثّر راسل في أجيال من قراء العامة من خلال كتابته في موضوعات مختلفة - بما في ذلك التعليم، والدين، والعلوم، والتاريخ - وتم منحه جائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٠. تعاونه مع ألفريد نورث وايتهيد في كتاب (مبادئ الرياضيات) كان سببًا في تأسيس المنطق الحديث.

تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٩-١٩١٤): فيلسوف وعالم أمريكي كان يصف نفسه على أنه «فيلسوف المختبر». كان معروفًا على أنه منشئ البراغماتية (الذرائعية، المذهب العملي). كان يؤمن أن المعتقدات هي «مبادئ لاتخاذ الإجراءات» وأن الأفكار يجب أن تقيم بشكل براغماتي، أو بحسب تبعاتها، وأن هذه التبعات لوحدها تشكل معناها. كما قام أيضًا بتحقيقات فلسفية رائدة حول منطق العلاقات ووظائف الحقيقة.

توماس أكويناس (١٢٢٥-١٢٧٤): فيلسوف إيطالي وعالم في الإلهيات، يعد أعظم ممثل للفلسفة الإسكولائية (المدرسية، الفلسفة واللاهوت المدرسي). يعتقد الكثيرون أن أكويناس هو أكثر الفلاسفة تأثيرًا في مرحلة العصور الوسطى. اكتسب صيتًا واسعًا لتوفيقه بين فلسفة أرسطو مع المعتقدات المسيحية ليكون بذلك الفلسفة الكاثوليكية الأرثودوكسية.

توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩): أحد مؤسسي الفلسفة السياسية الحديثة. حاول أن يصنع علمًا للسياسة بهدف وضع نهاية للاضطرابات السياسية. في كتابه الشهير (اللفياثان)، قام هوبز بمحاربة الكنيسة في إنجلترا، مؤيدًا ممارسة الدين بحرية من الدولة والسلطة الكنسية، وطوّر «فلسفة التكافؤ الطبيعي» التي كان يرى من خلالها أن كل الناس متساوون طبيعيًا من ناحية القدرات الجسدية والعقلية.

جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٩): الفيلسوف الوجودي المعروف، والروائي والكاتب المسرحي والناقد الاجتماعي. أبحاثه الفلسفية ركزت على طبيعة الحياة البشرية وتركيبة الوعي. كان سارتر يؤمن أن جوهر الوجود البشري هو القدرة على الاختيار. استنتج فيما بعد أن البشر «مدانون بأن يكونوا أحرارًا»، وأن أولئك الذين لا يقبلون مسؤولية أفعالهم يتصرفون بـ «سوء نية.»

جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨): مفكر فرنسي، سويسري المولد،

من المؤثرين في الفلسفة السياسية، ونظرية التعلم، والحركة الرومانسية. كان يجادل في أحد أعماله المتقدمة بأن المجتمع هو السبب في جميع آفات البشرية. لكن في عمله المعروف (العقد الاجتماعي) فإن روسو - والذي كان مفتونًا بالمثالية المدنية للجمهورية الرومانية القديمة - كان يقول إن الحكومات، في أفضل أحوالها، هي تمظهر للخيارات العقلانية لمواطنيها للمصلحة العامة (والتي أسماها «الإرادة العامة»).

جستس بكلر (١٩١٥-١٩٩١): فيلسوف المذهب الطبيعي الذي طوّر ميتافيزيقيا رائدة للمركبات الطبيعية. التحق بجامعة كولومبيا عضو هيئة تدريس في عام ١٩٣٧م وكان رئيسها من عام ١٩٦٤م إلى عام ١٩٦٧م، وكان يعتبر القائد الأخلاقي والفكري لبرنامج جامعة كولومبيا الذائع الصيت للحضارة المعاصرة. أسس لاحقًا برنامجًا جامعيًا في وجهات النظر الفلسفية بجامعة ولاية نيويورك بستوني بروك.

جورج فيلهلم فريدريش هيغل (١٧٧٠-١٨٣١): فيلسوف ألماني، ما يزال نظامه الفلسفي في الميتافيزيقيات يؤثر بشكل كبير على الفلسفة. بالنسبة لهيغل، فإن موضوع الفلسفة هو الواقع بأكمله، والذي يعبر عنه بالمطلق. أغلب من درسوا هيغل يصفون نظامه في الميتافيزيقيا على أنه مخطط جدلي من الافتراضات والنقائض والتركيبات. كان نظامه يخطط لتطور أو تقدم تاريخ العالم والأفكار نحو تركيبة أرقى من أي شيء سابق تقود نحو معرفة «الجيست» المطلقة، والتي تترجم إلى كلٍ من «العقل» و«الروح».

جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢): فيلسوف أمريكي رائد، وصاحب نظريات في السياسة، ومعلم، ومصلح اجتماعي. كان يركز على الأهمية القصوى للبحث للحصول على المعرفة على مدى مسيرته العملية. لكنه في نفس الوقت يؤكد على أن أسلاف فلسفته الغربية أخطأوا بالتركيز بشكل

رئيسي على أنظمة نظرية متعالية بديهية من المعرفة والميتافيزيقيا وطرق البحث. بالنسبة لديوي، البحث هو عملية ذاتية التصحيح، تتم في ظروف أو سياقات تاريخية وثقافية أو «عملية»، قادت إلى نوع من المعرفة يقبل التعديل والتنقيح والتطوير على الدوام.

جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤): المؤسس المؤثر للإمبريالية البريطانية. كان يرى أنه لا توجد أفكار فطرية، بل إن التجربة هي أساس كل الفهم الإنساني. شرح نظريته السياسية في كتاب (أطروحتان حول الدولة)، مؤكداً على أن الناس، «بطبيعتهم أحرار، ومتكافئون، ومستقلون». ومن باب إيمانه بأن الفلسفة لا يمكن في الواقع فصلها عن العلوم، حاول في (مقالة حول الفهم الإنساني) التوفيق بين المعرفة وآخر الاكتشافات العلمية في القرن السابع عشر.

جون هيرمان راندال جونيور (١٨٩٩-١٩٨٠): فيلسوف أمريكي من أتباع المذهب الطبيعي، ومؤرخ للفلسفة والتراث العقلي. كان معروفًا بصفته مفسرًا للإنسانية اليونانية والأخلاقيات المسيحية. هو ابن قس معمداني (بابتيست)، قام بالتدريس لأكثر من نصف قرن بجامعة كولومبيا. كان العالم الناشط الصريح الذي يدخل في تحقيقات فلسفية مع العامة من الناس، وكان من أنصار المذهب الطبيعي الأكثر تأثيرًا، وهو المدرسة الفلسفية التي تربط الطريقة العلمية بالفلسفة وتؤمن بأن كل موجودات الكون وأحداثه طبيعية.

حنة آرنت (١٩٠٦-١٩٧٥): فيلسوفة ألمانية المولد وواحدة من رواد النظرية السياسية، هربت من الاضطهاد النازي وهاجرت إلى فرنسا في عام ١٩٣٣م، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٩٤٠م. كانت تؤمن أن الأعمال ذات المعنى تعتمد على الأفكار المتأنية والمتداولة. عملت عضو هيئة التدريس بجامعة شيكاغو من عام ١٩٦٣م إلى ١٩٦٧م وبعد ذلك في جامعة

المدرسة الحديثة للأبحاث الاجتماعية The New School for Social Research بنيويورك. من أشهر أعمالها كتاب (أصول الشمولية) The Origins of Totalitarianism والذي ربطت فيه تصاعد الشمولية في القرن التاسع عشر بالإمبريالية ومعاداة السامية.

خورخي سانتايانا (١٨٦٣-١٩٥٢): فيلسوف وشاعر وروائي أمريكي، إسباني المولد، انضم إلى هيئة التدريس في جامعة هارفارد في عام ١٨٨٩م. تلميذ ويليام جيمس وجوسياه رويس، كان يؤمن أن كل الواقع خارجي عن الوعي وأن كل المعتقدات حول العالم الخارجي مبنية على «الإيمان الحيواني». في كتابه ذي الخمسة أجزاء (حياة العقل)، قام سانتيانا بربط العلم والدين والفن، بتصنيف كل واحد منها على أنه فريد، ولكنها جميعًا أشكال صالحة بشكل متكافئ من الرمزية.

ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦): مؤرخ وكاتب، وفيلسوف تجريبي إسكتلندي. كان شخصية محورية في التنوير، اشتهر بمجادلاته ضد أدلة وجود الإله. في كتابه (رسالة في الطبيعة البشرية) حاول هيوم أن يستخدم الأبحاث الاستبطانية والرصدية لدراسة العقل البشري وتقديم بيان عن المعرفة والمعتقد، والأخلاق و«العواطف»، مثل الحب والكره والتواضع والرذيلة. كان يجادل بأنه لا يوجد شيء من قبيل المبادئ البديهية المفترضة مسبقًا أو المعروفة فطريًا، بل هي مشتقة من الخبرات المكتسبة من أحداث حقيقية.

ديموقريطوس أبديرة (٤٦٠-٣٧٠ قبل الميلاد): إلى جانب أستاذه ليوكيبوس، كان الممثل الرئيس للفلسفة المعروفة بالمذهب الذري. كان معاصرًا أصغر لسقراط، ومعاصرًا أكبر لأفلاطون. كان يؤمن بميكانيكية الكون من دون أن يكون له تصميم أو غاية كما استنتج، مثل ليوكيبوس، أن كل شيء عبارة عن تعددية للجزيئات أو الجسيمات ذات الأحجام والأشكال

المختلفة، التي تتجمع مع بعضها لكنها لا تختلف من ناحية تركيبتها النوعية.

رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠): عالم رياضيات فرنسي، يعتبر أب الفلسفة الحديثة. حاول أن يوسع استخدام الطريقة الرياضية، بدلائلها اليقينية والبديهية، للوصول إلى معرفة حول العالم لا يمكن دحضها أو إنكارها. ومن خلال انطلاق بحثه من وجهة نظر تشكيكية كونية، استنتج أن الأمر الوحيد الذي كان حقيقيًا من دون أي شك هو تفكيره؛ ومن هنا جاء قوله المأثور «أنا أفكر، إذًا أنا موجود». هذا التأسيس من المنظور الشخصي لنظرية المعرفة الخاصة به قاد مساعديه إلى إضفاء الطابع المؤسسي لهذه الثنائية الديكارتية الشهيرة، التي يتم فيها فصل العقل والمادة إلى شيئين مختلفين تمامًا لكنهما متفاعلان مع بعضهما البعض.

زينوفون (حوالي ٤٣٠-٣٥٥ قبل الميلاد): جنرال وعالم أخلاق ومؤرخ يوناني، صوّر سقراط على أنه معلم الفضيلة والمعرفة العملية وحاول من خلال كتاباته أن يدافع عن سقراط من التهم التي أدت إلى إعدامه.

زينون الإيلي (حوالي ٤٧٠ قبل الميلاد): فيلسوف عاش في فترة ما قبل سقراط، كان يؤمن أن الحركة، والتغير، والتعددية هي سخافات منطقية وأن فقط الموجودات الثابتة غير القابلة للتغيير هي الحقيقية. في مفارقاته الشهيرة، والتي عرضت أربع مجادلات ضد الحركة، حاول أن يستخدم الإثباتات المنطقية لإنكار الافتراضات الشائعة حول الوقت والحركة.

سقراط (حوالي ٤٦٩-٣٩٩ قبل الميلاد): ابن بنّاء وقابلة، معلم أفلاطون. تمت محاكمته وإعدامه في عمر السبعين بتهمة قلة التقوى وإفساد شباب أثينا. بحسب الظاهر، لم يكتب سقراط أي شيء، لكن رغمًا عن ذلك، يعتبر أبرز الفلاسفة وأكثرهم تأثيرًا. ويبقى سعيه النموذجي نحو تميز الإنسان واعتقاده أن «الحياة التي لا يتم استكشافها لا تستحق العيش» كمنارات ترشد الكثير في كل زمان.

سورين كيركغارد (١٨١٣-١٨٥٥): فيلسوف، وعالم إلهيات، وناقد اجتماعي دنماركي. كان أول فيلسوف يصنف على أنه وجودي. موقفه وأسلوبه الفلسفي كان متمثلاً في عدم رضاه بالفلسفة التقليدية لأنها سطحية ومتحذلقة بشكل مفرط وبعيدة كل البعد عن هموم وضغوط الحياة الفعلية، وكذلك في اعتراضه على أن يتم تصنيفه، ورفضه لأي مجموعة من المعتقدات.

سوزان لانغر (١٨٩٥-١٩٨٥): فيلسوفة أمريكية كانت تصف البشر على أنهم موجودات «رمزية» وكانت ترى في الرمزية «مفتاحًا جديدًا» في الفلسفة. درست الدور «التحولي» للرموز في تشكيل الأعمال الفنية، وكذلك في المنطقي الرمزي، والعلوم الطبيعية، والتحليل النفسي. كانت لها أيضًا إسهامات كبيرة في فلسفة اللغة وفلسفة العقل.

طاليس (حوالي ٥٨٥ قبل الميلاد): سياسي يوناني، وعالم في الهندسة، وعالم فلك، وحكيم. يعتبر بوجه عام أول فيلسوف غربي. عاش في ميليتوس بآسيا الصغرى. كان يعتقد أن الماء هو العنصر الأساسي للعالم.

غريغوري فلاستوس (١٩٠٧-١٩٩١): بروفيسور الفلسفة بجامعتي بريكلي وبرينستون، والخبير بسقراط وأفلاطون. فلاستوس اعتنق مذهب المساواة، والذي يقضي بأن كل فرد يملك نفس «القيمة الإنسانية الفردية.»

غلبرت رايل (١٩٠٠-١٩٧٦): فيلسوف إنجليزي، متخصص في الفلسفة الكلاسيكية. انتقد في (مفهوم العقل) ثنائية الجسد والعقل لديكارت وفندها. إلى جانب ويتنجنستين، كان رايل واحدًا من رواد فلسفة اللغة في فترة منتصف القرن العشرين.

غوتفريد فيلهيلم لايبنتز (١٦٤٦-١٧١٦): فيلسوف ألماني من أتباع المذهب العقلي، ابتكر مع السير إسحاق نيوتن حساب التفاضل والتكامل، وأحد الآباء الأوائل للمنطق الرياضي الحديث. كان يدعو إلى مبدأ أن المنطق

ضروري لكل تفسير، وكان يؤمن أن هناك عددًا غير محدود من العوالم الممكنة، اطلع عليها الإله جميعها قبل أن يخلق العالم الحقيقي، وهو نظام كبير واحد يظهر خطة الإله وهو «أفضل العوالم الممكنة». لايبنتز كان يعتقد أن هناك أسباب كافية تفسر لم كل شيء في العالم هو في العالم، ولم هو بالهيئة التي هو عليها.

فرانسوا ماري آروويه فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨): فيلسوف وكاتب، وروائي، وناقد اجتماعي فرنسي. كان هذا الإنساني الليبرالي النشط سياسيًا وأحد أبرز المفكرين في عصر التنوير. وكانت مسرحيته الهزلية الكلاسيكية (كانديد) (أو الساذج) تسخر من آراء لايبنتز التي تقول إنه مهما كان العمل أو الحدث شريرًا، «فإن كل شيء يحصل للأفضل في أفضل العوالم الممكنة». كان فولتير يعتقد أنه يجب علينا أن نأخذ خطوات جادة لمحاربة وإحباط الشرور في هذا العالم. كان مما كتب: «يجب علينا حرث حديقتنا».

فرانسيس هربرت برادلي (١٨٤٦-١٩٢٤): فيلسوف مثالي بريطاني كان يعتقد أن الحقيقة، كما ترد في اللغة، لا يمكن أبدًا أن تحوي «الكل» أو المجمل «المطلق» للأشياء. وكما هو حال كل المثاليين المطلقين، كان يرى أن الفرق بين الموضوع والمعنى هو فرق اصطلاحي، وليس إلا نتيجة للتفكير.

فريدريك فيلهيلم نيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠): عالم في فقه اللغة، وشاعر وناقد اجتماعي، وفيلسوف ألماني. كان نيتشه يحارب الميتافيزيقيا وعلم الأخلاق التقليديين، وكان يبشر بالـ «السوبرمان - الإنسان الخارق» أو الـ «أوفرمان - الحاكم المطلق»، وهو نوع «عميق الجوهر» كان يزعم أنه يجسد «إرادة القوة» التي تؤكد على أهمية الحياة. كما رفض نيتشه فكرة المعرفة المطلقة. كان يعتقد أن كل التفكير محدود بوجهات النظر الشخصية، وأن كل شيء هو مجرد تأويل أو تفسير، وأن المعرفة ذات طابع مؤقت.

فيثاغورس (حوالي ٥٨٢-٥٠٧ قبل الميلاد): فيلسوف وعالم رياضيات

وحكيم. أسس الفيثاغورية وهي مدرسة فلسفية وأخوية شبه دينية - والتي امتدّ وجودها ١٥٠ عامًا بعد وقت أفلاطون - وكانت تؤمن بالخلود وانتقال الروح والقرابة بين جميع أشكال الحياة.

لودفيغ فيتغنشتاين (١٨٨٩-١٩٥١): فيلسوف نمساوي المولد، يعتبر من أكثر الفلاسفة تأثيرًا في القرن العشرين. كان يركز على أهمية دراسة اللغات. كتابه المهم (رسالة منطقية فلسفية) هو العمل الوحيد الذي طبع في حياته، والذي يعرض فيه أفكاره حول أساسات المنطق والرياضيات، وكيف وصل بها إلى تطوير عدة مجالات مهمة للفلسفة: الوضعية المنطقية، والتحليل اللغوي، وعلم دلالات الألفاظ.

ليوكيبوس (القرن الخامس قبل الميلاد): من الفلاسفة اليونانيين الأوائل، معلم ديموقريطوس، ومؤسس المذهب الذري، وهي النظرية التي تتبنى أن العالم المادي مكون من عدد غير متناهٍ من الجسيمات أو الجزيئات غير القابلة للانقسام، التي تتحرك بشكل عشوائي في فراغ غير متناهٍ، بأحجام وأشكال مختلفة، لكن ليس بأي نحو نوعي.

مارتن هايدغر (١٨٨٩-١٩٧٦): فيلسوف ألماني وناقد للحداثة والديموقراطية. كان يسعى إلى فهم طبيعة «الوجود»، وتحديدًا فيما يخص كيف يتصرف ويرتبط البشر بالعالم.

ماركوس أوريليوس (١٢١-١٨٠): إمبراطور وفيلسوف روماني، ومن أنصار المدرسة الرواقية، وهي نظام من الأخلاق يقوده بشكل رئيس مفهوم أن الحياة الأخلاقية تسير بما يتماشى مع الطبيعة وتحكمها الفضيلة. تأملاته تتدبر في الحياة والموت، والسلوك، والكون، وتركز في الغالب على تفاهة الحياة البشرية.

موريس ميرلو بونتي (١٩٠٨-١٩٦١): فيلسوف فرنسي اهتم بشكل

رئيسي بتوصيف ظاهرة الإدراك أو «فينومينولوجيا الإدراك» (وهو أيضًا عنوان أهم أعماله). وبالاستناد على علم النفس والفسيولوجيا التجريبيين، وكذلك على أعمال الفلاسفة الألمان مثل هايدغر، أكّد ميرلو بونتي على أن النهج الذي تكون عليها التجربة الإنسانية هو بالضرورة نهج الوجود في العالم وليست نهج انقطاع الفرد عن العالم.

ميشيل دي مونتين (١٥٣٣-١٥٩٢): فيلسوف وكاتب فرنسي يعرف بسقراط الفرنسي. في مقالته (اعتذار لريموند سيبوند) المنشورة عام ١٥٨٠م، دافع مونتين عن محاولة الراهب الإسباني إثبات أن المعتقدات الكاثوليكية يمكن ترسيخها بشكل جازم من خلال استخدام المنطق، مستخدمًا وجهات نظر سيبوند كمنطلق لمجادلاته التشكيكية. هذه المقالة جعلت من مونتين قوة توجيهية في التشكيك والنسبية الثقافية في أوروبا الحديثة. اكتسب مونتين شهرة خاصة بسبب أعماله الأدبية (المقالات) التي كانت ذكية وإنسانية، لكنها في نفس الوقت ثاقبة بشكل لاذع.

ميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤): فيلسوف فرنسي وناقد اجتماعي، طور منهجًا للتاريخ العقلي وصاغ مفهوم «على آثار المعرفة». سعى لكشف واقتلاع المعارف والأنظمة الضمنية التي ارتكزت عليها ممارسات ومؤسسات ونظريات محددة.

ميغيل دي أونامونو (١٨٦٤-١٩٣٦): كاتب وعالم لغوي، وفيلسوف إسباني. معظم كتاباته تناقش معنى الحياة والموت. طوّر «معنى الحياة التراجيدي» الذي يرى من خلاله أنه حتى لو لم نتمكن من التأكد أن حياتنا تتضمن أي نوع من السمو أو القيمة الأخروية، يجب أن نعمل كما لو كان لها ذلك فعلاً.

هرقليطس (حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد): فيلسوف يوناني عاش في فترة ما قبل سقراط، لم يبق من نظرياته الفلسفية إلا نصوصًا مجزأة، اقتبسها ونسبها

له الكتّاب من بعده في أقوال مأثورة. هذه الأقوال أكدت على الاتحاد في عالم من التغيير. كان يبدو أنه يعتقد بأن النار كانت مصدر المواد الطبيعية وأن العالم تحكمه «اللوجوز» (الشعارات)، والتي تترجم بشكل مجازي إلى «الكلمة أو الشيء المنطوق».

والتر كوفمن (١٩٢١-١٩٨٠): ألماني المولد، بروفيسور الفلسفة بجامعة برينستون من عام ١٩٤٧م وحتى وفاته. كوفمن يُعرف بالدرجة الأولى لترجمته للكثير من أعمال فريدريك نيتشه، ومسرحية (فاوست) لغوته، ولكنه أنتج الكثير من الأعمال الأصيلة، بما في ذلك كتبه عن الوجودية والدين. وكان يعرب بصراحة عن أسفه لاختفاء الروح السقراطية وتفشي «ضيق الأفق» في الفلسفة الأكاديمية

ويليام جيمس (١٨٤٢-١٩١٠): فيلسوف وعالم نفس أمريكي. كان بروفيسورًا في جامعة هارفارد، ومروجًا للمذهب العملي (البراغماتية). قام بتوسيع تطبيق البراغماتية على نطاق أوسع مما حدده مؤسسها، تشارلز ساندرز بيرس، وقام بتطوير وصف أو نظرية للحقيقة لكي يوفق بين التناقضات الظاهرية بين العلم والقيم. بالنسبة لجيمس، فإن حقيقة الفكرة تتحدد من خلال جدواها ومدلولاتها الاجتماعية أو الأخلاقية أو تبعاتها الأخلاقية.

ويليام كينغدن كليفورد (١٨٤٥-١٨٧٩): عالم رياضيات بريطاني ومتخصص في فلسفة العلم. كتب نصوصًا مهمة في نظرية المعرفة والأخلاق والدين، وسعى إلى تقديم تفسير للحياة من خلال آخر الاكتشافات العلمية.

***



مطالعات مقترحة

لقد استفدت كثيرًا من كتابات فلاسفة حديثين مغمورين، ممن انخرطوا في نوع من البحث الفلسفي يجسد الاتجاه السقراطي. **ميتافيزيقيا المركبات الطبيعية** (Metaphysics of Natural Complexes)، (مدينة ألباني: مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٠)، للكاتب جستس بكلر يقدم «نظرية فئوية» مبتكرة ومقنعة حول الميتافيزيقيا تنافس النظرية التي طورها أرسطو. ولفهم كامل الأفكار الفلسفية لبكلر يجب الرجوع إلى أعماله: **إمبريالية تشارلز بيرس** (Charles Peirce's Empiricism)، (نيويورك: هاركورت، بريس آند كومباني، ١٩٣٩)، **الطبيعة والقضاء** (Nature and Judgment)، (نيويورك: غروسيت آند دنلاب، ١٩٥٥)، **نحو نظرية عامة لقضاء الإنسان** (Toward a General Theory of Human Judgment)، (نيويورك: مطابع دوفر، ١٩٥١)، وكتاب **مفهوم المنهج** (The Concept of Method)، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٦١). كتابه الأخير، **الجزء الرئيس من الضوء: حول مفهوم الشعر** (The Main of Light: On the Concept of Poetry)، (نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٧٤)، يقدم وجهة نظر فريدة وواضحة حول مفهوم الشعر، كما يقدم موجزًا لنظريته في القضاء. كما يمكن استنباط الكثير من التفكير الفلسفي لبكلر، وانعكاساته في كل حقول المعرفة تقريبًا، من خلال قراءة كتاب **منظورات الطبيعة: إمكانيات لميتافيزيقيا ترتيبية** (Nature's Perspectives: Prospects for Ordinal Metaphysics)، (مدينة ألباني، مطبعة جامعة نيويورك ستيت، ١٩٩١)،

تحرير آرمن مارسوبيان، وكاثلين والاس، وروبرت إس كورينغتن.

ويعد كتاب **مسيرة الفلسفة** (Career of Philosophy) ذو الثلاثة أجزاء لمؤلفه جون هيرمان راندال (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٦٢، ١٩٦٥، ١٩٧٧) تحليلاً واستكشافًا ثاقبًا للتفكير الفلسفي على مر العصور. وكتابه **الطبيعة والتجربة التاريخية: مقالات في المذهب الطبيعي ونظرية التاريخ** (Nature and Historical Experience: Essays in Naturalism and the Theory of History)، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٥٨) يعد مثل الرحلة المبهرة في الفلسفة. وكتاب **أرسطو** (Aristotle) لراندال (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٦٠)، وكتاب **أفلاطون: كاتب دراما حياة العقل** (Plato: Dramatist of the Life of Reason)، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٦٠) يقدمان وجهات نظر مثيرة لهذين الفيلسوفين، وكذا لسقراط، تختلف بشكل كبير عن وجهات نظر الفلاسفة الأكاديميين. في جميع كتبه، يظهر أسلوب كتابته الواضح والممتع مثل نسمات من الهواء المنعش. وأيضًا مما يستحق القراءة من كتب راندال هو كتاب **دور المعرفة في الديانة الغربية** (The Role of Knowledge in Western Religion)، (بوسطن: مطبعة ستار كينغ برس، ١٩٥٨)، **كيف تستخدم الفلسفة ماضيها** (How Philosophy Uses Its Past)، (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٦٣)، وكتاب **صنع العقل الحديث** (The Making of the Modern Mind)، (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٧٧).

وكما قلت في بداية كتابي، يظل والتر كوفمن معروفًا من خلال ترجمته لمعظم أعمال نيتشه. ومع أن الأغلبية يتفقون على أن ترجماته ممتازة بشكل استثنائي، إلا أنني أفضّل كتابه **نيتشه: الفيلسوف، عالم النفس، الدجال**

(Nietzsche: Philosopher, Psychologist, AntiChrist)، (برينستن نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستن، ١٩٥٠) على تعليقاته التي أضافها على الأعمال التي ترجمها. معظم الكتب التي كتبها كوفمن والتي فتحت مجالاً فلسفيًا جديدًا لم تعد تطبع، لكنها تستحق أن يتم البحث عنها وإيجادها. وجدير بالذكر أن كتبه الأولى، مثل كتاب **إيمان المهرطق** (The Faith of a Heretic) **ونقد الدين والفلسفة** (Critique of Religion and Philosophy) زاخرة بنصوص خالدة. ولكن باستثناء مجموعة مقالاته في كتاب **من شكسبير إلى الوجودية** (From Shakespeare to Existentialism)، (برينستن نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستن، ١٩٥٩)، فإن الكتب التي كتبها متأخرًا في مسيرته تحمل قيمة فلسفية أكبر. كتابه **من دون ذنب ولا عدالة: من خوف اتخاذ القرار إلى الاستقلالية** (Without Guilt and Justice: From Decidophobia to Autonomy)، (نيويورك: بيتر إتش وايدن، ١٩٧٣) هو عبارة عن استكشاف عميق لمفاهيم الذنب والعدالة. أما كتابه **نصيب رجل: ثلاثية** (Man's Lot: A Trilogy)، (نيويورك: مطبعة ريدرز دايجست، ١٩٧٨) فهو عبارة عن مزيج من النصوص الفلسفية والصور الفوتوغرافية الجميلة (من تصوير كوفمن نفسه)، والذي يقدم عدة وجهات للنظر حول المعنى الدقيق لكون الإنسان إنسانًا على مر تاريخ الفلسفة، والفن، والأدب، وحضارات العالم. وكذلك ثلاثية **اكتشاف العقل** (Discovering the Mind)، (تم إعادة إصدارها من قبل ترانساكشن للنشر، نيوبرونزويك، نيوجيرسي)، والتي تعرض وجهات نظر فريدة، بل قد تكون راديكالية، حول أشخاص مفكرين لامعين مثل غوته، وكانط، وهيغل، وفرويد، وجانغ، وأدلر، وتعد تتويجًا مستحقًا لمسيرته الحافلة.

وكتاب سوزان لانغر القصير **مدونات فلسفية: دراسة العقل البشري بالنسبة إلى الشعور، واستكشاف الفكر، والفن، واللغة، والرمزية** (Philosophical Sketches: A Study of the Human Mind in Relation to Feeling, Explored Thought, Art, Language, and Symbol)، (بالتيمور: مطبعة جونز هوبكنز، ١٩٦٢) هو طريقة رائعة للدخول إلى أعمالها الفلسفية. كما يمكن أن يكون منطلقًا إلى كتبها الأخرى، مثل **الشعور والصورة** (Feeling and Form)، (نيويورك: تشارلز سكريبنرز سونز، ١٩٥٣)، وكتاب **العقل: مقالة عن شعور الإنسان** (Mind: An Essay on Human Feeling)، والذي يقع في عدة أجزاء (بالتيمور، مطبعة جامعة جونز هوبكنز، ١٩٦٧ و ١٩٧٢)، وكتاب **الفلسفة بمفتاح جديد** (Philosophy in a New Key)، (كامبريدج، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٤٩).

ومن ضمن الكتب الكثيرة الأخرى التي استفدت منها بشكل خاص:

- لودويغ ويتغينستاين، **تراكتاس لوجيكو-فيلوسوفيكوس** (Tractatus Logico-Philosophicus)، (لندن، راوتليدج آند كيغان بول، ١٩٦٣).
- ويليام كينغدن كليفورد، **محاضرات ومقالات** (Lectures and Essays)، (نيويورك: ماكميلان وشركاته، ١٨٨٦).
- موريس كوهين، **العقل والطبيعة** (Reason and Nature)، (نيويورك: فري برس، ١٩٥٣)؛ وكتاب **العقل والقانون** (Reason and Law)، (نيويورك: كتب كولير، ١٩٦١).
- ماثيو ليمن، **التفكير في التعليم** (Thinking in Education)، (كامبريدج، المملكة المتحدة، ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج،

١٩٩١) وكتاب **ماذا يحدث في الفن** (What Happens in Art)، (نيويورك: إيرفينغتن للنشر، ١٩٦٧).

- حنة آرنت، **الوضع البشري** (The Human Condition)، (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٥٨)، **حياة العقل** (The Life of the Mind)، (نيويورك: هاركورت بريس جوفانوفيتش، ١٩٧٨)، **رجال في أوقات عصيبة** (Men in Dark Times)، (نيويورك: هاركورت، بريس آند ورلد، ١٩٥٨).
- غلبرت رايل، **مفهوم العقل** (The Concept of Mind)، (نيويورك: بارنز آند نوبل، ١٩٤٩).
- إيرنست ناغل، **المنطق من دون الميتافزيقيا ودراسات أخرى في فلسفة العلوم** (Logic Without Metaphysics and Other Studies in the Philosophy of Science)، (جلينكو، إلينوي: فلاي برس، ١٩٥٦) وعمله الرائع **تشكيل العلم: مشكلات في منطق الشرح العلمي** (The Structure of Science: Problems in the Logic of Scientific Explanation)، (نيويورك: هاركورت، بريس آند ورلد، ١٩٦١).
- إي آر دودز، **القدماء والتقدم: ومقالات أخرى حول الأدب والمعتقد الإغريقي** (The Ancient of Progress: and Other Essays on Greek Literature and Belief)، (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٧٣)، **وثني ومسيحي في عصر القلق** (Pagan and Christian in an Age of Anxiety)، (نيويورك: دبليو دبليو نورتن، ١٩٧٠)، وكتاب

الإغريق واللاعقلاني (The Greeks and the Irrational)، (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٥١).

- ديفيد هيوم، **أطروحة حول الطبيعة البشرية** (A Treatise of Human Nature)، (أكسفورد: مطبعة كلاريندن، ١٩٥١)
- باولو فريري، **أصول تربية المضطهدين** (Pedagogy of the Oppressed)، (نيويورك: شركة كونتيبوم للنشر، ١٩٩٠).
- جون ديوي، **المنطق: نظرية البحث** (Logic: The Theory of Inquiry)، (نيويورك: هولت، ١٩٣٨).
- جون ديوي وآرثر إف بنتلي، **العلم والمعلوم** (Knowing and the Known)، (بوسطن: مطبعة بيكن، ١٩٦٠).
- تشارلز إس بيرس، **كتابات بيرس الفلسفية** (Philosophical Writings of Peirce)، (نيويورك: دوفر للنشر، ١٩٥٥).
- خورخي سانتايانا، **أوبيتر سكريبتا** (Obiter Scripta)، (نيويورك: تشارلز سكريبنرز سونز، ١٩٣٦) وكتاب **كتابات مختارة مهمة لسانتايانا** (Selected Critical Writings of Santayana) في مجلدين (كامبريدج، المملكة المتحدة ونيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٦٨).
- إلياس كانيتي، **فعل إيماني** (Auto da Fé)، (نيويورك: مطبعة نونداي، ١٩٨٤).
- هيرمان بروخ، **البريء** (The Guiltless)، (سان فرانسيسكو: مطبعة نورث بوينت، ١٩٨٧)، **موت فيرجيل** (The Death of

Virgil)، (نيويورك: كتب فينتاج، ١٩٩٥)، **السائرون نيامًا: ثلاثية** (The Sleepwalkers: A Trilogy)، (نيويورك: كتب فينتاج، ١٩٩٦).

- روبرت موزيل، **رجل بلا صفات** (The Man Without Qualities)، (نيويورك: كنوبف، ١٩٩٥).
- فيودور دوستوفيسكي، **رسائل من تحت الأرض** (Notes from the Underground)، (نيويورك: دبليو دبليو نورتن، ١٩٨٩).
- رالف إليسن، **الرجل الخفي** (Invisible Man)، (نيويورك: سيجنيت، ١٩٥٢).
- رولف هوخوث، **النائب** (The Deputy)، (نيويورك: مطبعة غروف، ١٩٦٤).
- إيتالو كالفينو، **ست مذكرات للألفية القادمة** (Six Memos for the Next Millennium)، (كامبريدج ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٨٨).
- روبيرت كولز، **أطفال الأزمة: دراسة حول الشجاعة والخوف** (Children of Crisis: A Study of Courage and Fear)، (نيويورك: ليتل، براون، ١٩٦٦)، **نداء الخدمة: شاهد على المثالية** (The Call of Service: A Witness to Idealism)، (بوسطن: هوتن ميفلن، ١٩٩٣)، **نداء القصص** (The Call of Stories)، (بوسطن: هوتن ميفلن، ١٩٨٩).
- إيلي فيزيل، **الليل** (Night)، (نيويورك: بانتام، ١٩٦٠)، **الفجر** (Dawn)، (نيويورك: بانتام، ١٩٨٢).

- كليفورد جيرتز، **فهم الثقافات** (The Interpretation of Cultures)، (نيويورك: كتب بيسيكس، ١٩٧٣).
- جيروم برنر، **ثقافة التعليم** (The Culture of Education)، (كامبريدج ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٦).
- جون ويليام ميلر، **منتصف عالم الرموز والأجسام العاملة** (The Midworld of Symbols and Functioning Objects)، (نيويورك: دبليو دبليو نورتن، ١٩٨٢).
- لي سمولين، **حياة الأكوان** (The Life of the Cosmos)، (لندن: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٧).
- لورنس شيمس، **الظمأ للمزيد: البحث عن القيم في عصر الطمع** (The Hunger for More: Searching for Values in an Age of Greed)، (نيويورك: كتب التايمز، ١٩٨٩).

***

شكر وتقدير

لم يكن بوسعي إكمال هذا الكتاب من دون الدعم اللامحدود والتشجيع المستمر لزوجتي وتوأم روحي، سيسيليا. عندما كنت أمر في أحلك الظروف، كانت سيسيليا تلهمني لأكمل المسير في اتجاه أحلامي. كما كان للملاحظات المدروسة للكاتب كلاي مورغن على الكتاب في بداياته الأثر الكبير في توجيه العمل في الطريق الصحيح. كما ألهمتني آلين ميسن، المحررة في شركة نورتن، لكيلا أكتفي بكتابة ما ظننت أني أستطيع كتابته، وجعلتني أكتب في النهاية كتابًا لم أكن أعلم أني أمتلك القدرة على كتابة مثله. التعاون معها على هذا الكتاب كان من أكثر الأمور التي تدعوني للامتنان في مسيرتي مع الكتابة. ستيفاني دياز، مساعدة آلين ميسن، قرأت وعلقت على المسودة التي كتبتها في أهم الأوقات وساعدتني لأقوم بمراجعات مهمة. كثيرون هم من يستحقون شكري وتقديري: والدتي، مارغريت آن بي فلبس، التي شجعتني باستمرار ولم تشك يومًا أني سأنجح في النهاية؛ روبرت كولز، بروفيسور الـ «جيمس آجي» في علم الأخلاق الاجتماعي وبروفيسور الطب النفسي والإنسانيات الطبية بجامعة هارفارد؛ موريس ديس، المؤسس والرئيس التنفيذي للمركز القانوني للفقر بجنوب الولايات المتحدة؛ غوردون هايست، بروفيسور الفلسفة بجامعة ولاية كارولينا الجنوبية والصديق العزيز الذي أعطاني فهمًا وتوجيهاتٍ كنت في أمسّ الحاجة إليها عند مفترقات الطرق الحاسمة؛ فيليشا إيث، وكيلي لهذا الكتاب؛ بيل بينينغتن، بروفيسور الفلسفة في جامعة ديلتا ستيت؛ هينري أوتلاو، رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة ديلتا

ستيت، وجون ثورنيل، عميد الخريجين بجامعة ديلتا ستيت، الذي ساعدني من خلال لقاء بالصدفة لأضع حياتي على مسار مختلف تمامًا؛ كارلا ناريت، عميدة الخريجين بجامعة مونتكلير ستيت، التي ساعدت على ضمان تمكني من تحقيق آمالي الفلسفية؛ نيك سيكستن، الذي أعطاني أول كتاب لوالتر كوفمن؛ أليكس فيليبس، والدي؛ جون إيستيرل؛ سيلي جابريل؛ الراحل أليكس هيلي، الصديق المحبوب الذي حثني على كتابة كتاب؛ الراحل مارك سوتيه؛ ريبيكا بيتنر وكيسي بيتنر؛ جوي وسوزانا فوكس؛ جون رايس إيروين؛ باتي كانونيكو؛ ماري كانونيكو؛ الراحل ستيف كانونيكو؛ جيك باير، صديق العمر؛ جيمس إف فيليبس، عمي؛ ستيف مارتشيتي؛ بات ماكغي، الصديقة العزيزة الوفية، توم ماكغي، الصديق الذي بقي مؤمنًا بقدراتي؛ مارلين كارتر؛ بيل هيز؛ ديفيد ويليامز؛ كارلوس لودو؛ روب هورن وإليزابيث كرافت؛ أندرو برتن؛ جيم مورغن؛ مايك دورسو؛ جيليان هيرشبرغر؛ الراحلة ميليسا ويسكوت؛ سكوت ماكورد؛ باربرا «أنتي بلز» بيلوف؛ سيسيليا إسبينوزا؛ باتي بيوت؛ يفون إسبينوزا؛ جوش غلين؛ جيكوب نيدلمن، بروفيسور الفلسفة بجامعة سان فرانسيسكو ستيت؛ آن مارجريت شارب؛ فيليب غوين؛ نيك ديهات، الذي كان مثل فرد من أفراد العائلة؛ والتر أندرسن من دار نشر باريد بيليكيشونز، المرشد العزيز؛ أخي مايك فيليبس؛ ومات ليبمان، الإنسان والمعلم النموذج، والداعم بلا حدود. كما أريد أن أشكر الكثير والكثير من الأشخاص الذين أثروا حياتي بحجم لا يمكن وصفه أو تحديده من خلال سعيهم معي نحو سقراط.

***

كيف تؤسس مقهى سقراط الخاص بك؟

كريستوفر فيليبس وسيسيليا فيليبس

كيف تبدأ؟

كيف يمكنني أن أعرف إن كان هناك مقهى سقراط حيث أعيش؟ بإمكانك زيارة صفحة جمعية البحث الفلسفي على الإنترنت (http://www.socratescafe.com وصفحة http://www.philosopher.org/) حيث تضم قوائم بالمقاهي الموجودة في كل ولاية وكل مدينة. ستجد أيضًا معلومات التواصل لأشخاص مهتمين بتأسيس مقهى سقراط ويرغبون في التواصل مع أشخاص آخرين يشاركونهم هذا الاهتمام. مقاهي سقراط هي أنشطة جماهيرية، يتم تأسيسها من قبل أفراد مثلك ممن يرون حاجة ماسّة إلى مثل هذا النوع من الحوارات. لذا إن لم تجد مقهى سقراط في منطقتك، فلا تتردد في تأسيس مقهى بنفسك!

كيف أجد المكان المناسب لاستضافة مقهى سقراط؟ من الأمثلة العديدة للأماكن التي تصلح لاستضافة مقهى سقراط: المكتبات العامة، والمراكز الاجتماعية، ومتاجر الكتب، والمقاهي. المقاهي المملوكة لأفراد والتي تعمل دائمًا على التواصل مع المجتمع عادة ما ترحب بالفكرة. اعرض فكرة مقهى سقراط على مالك المقهى أو مدير المكان. يمكنك تنزيل بعض المقالات من موقع «جمعية السؤال الفلسفي» Society for Philosophical Inquiry التي يمكنك استخدامها لإقناع المسؤولين بالفكرة. اقترح أن تكون هذه

الجلسات في الأوقات التي تكون من أقل الأيام نشاطًا وازدحامًا بحيث لا تكون عائقًا أمام زبائن المحل المعتادين. الفترة المسائية من أيام وسط الأسبوع (ما عدا الجمعة، آخر أيام وسط الأسبوع) عادة ما تكون أوقاتًا مناسبة لاستضافة اجتماعات مقهى سقراط.

***

كيف تدير مقهى سقراط؟

الآن، بعد أن وجدت مقهى أو مكتبة أو مكانًا مناسبًا لإقامة مقهى سقراط بشكل دوري، فإن السؤال الذي سيدور في ذهنك هو: كيف أدير مقهى سقراط؟

ما هي الأسئلة المناسبة؟ في مقهى سقراط، أي سؤال تقريبًا يمكن أن يكون مادة لنقاش مفيد.

كيف تقرر أي سؤال تناقش؟ اطلب من المشاركين أن يقترحوا أسئلة. شجعهم على طرح أي سؤال يخطر بذهنهم لمناقشته سقراطيًا. ليس من الضروري أن تكون أسئلتهم تقليدية. اقرأ كل الأسئلة بصوت عالٍ للمشاركين ثم اطلب منهم أن يصوتوا للسؤال الذي يشعرون تجاهه بأقل قدر من الخبرة وأكثر قدر من الحيرة.

كيف تبدأ النقاش حول السؤال الذي تم اختياره؟ في مستهل النقاش، اسمح لبعض المشاركين أن يجيبوا عن السؤال بأي طريقة تناسبهم. وفي الوقت الذي يشعرون فيه أن تلك الجلسة ليست إلا تسامرًا مفتوحًا للجميع من دون أي منهج تقوم عليه، ابدأ باستكشاف السؤال بطريقة سقراطية. تفحص السؤال بالبحث عن: أ) الافتراضات التي بني عليها، ب) المفاهيم المتضمنة، جـ) الاختلافات في النوع والكم، د) الاتساق والتناقض المنطقيين. ثم حاول البحث عن الاعتراضات المقنعة ووجهات النظر المغايرة.

كيف أكتشف الافتراضات التي بني عليها السؤال؟ على سبيل المثال، عندما يسأل مشارك سؤالاً عميقًا مثل «كيف يمكنك التغلب على العزلة؟» فإنك بحاجة إلى أن تتحدى منطلق السؤال من البداية. يمكنك أن تسأل: هل العزلة شيءٌ نريد دومًا أن نتغلب عليه؟ شكسبير وغوته ربما يكونون قد كتبوا أعمالهم الخالدة بسبب أنهم اغتنموا شعور العزلة بدلاً من محاولة الهروب منه.

ما هي المفاهيم المتضمنة في السؤال؟ لتفحص سؤال التغلب على العزلة، يجب عليك أولاً أن تسأل وتجيب أسئلة من نوع: ما هي العزلة؟ ماذا يعني التغلب على العزلة؟ لماذا نريد التغلب على العزلة؟ من خلال الفصل بين المفاهيم واستكشافها واحدًا بعد الآخر، سيتمكن الجميع من رؤية السؤال من منظور جديد.

ما هي أمثلة استكشاف «فروقات النوع والكم»؟ في الرد على سؤال العزلة، بإمكانك أن تسأل: هل هناك أنواع من العزلة تريد التغلب عليها وأنواع أخرى لا تريد التغلب عليها بل تريدها أن تكون جزءًا من حياتك؟ ما هي بعض الأنواع العديدة المختلفة للعزلة؟ كيف تختلف بين بعضها البعض؟ وكذلك، ما هي الجوانب التي تجمع بينها؟ هل من الممكن أن تكون منعزلاً بشكل كامل؟

كيف أعرف أن هناك وجهات نظر مغايرة؟ قد تعتقد أنه بإمكانك توقع الردود بشكل مسبق. لكنك على الأغلب ستفاجئ أنت وبقية الحاضرين من مدى تنوع الإجابات وإلى أي حد تثير الدهشة. من خلال استكشاف معاني الكلمات التي يستخدمها الحاضرون، فإنك ستجدهم يقومون بالإفصاح والتعبير عن فلسفات لمفاهيم أساسية ربما كانوا يظنون أنها من المسلمات. وهذا ما يكون بداية لنقاش عفوي مثير.

كيف أتعامل مع الأشخاص الذين يحتكرون النقاش أو أولئك الذين لا يظهرون احترامًا للمشاركين الآخرين؟ حيث إن مقاهي سقراط تقام

عادة في أماكن عامة، فإن المجال مفتوح لمشاركة أي أحد. من المهم صنع بيئة يشعر فيها كل مشارك بالقدرة على المشاركة والاستماع بكامل راحته. إذا بدا أن أحد المشاركين يحتكر النقاش ويقوم بمقاطعة الآخرين كثيرًا، فإن على مدير الحوار أن يكون حازمًا ليتأكد أن كل فرد يمكنه أن يدلو بدلوه. وإذا تطلب الأمر، ربما تحتاج إلى أن تتحدث بانفراد مع ذلك الشخص وتخبره بشكل لائق أنه يجب أن يكون مراعيًا للآخرين الذين يريدون المشاركة. يجب أن تشرح أن الأشخاص الهادئين أو الخجولين قد يشعرون بالرهبة عندما يقاطعهم أحد ذو شخصية هجومية، وأنك ترغب في صنع بيئة توفر لجميع المشاركين الأمان والرعاية والدعم.

كيف يمكنني أن أشجع الحاضرين على التكلم؟ المدير الجيد للحوار يمكنه أن يكون قدوة لصنع بيئة صحية مهيئة لتبادل الأفكار. أولاً وقبل كل شيء، المدير الجيد للحوار يجب أن يكون مستمعًا جيدًا. يجب أن تستمع بإصغاء إلى ما يقوله كل مشارك؛ من دون أن تظهر كيف ستقوم بالرد أو ما ستسأل عنه لاحقًا. أيضًا، تأكد من أن جميع الأشخاص الذين يودون المشاركة يحصلون على فرصتهم؛ ابحث عن كل الإشارات التي توحي عن الرغبة في المشاركة، سواءً من خلال لغة الجسد أو حركة الأيدي. قد يومئ أحدهم رغبة في قول شيء ما، لكن بعد لحظات قد يتوقفون عن الإشارة لأنه قد مضى بعض الوقت أو أن ما كانوا يريدون طرحه لم يعد ذا صلة الآن. إذا حدث ذلك، يمكنك أن تعطيهم فرصة ليعبروا عن أفكارهم بسؤالهم عن رأيهم حول ما تم نقاشه للتو.

هل من المناسب أن يكون هناك مدير واحد للحوار فقط؟ في البداية، قد تكون أنت المدير الوحيد للحوارات، لأنك أخذت زمام المبادرة بتأسيس المجموعة. لكن مع مرور الوقت، يجب أن تبحث عن مشاركين آخرين يرغبون في تجربة إدارة الحوار ممن يفهمون بشكل واضح طبيعة هذا النوع من النقاش والتساؤل. مقهى سقراط يفترض أن يكون بديلاً حيويًا حيث تسمح فيه روح المساواة بالاستماع إلى أكبر عدد من الأصوات. لذا كلما

زاد عدد مديري الحوار كان ذلك أفضل. كل مدير حوار سيقدم أسلوبًا مختلفًا، وهذا سيكون سببًا في إثراء النقاشات ويساعد على ضمان استمرارية المجموعة على المدى البعيد.

هل يجب على مديري الحوار أن يكونوا محايدين أم هل بإمكانهم التعبير عن آرائهم هم أيضًا؟ مثل أي شخص في المجموعة، فإن مدير الحوار بمقهى سقراط يسعى هو الآخر إلى أن يكون أفضل في طرح الأسئلة. وبصفتك مديرًا للحوار، ستجد أنه من الصعب جدًا أن تبقى محايدًا. طبيعة الأسئلة التي ستطرحها خلال النقاش هي ذاتها انعكاس لحبك الشخصي للاستطلاع. ولكن عليك أن تسعى إلى أن تكون في درجة أعلى من الحيادية مقارنة ببقية المشاركين. إذا قمت باحتكار النقاش، فإن الآخرين قد يشعرون بشيء من الرهبة أو كأنما تم منعهم من الكلام. دورك بصفتك مديرًا للحوار هو أن تساعد وتلهم الآخرين لكي يفصحوا عن وجهات نظرهم الفريدة.

***

قواعد إدارة الحوار والمشاركة فيه

كن مستمعًا جيدًا. احترام أفكار كل مشارك هو عامل أساسي لنجاح مقهى سقراط. كن متقبلاً لما يقوله الآخرون حتى وإن لم تتفق معهم. يجب أن يعلم مدير الحوار المجموعة أن التقليل من شأن الآخرين هو أمر محظور في مقهى سقراط.

شجع المشاركين على تقديم أمثلة محددة لتدعيم وجهات النظر التي يظنون أنها آراء متفق عليها. يجب أن يطلب مدير الحوار طرح آراء مقنعة، ومنطقية، ومبنية بشكل جيد، لتدعيم وجهات النظر التي يطرحها كل مشارك.

ناقش وجهات النظر التي يطرحها الآخرون وحاول أن تكتشف إن كان هناك أي تناقض منطقي. فالهدف المشترك لجميع المشاركين في المقهى، وليس

فقط مدير الحوار، هو أن نصبح أكثر خبرةً وذكاءً في طرح الأسئلة.

لا تسمح للنقاش أن يصبح حوارًا ثنائيًا، ذهابًا وإيابًا، بين مدير الحوار وأحد المشاركين، أو بين مشارك ومشارك آخر. تذكر أن هذا تجمع لمحققين فلسفيين. لذا فإن المدير الجيد للحوار يجب أن يشرك الجميع في كل فرصة ممكنة.

تأكد من منح كل مشارك الفرصة للحديث. ادعُ المشاركين الهادئين للمشاركة في النقاش لكن من دون ضغط أو إجبار.

كن متقبلاً للمداخلات غير المتوقعة وغير المألوفة. يجب أن يتجنب مديرو الحوار توجيه الحوار إلى اتجاه محدد مسبقًا، وكأنهم يعلمون أفضل من الآخرين كيف يجب أن تكون الأسئلة والإجابات.

لا تكن سببًا في رهبة المشاركين ولا تضع أحدًا ليكون محط الأنظار بطريقة تجعلهم يشعرون بعدم الارتياح. كل ما يجب عليك فعله هو دفعهم برفق نحو الإفصاح عن وجهات نظرهم بأكبر قدر ممكن من الوضوح، ولكن إذا لم يكن لدى أحدهم أي مداخلة رغم تشجيعك، فانتقل إلى المشاركين الآخرين.

لا تسعَ إلى الوصول إلى اتفاق جماعي في الرأي. في هذا النوع من البحث السقراطي الذي تتم ممارسته في مقهى سقراط لا يهم إن بدأ الجميع أو انتهوا عند وجهات نظر مختلفة. لا يوجد أي حاجة إلى فرض أي نوع من الإجماع ما بين آراء المشاركين.

تذكر أن مقهى سقراط ليس إلا نوعًا واحدًا من أنواع النقاش الفلسفي، وقد لا يناسب الجميع. لأولئك الذين لا تعجبهم طريقة النقاشات في مقهى سقراط، قم بتشجيعهم لتأسيس مجموعات خاصة بهم يمكنهم من خلالها الاستمرار في النوع الذي يناسبهم من البحث الفلسفي.

لا تحاول أن تصل بالنقاش إلى خاتمة مصطنعة. أغلب حوارات مقهى

سقراط تستمر قرابة الساعتين. (إذا كان الحوار في مقهى أو أي مكان يبيع الأطعمة والأشربة، فمن المفيد جدًا للمالك أن تأخذوا استراحة لمدة عشر دقائق بعد الساعة الأولى من النقاش). يعد مقهى سقراط ناجحًا إذا خرج المشاركون من النقاش بأسئلة أكثر مما كان لديهم في البدء.

***

إعادة الفلسفة إلى العامة من الناس

نبذة عن كريستوفر فيليبس

بقلم جوش غلين

عمل كريس فيليبس صحفيًّا ومصورًا فوتوغرافيًا، ومدرسًا في إحدى المدارس العامة، وموجهًا جامعيًا يحمل ثلاث شهادات بدرجة الماجستير. في الوقت الحاضر، يعمل في مستوى أقل بكثير مما يتناسب مع إمكانياته، وتثقل كاهله الديون، ولكنه في غاية السعادة لما آلت إليه ظروف حياته.

حينما كان يحضّر لدرجة الماجستير في التعليم بجامعة مونتكلير ستيت في عام ١٩٩٦، صادف أنه قرأ **الفلسفة الوجودية من دوستوفيسكي إلى سارتر**، وهي مجموعة النصوص المؤثرة في الفلسفة الوجودية وما قبل الوجودية التي جمعها والتر كوفمن في عام ١٩٥٦ كوسيلة لتهيئة الإنسانية لحياة فلسفية بحق. وشيء ما قرأه فيليبس في مقدمة الكتاب جعلته ينطلق في أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية، زائرًا للسجون، ودور المحتضرين، ودور رعاية العجزة، وغيرها من الأماكن العامة - كل ذلك من ماله الخاص. أخبرني مؤخرًا: «حينما بدأت بعمل ذلك، لم يكن لدي أي خطة واضحة، لم يكن لدي سوى هذه الفكرة الصغيرة: إعادة الفلسفة إلى العامة من الناس».

كريستوفر يصر على أن «سقراط - أكثر من أي شخص آخر عاش قبله أو بعده - يقدم أفضل نموذج للفلسفة العملية؛ الفلسفة كأفعال، كطريقة

للحياة، وكشيء يمكن لأي فرد منا أن يعمله. الطريقة السقراطية هي وسيلة للبحث عن الحقائق من خلال الأنوار الخاصة بك؛ إنها نظام وروح ومنهج ونموذج للبحث الفلسفي، وأسلوب فكري، مجتمعة في شيء واحد». وبعد أن قرر أن يجلب أساليب سقراط اللاذعة والثاقبة في البحث الفلسفي إلى عامة الرجال والنساء حول البلاد، بدأ فيليبس ما يسميه مقهى سقراط، وهو عبارة عن تجمع عدد من الأشخاص في مقهى لمدة ساعتين، لتطبيق الطريقة السقراطية، بمساعدة مديرٍ للحوار، على أحد الأسئلة التي تحيرهم: ما هي الحقيقة؟ ما هي العدالة؟ من هو الفيلسوف؟

ويزعم فيليبس أن هذا النوع من المجهود الاجتماعي هو أفضل ترياق لمحاضرات الفلسفة التقليدية، والتي تصنع تراتبية بين الفيلسوف وتلميذه. ولا يتقاضى نقودًا مقابل تلك الخدمات التي يقدمها، لأنه «سيكون من التدنيس أن تتقاضى أجرًا من الناس عندما تتعلم منهم أكثر بكثير مما يمكن أن يتعلموه منك». مقهى سقراط ليس مكانًا تخصصيًا، وعلى الرغم من أنه قد يتحول إلى مساحة معرفية، فإن المشاركين - حتى أولئك الذين لم يقرأوا صفحة من كتاب فلسفة في حياتهم - لا يسعهم إلا أن يصبحوا خبراء في أسلوب البحث الفلسفي الخاص بفيليبس.

يقول فيليبس: «مقهى سقراط هو ملاذ للكثير من الأشخاص الذين لم يشعروا أن العالم الأكاديمي يرحب بهم، بما في ذلك الأكاديميين أنفسهم. المقهى ليس عدو للأكاديميا بأي شكل من الأشكال، لكن من المأمول أنه يوسع نطاق البحث والتحقيق، إلى المدى الذي اعتاد الفلاسفة على تطبيقه، عندما يفكرون في أي سؤال وكل سؤال تحت الشمس».

كيف يدير الشخص مقهى سقراط؟ يبدو أن كل ما عليك أن تفعله هو أن تستمر في أن تسأل ذاتك: «ماذا كان سيفعل سقراط؟» تذكر أن سقراط كان

يقدم نفسه كالمتسائل المحتار الذي لا يعلم سوى أنه لا يعلم شيئًا؛ وبضرب المثل، أظهر أن العمل الأنسب للفيلسوف - وامتدادًا، مدير الحوار في مقهى سقراط - هو مساعدتنا للانتباه إلى أننا في الواقع لا نعلم شيئًا بالقدر الذي كنّا نظن أننا نعلمه.

هل يصل مرتادو مقهى سقراط إلى إجابات لأسئلتهم؟ «ليست الغاية في الوصول إلى الإجابات، بل هي في إيجاد الوسيلة لطرح الأسئلة، والتي تعد الجواب، بشكل من الأشكال». هكذا يجيب فيليبس بغموض. «أولئك الذين يفتتنون بالطريقة السقراطية في البحث الفلسفي يزدهرون بالسؤال. لا تنتهي أسئلتهم أبدًا، ولا تنتهي طرق طرحهم للأسئلة. في الواقع، إن أكثر متفلسفي مقهى سقراط النهمين، هم بالنسبة لي.. تجسيد السؤال».

جوش غلين هو محرر مشارك للمجلة الإلكترونية (فيد FEED) ومحرر مجلة (هيرمينوت Hermenaut) المطبوعة، وهي مجلة في الفلسفة وثقافة فن البوب. هذا النص من النبذة التي تم نشرها في مجلة (فيد) في ٢٣ مايو ٢٠٠٠.

***

فهرس المحتويات


مكتبة
t.me/t_pdf

"كتاب مقهى سقراط يريك كيف أن أسلوب سقراط في التساؤل يصلح للصغار والكبار".

- واشنطن بوست

"لم يقدّم فيليبس أساسيات التفكير الفلسفي في هذا الدليل الساحر على طراز "الفلسفة للمبتدئين" فحسب، بل استرجع ما قاده لتأسيس برنامجه المتنقل، وأعاد رواية أكثر الجلسات حماسةً، والتي تظهر في بعض الأحيان تأملات مفاجئة وعميقة حول معنى الحب، والصداقة، والعمل، والتقدم في العمر، وغيرها من أسئلة الحياة الكبرى. نصائحه حول كيفية إدارة مقهى سقراط ستلهم محبي الأسئلة لكي يؤسسوا تجمعاتهم الخاصة".

- يو إس أيه توداي

"الشاعر والكاتب الروماني سيسيل كتب أن سقراط كان أول من استنزل الفلسفة من السماء. كريس فيليبس قد يكون أول من أقنع الناس بإدخالها إلى المجمعات التجارية".

- صحيفة ستار ليدجر-نيوارك (نيوجيرسي)


ISBN 978-1-947836-42-6

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

